أحلام سعيدة

أحلام سعيدة.
أحمد الملواني.
رقم الإيداع: 2023-27650
الترقيم الدولي: 978-977-86747-8-1

جميع الحقوق محفوظة © **كتوبيا للنشر والتوزيع**

يمنع منعا باتًا الاقتباس أو إعادة النشر سواء بالطباعة أو النشر الإلكتروني أو التصوير الضوئي للمحتوى أو أي جزء منه إلا بإذن كتابي من الناشر

+201005432405
kotopia
info@kotopia.org

كتوبيا
للنشر والتوزيع

العنوان: ١٤ شارع أبو نواس - ميامي - الإسكندرية - جمهورية مصر العربية

يمكنكم طلب إصداراتنا عبر متجر كتوبيا الإلكتروني

https://kotopia.store

أحلام سعيدة

رواية

أحمد الملواني

كتوبيا
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى الأب

الجزء الأول نوم ثقيل

كنت أعرف أن الحب أقوى من أي قيود أو قوانين، أثق في قدرته على الحياة في أقسى الظروف، أن يبقى قويًّا، نضرًا، يمتص مقومات حياته من أوهن خيوط الضوء، وأضعف نسمات الهواء. ولهذا بقي اتفاقنا مقدسًا طَوال عامين. نتمسك به كأمل وحيد يُبقِي للحب اشتعاله. في كل ليلة أنام على جانبي الأيسر. بعد تكرار المحاولة نجحت في تدريب جسدي ألا يغير وضعه أثناء النوم؛ وهو أمر شبه مستحيل، وما كان لينجح سوى بضغط من حبي لها. وهي كذلك التزمت بدورها في الاتفاق، فما كانت لتنام سوى على جانبها الأيمن؛ هكذا يُولِّي كلٌّ منا وجهه للآخر. وهكذا عندما يحين موعد استيقاظي، يكون وجهها هو أول شيء يُشرق ضوؤُه على عتمة البصر. وعندما يحين موعد استيقاظها، يكون وجهي هو أول ما يقع عليه بصرها.

لكن اليوم استيقظت في موعدي مع انطلاق صوت الموسيقى الحماسية من المذياع العام، لأجد أن مؤخرة رأسها المكسوة بشعر أسود كثيف، هي ما تطالعني، فكان هذا هو أول نقض لاتفاقنا منذ عامين كاملين.

نهضت مغالِبًا ذلك الحزن الثقيل الذي جثم على صدري لحظتها. المذياع العام بدأ بث فقرة التعليمات اليومية، بينما كان بصري معلقًا بلوح التواصل الذي يحتل معظم جدار في حجرة النوم. كان اللوح فارغًا

لأول مرة منذ أن اشتريته. لقد مسحتْ هالة رسالتي الأخيرة التي كتبتُها أول أمس، ولم تدون مكانها رسالة جديدة. أشعرني هذا بالمزيد من الحزن، لكن كان عليَّ أن أُنهي واجباتي قبل أن أتعامل مع هذا الشعور الثقيل المفاجئ. ربع الساعة من الهرولة على السير المتحرك. عشر دقائق في الحمَّام، تحت انهمار ماء تتراوح حرارته بين الخامسة والثلاثين درجة والأربعين درجة. فطور يحتوي على جرعة ملائمة من الكاربوهايدرات والقليل من البروتين. أرتدي بعده ملابس العمل، وأستعد للمغادرة.

لكن أولًا أُمسك القلم الأسود السميك وأكتب على اللوح: «**لماذا أعطيتِني ظهرك؟ ولماذا لم تكتبي رسالة جديدة؟**». المذياع العام أطلق إشارة الاستدعاء الخاصة بحافلة المصنع، فكان يُفترض أن أُلقي عليها نظرة أخيرة وهي تغطُّ في نومها الهادئ، ثم أُسرع بالنزول. لكنني لم أسرع هذه المرة؛ النظرة الأخيرة طال أمدها. مشاعري تتحرك ناحيتها بشكل لم أعهده من قبل بهذه القوة. شعور بالافتقاد، والاحتياج. مددت يدي أرفع بضع شعرات طويلة انحدرت لتداري جزءًا من وجهها. أتأمل ملامحها، وأنحني لأقبل خدها. يدي تسرح في حركة هادئة تتحسس حدود جسدها الساكن، في محاولة لفهم تلك السخونة التي تنبع من جسدي ذاته. لكن محاولتي لا تنتج سوى المزيد من الحرارة المتصاعدة، فتسري رعشة مفاجئة في مسارات دمائي، قبل أن تتجمع في شكل انتفاض مفاجئ أعاد اليقظة لذلك الجزء من جسدي الذي كنت اعتدت نومه الثقيل لعامين. إشارة الاستدعاء تتكرر بصوت أعلى، فأفيق من دوامة تلك المشاعر الساحقة، وينطفئ قدر من الحريق بداخلي، فأهرول خارجًا من البيت.

في المصنع أبدل ملابسي وأتحرك إلى موقعي. هناك حيث الماكينة والطاولة المعدنية الباردة يقف سمير يتثاءب في انتظار إشارة بَدْءِ العمل من المذياع العام. أحب العمل مع سمير، ليس لأنه صديقي، فهي كلمة قد لا أستطيع استخدامها لوصف علاقتي بأي شخص الآن. وربما هي كلمة على وشك أن تُنسى، وتُمحى من معاجم اللغة. لكن سمير تجمعه معي معاناة مشتركة، فهو وزوجته كذلك من الفرقاء، وكثيرًا ما أستفيد من نصائحه في هذا المجال. حالات كثيرة من الفرقاء انتهت بالطلاق، وهو ما يبدو الحل الأسهل، وربما الحكومة ذاتها تروج له كوسيلة وحيدة للخلاص من تلك الأزمة. لكن سمير استطاع النجاة بزيجته، والاستمرار طيلة العامين السابقين منذ بدء العمل ببروتوكول تنظيم الوقت. وهو ما أريده أن يحدث معي، فأنا لم أتزوج هالة بعد كل تلك الأعوام من الحب، لكي أطلقها بسبب أخطاء إجرائية في تطبيق بروتوكول حكومي. سمير كان يعتبرني بطلا؛ لأنني لم أَزَلْ بعد عامين أتابع دون كلل خطوات التصحيح مع إدارة التظلمات والشكاوى. وأنا أعتبره بطلا؛ لأنه تجاوز الأمر وأنجح زيجته كما هي، بهذا الوضع المشوَّه. هو من طرح عليَّ فكرة لوح التواصل، والتي ساعدتني على استعادة الاتصال مع زوجتي. واقترح عليَّ كذلك فكرة شراء كاميرا فيديو لتسجيل رسائل مصورة لنتبادلها أنا وهالة. لكني لم أزل أحاول توفير ثمن الكاميرا من راتبي القليل. اليوم كنت بحاجة لخدمة جديدة من سمير، ليست نصيحة، أو حلا لمعضلة متعلقة بالتواصل. بل شيء أكثر أهمية..

ـ هل يمكن أن تُقرضني واحدًا من أقراص الاسترخاء؟

كان رأسي مائلا تجاه أذنه، وكأنما أخشى أن يسمعني أحد برغم بعد المسافات الفاصلة. نظر إليَّ سمير بدهشة، قبل أن ترتسم على وجهه ابتسامة خبيثة، معلنة أنه فهم طبيعة أزمتي..

ـ يبدو أن الشوق يتلاعب بك أيها الصغير.

ثم جاراني في الحرص -ربما متأثرًا بنظرة لوم سددتها نحوه- فخفض صوته متسائلًا..

ـ كيف نفدت حصتك الشهرية بهذه السرعة؟!

شعرت بالحرج، لكن لا مناص من المصارحة..

ـ لقد كنت أتناوله بكثرة.

تحولت ابتسامته لضحكة مجلجلة، طال وقتها حتى لفتت الأنظار، وبدا وكأنه لا يستطيع السيطرة عليها..

ـ أنت في حال يدعو للشفقة يا صديقي.

توقف عن الضحك بعد وقت وجهد، مسح الدموع التي تكونت فوق جفنيه السفليين..

ـ معي القليل.. سأعطيك واحدة في وقت الاستراحة.

انطلق من المذياع العام صوت إشارة البدء. مَدَّ كلٌّ منا يديه نحو الصناديق المكدَّسة بجانب الماكينة. فتحنا الصناديق فكانت تتضمن القطع التي سنستخدمها في التصنيع. وفوق هذه القطع يوجد كتيب الإرشادات. فتحنا الكتيب، قرأنا التعليمات والأوصاف وطالعنا الرسومات التوضيحية، وعرفنا تمامًا الشكل المطلوب منا تصنيعه، وبدأنا على الفور في العمل.

نحن لا نعرف تحديدًا ماذا نصنع في هذا المصنع. الحكومة تمتلك عشرات المصانع في عشرات المدن. في كل يوم تأتينا تعليمات صناعة غرض جديد، والمواد الخام اللازمة لتصنيعه. هذا الغرض هو جزء من غرض أكبر نحن لا نعرفه. اليوم مثلا علينا أن نستخدم ألواحًا معدنية مطلية باللون الأحمر لتصنيع قطع أسطوانية الشكل، تحتضن مسارات متشابكة من كابلات وأسلاك ملونة. في نهاية اليوم نقوم بتسليم الأعداد المطلوب تصنيعها، وبالمواصفات الملائمة. وغدًا نبدأ رحلة جديدة مع غرض جديد والذي هو كذلك جزء من غرض أكبر لا نعرفه. هناك مصانع أخرى مسئولة عن التجميع؛ هناك سيلتحم الغرض الذي قمت بتصنيعه مع أشقائه، لِيُكَوِّنوا الغرض الأكبر. ربما يَكُون جهازا منزليًّا، أو جهازا طبيًّا، أو حتى سلاحًا. في فترات الغداء، عندما يجتمع العمال في مكان يسمح لهم فيه بتبادل الأحاديث، نفتح نقاشًا يوميًّا حول طبيعة ذلك الغرض الأكبر؛ وهي نقاشات قائمة على التخمين، وسرعان ما يتحول التخمين إلى مراهنات. هناك دائمًا وسيلة لنعرف بها الحقيقة؛ إما عن طريق مصادر خاصة في مصانع التجميع، نعرف منها المعلومات المؤكدة بشأن طبيعة ما قمنا بتصنيعه هنا. أو حتى من خلال التعرف على تلك الأجزاء وهي مستقرة في مطافها الأخير داخل جهاز ما نراه في نشرة إعلانية، أو نراه معروضًا في واجهة أحد المتاجر. المهم أننا دائمًا نعرف، ودائمًا نستغرب من هذا التعتيم. أما الأغراض التي تختفي تمامًا، ولا نتمكن من معرفة مصيرها؛ فهي غالبًا الأغراض التي تصبح جزءًا من سلاح ما.

في فترة استراحة الغداء جمعتني طاولة واحدة مع سمير. كان منهمكًا

في تناول طعامه، وكنت أتابعه بنظرات جانبية منتظرًا أن يَبَرَّ بوعده لي. كان يتلاعب بي، مستمتعًا بحالة التوتر والترقب التي تجتاح جسدي في شكل رجفات خفيفة. في النهاية نظر لي، وابتسم ابتسامته الخبيثة المازحة، ثم مال مقتربًا مني، هامسًا:

ـ لأي درجة تشعر بالرغبة فيها؟

كانت كلماته جريئة بشكل لا يمكن التسامح فيه. لكنني أحتاجه الآن. لذا...

ـ لقد نفدت أقراصي منذ يومين. وطوال هذين اليومين بالكاد أتحمل تلك الحالة.

ـ اسمه شَبَق يا زميلي. هياج جنسي. أنت إنسان طبيعي يرغب في مضاجعة زوجته.

لم أفهم لماذا يبدو مستمتعًا بتلك الأقاويل السمجة الوقحة..

ـ بالطبع أنا إنسان طبيعي يرغب في ما ذكرتَه.. لكن ـ كما تعرف ـ الظروف هي المخالفة للطبيعة.

توقَّفَ عن الابتسام وبدا جادًّا..

ـ وأنت تعتقد أن أقراص الاسترخاء هي الحل؟

ـ بالتأكيد. إما أقراص الاسترخاء أو الطلاق. وأنت تعرف أني لا أريده.

صمت لفترة مفكرًا. مال نحوي أكثر حتى كدنا نتلاصق..

ـ هناك حلول أخرى.. الاستمناء مثلا.

ـ أنا لن أناقش هذه الأمور المقززة معك.. إما أن تقرضني هذا القرص أو تصمت؟

ابتعد قليلا. وكأنما يريد تغيير الموضوع، قال:

ـ هل تعرف ماذا يقولون؟

صمت منتظرًا مني رَدًّا. لم يجد سوى الصمت، فتابع بسرعة وكأنما توقع هذا:

ـ يقولون: إن مَنِ ابتكر بروتوكول تنظيم الوقت هو مسئول حكومي كبير كان راغبًا في الزواج من أخرى. ولأنه يخشى زوجته الأولى، اخترع كل هذا الهراء. ليجعلها تنام طيلة اليوم الذي يكون فيه برفقة زوجته الثانية. وفي اليوم التالي يكون موعد الزوجة الثانية في النوم. فيذهب هو للزوجة الأولى. وهكذا لن ينكشف أمره أبدًا.

لم أعرف إن كان يمزح أم يعني بالفعل ما قاله. لكنها على كل حال بدت لي واحدة من المقولات المتداولة كمحاولات بدائية للخيال الشعبي لفلسفة الوضع الشاذ الذي نعيشه منذ عامين.

ـ أهذا يعني أن المسئول الحكومي ذاك لا ينام؟

ابتسم في وجهي..

ـ بالطبع. هل تظن أن مسئولي الحكومة ينامون مثلنا لأكثر من ثلاثين ساعة؟! البروتوكول لا يسري على أصحاب السلطة.

هز رأسه آسفًا لحالي..

ـ كم أنت ساذج يا صاحبي!!

أعقبها بمد يده في جيبه وأخرج علبة كاملة من الأقراص تبدو ممتلئة عن آخرها، وضعها على الطاولة أمامي..

ـ هذه حصتي كاملة. خذها، فأنا لا أريدها.

تعجبت لموقفه، فقد كنت بدأت أظنه يراوغ كي لا يعطني أي شيء..

ـ لماذا؟ لا تقل لي: إن الاستمناء يجدي نفعا معك لهذه الدرجة.

كنت مندهشًا حقًّا وأنا أسأله، لكنه ضحك وكأنما أمازحه. رد فعله نقل أفكاري لمنطقة أكثر ظلامًا..

ـ هل لك خليلة؟ أو تمارس علاقات غير قانونية؟

هز رأسه منكرًا أفكاري..

ـ الأمر أكثر تعقيدًا من هذا. لكنه يُجدي نفعًا.

كدت أن أسأله التوضيح، لكن ذلك العامل ضخم الجثة المسئول غالبًا عن الرهانات، وقف في صدر القاعة معلنًا خبرًا حزينًا. ذلك الغرض الذي راهنت عليه منذ شهرين أنه جزء من سلاح. اتضح أنه جزء من لعبة أطفال جديدة. ورفع في وجوهنا صفحة من نشرة تجارية تحمل صورة ترويجية للعبة، وبدا واضحًا فيها ذلك الجزء المعدني الصغير الذي قمنا بصناعته. وهو ما يعني أني خسرت جزء ليس يسيرًا من المال في مراهنة جديدة. بعدها أعلن فتح باب المراهنات على الأسطوانة الحمراء التي نصنعها اليوم. ما بقي من مدخراتي قليل. لكن نشوة المراهنة، والطمع في زيادة المبلغ المدخر بأية وسيلة، دفعاني لارتكاب جنون المقامرة، فراهنت بمبلغ قليل على أن هذه الأسطوانة هي جزء من مكنسة كهربائية!

انتهى يوم العمل، وغادرت المصنع بعد إجراءات العد والفرز للتأكد من أننا قمنا بصناعة العدد المطلوب بالمواصفات المطلوبة. عدت إلى البيت. بدلت ملابسي. هالة نائمة دون أن تغير وضعها. اقتربت منها مرة أخرى. طبعت قُبلة جديدة على خدها. كان خدها دافئًا، وللقُبلة طعمٌ

مُسْكِرٌ ضرب جسدي كله. يدي حطت من جديد على جسدها. كدت أسعى للمزيد، لكن تراجعت، وأخرجت من جيب بنطالي المخلوع علبة الأقراص. تناولت قرصًا منها، وعلى الفور شعرت بالاسترخاء والهدوء، وكأنما انسكب الماء البارد على تلك النار المستعرة قبل أن تحرقني. وقفت أمام لوح التواصل وأضفت سطرين جديدين لرسالتي: «ماذا فعلتِ في النقود التي طلبتُها منك؟ علينا شراء كاميرا الفيديو، فهي ستساعدنا كثيرًا». ثم ذهبت لِأُعِدَّ طعام الغداء.

مر يومي هادئًا دون تفاصيل تذكر. وفي الموعد المحدد دخلت إلى فراشي. انتظرت حتى صدرت الإشارة من المذياع العام، ثم تمددت على جانبي الأيسر كالعادة. قلت مخاطبًا جسدها الهامد أمامي:

ـ تصبحين على خير يا حبيبتي.

ومن المذياع العام صدر الصوت القوي كما كل ليلة، يقول:

ـ عزيزي المواطن. أحلام سعيدة.

هنا يحين الدور الروتيني لذلك الجسم المعدني الرقيق المزروع تحت جلد رقبتي. في لحظة واحدة، وعندما يتلقَّى تلك الإشارة العامة. أروح في نوم عميق، مليء ـ بالفعل ـ بالأحلام السعيدة.

***

في الحلم كنت أعيش مع هالة حياة طبيعية. في الحلم لم يكن ثمة بروتوكول لتنظيم الوقت، ولا لوح للتواصل، ولا أقراص للاسترخاء. في الحلم كنا نتحدث معًا، ونضحك معًا، ونأكل معًا، ونشاهد التليفزيون معًا. في الحلم كنا زوجين شابين محبين كما كنا قبل عامين. في كل يوم أحلم بتلك

الحياة دون ملل. وفي اللحظة التي ينتهي فيها يومنا ونندس متلاصقين في الفراش، نتبادل الكلمات والقبلات والأمنيات بغد أجمل، لحظة أن أغمض عيني في الحلم نائمًا، أستيقظ في الواقع، لأخوض يومًا جديدًا دونها.

***

اليوم كذلك استيقظت لأجد شيئًا مختلفًا. كانت هالة نائمة على ظهرها وهي ترتدي ملابس الخروج. هل يعني هذا أنها عادت متأخرة إلى البيت ولم تجد الوقت لتبديل ملابسها قبل بث إشارة النوم في المذياع العام؟ كانت مستلقاة فوق أغطية الفراش، وكأنها لم تجد حتى الوقت لاتخاذ وضع سليم للنوم، أو للتدثُّر بأغطيتها في هذا البرد. شعرت بحيرة دفعتني للقفز نحو لوح التواصل، متجاهلا تعليمات بداية اليوم التي يحملها لي ذلك الصوت الجَهْوَرِيُّ العميق عبر المذياع العام. الرسالة التي تركتُها لها على اللوح كانت ممسوحة، ولكنها لم تكتب رَدًّا. أمسكتُ القلم وحاولت إظهار غضبي في خط يدي ـ ولا أدري كيف! ـ وأنا أكتب: «**لماذا نمتِ بملابس الخروج؟ وأين كنت طيلة اليوم؟ ولماذا لا تكتبين لي؟!!!**».

أخرجت من الدولاب مَنامة مُريحة لها. خلعت عنها ملابس الخروج، وألبستها المنامة. كان جهدًا شاقًّا بدنيًّا، وروحيًّا كذلك، اضطرني لتناول اثنين من أقراص الاسترخاء، لأستطيع تحمل ملامسة جسدها شبه العاري، حتى أَنتهي من مهمتي. غطيتها جيدًا، وقبَّلت خدها، وانصرفت لأبدأ إجراءات اليوم متأخرًا. اضطررت لاختصار زمن الركض على السير المتحرك لخمس دقائق فقط، لكن كان عليَّ تنشيط تلك العضلات البائسة التي تيبست من رقاد استمر ليوم وبعض يوم. بعدها تجاهلت الاستحمام، فتمكنت من مغادرة البيت في الوقت المحدد.

طوال فترة العمل الصباحية حافظت على صمتي. كانت غرابة تصرفات هالة تُقلقني. وموعدي الوشيك مع موظف إدارة الشكاوَى يشغل الجانب الباقي من عقلي، حتى جاء وقت الغداء، فحصلت على إذن الانصراف المؤقت للذهاب لإدارة الشكاوَى.

مبنى وزارة السكان هو المبنى الحكومي الأكثر ازدحامًا في العاصمة. مبنى مرتفع، من خمسة عشر طابقًا. جدرانه تبدو على الدوام مترِبة باهتة، وكأنما صممت لتتسع لكل هذا القدر من الحزن والكآبة على وجوه مرتادي الإدارة. أبرزت إذن الانصراف من الشركة، لكي أحصل على ميزة الموعد العاجل، وهو ما يجنبني مئات الأدوار من الانتظار. جلست لساعة على مقعد معدني مؤلم، حتى نادوا اسمي في مذياع داخلي، فتوجهت للمكتب المذكور رقمه في النداء. كالمعتاد كانت حجرة ضيقة، محشور بداخلها موظف بدين وسط الأرفف وخزانات الأوراق. أمامه على المكتب كوم من الملفات الورقية الممزقة والمهترئة أطرافها لكثرة التداول. من بينها أخرج ملفًا مكتوبًا على غلافه بخط أنيق (أكرم صفوت). ألقى نظرة سريعة على أوراقه ثم طلب مني بطاقة هويتي. طالعها بنظرة روتينية، فقط ليتأكد أن الجالس أمامه هو بالفعل أكرم صفوت، ثم أعادها لي وهو يقول بصوت يحمل تلك النبرة من الأسف الاعتيادي، أو التعاطف الميكانيكي؛ لا أستطيع حقيقة أن أصفها بكلمات دقيقة..

ـ لا أظن أن هناك أملًا قريبًا في انتهاء معاناتك يا سيد أكرم. أوراقك سليمة، لكن كذلك خطوات إجراء القرعة كانت سليمة، ومتوافقة مع البروتوكول، وهو ما يكبل أيادينا. أُنظر حولك؛ هناك آلاف من الرجال

والنساء بالخارج لديهم نفس شكوتك. وأغلبهم قدموا كذلك كل الأوراق المطلوبة. لكن في النهاية، القانون هو القانون. الشيء الوحيد الذي يدفع الدولة لتحمل التكلفة المادية اللازمة لحل مشكلتكم، هو أن يكون ما حدث بسبب خطأ في إجراءات القرعة.

ـ أليس هذا ما حدث؟ ألم يكن يجب على القرعة أن تراعي توحيد مواعيد الأزواج؟

ـ القرعة كان عليها فقط أن تعمل وفقًا للقانون الموضوع لتنظيم عملها. وهو ما حدث بالفعل؛ لأن القانون كان يؤكد على أن تكون القرعة عشوائية تمامًا وغير موجهة. لذلك فمن الناحية القانونية إجراءات القرعة سليمة، والقصور الحقيقي في القانون ذاته. وبالتالي أي آثار جانبية ناتجة عن قانون، لا يمحوها إلا قانون مضاد. هذا خطأ ارتكبته السلطة التشريعية، ومن الظلم أن تتحمل السلطة التنفيذية عبء تصحيحه.

أطلقت في الهواء زفرة تطرد الانفعالات العالقة بين الصدر والقلب. اخترت القليل من الصمت بغرض تنظيم أفكاري..

ـ باختصار، ماذا تقترح عليَّ أن أفعل؟

ـ أن تنتظر حتى يقوم المشرعون بدراسة القانون وإجراء التعديل اللازم لحل أزمة الفرقاء. أو تتحمل تكلفة تصحيح الوضع على نفقتك الخاصة.

ـ وكم هي التكلفة؟

هز رأسه وكأنما يُجري بداخله حسابات تقريبية سريعة، ولكني كنت

واثقًا أنه يعرف الرقم تحديدًا، وأنه قام هذا اليوم فقط بتقديم هذا الأداء التمثيلي عشرات المرات..

ـ يجب أن نقوم بعملية تغيير الشريحة العصبية لأحدكما، لكي تتماشى مع الآخر. وهي عملية تكلف قرابة المليون.

اللعنة، هل هذا مبلغ حقيقي؟!

ـ بالتأكيد أنا لا أستطيع تحمل مبلغ كهذا.

هز رأسه أسفًا..

ـ للأسف تكنولوجيا التحكم العصبي مكلفة جدًا.

ثم رسم ابتسامة مفاجئة..

ـ لكن دعني أبشرك أن مشكلتك ليست كبيرة كما تعتقد. في النهاية البروتوكول فرَّق بينك وبين زوجتك. وهذا يجعل وضعك أفضل بكثير من غيرك. في الخارج ستجد الآلاف الذين فرقهم البروتوكول عن أبنائهم. هناك أمهات في هذه البلد يستيقظون في أيام، بينما أبناؤهم يستيقظون في أيام أخرى. هؤلاء ليست لديهم بدائل. فلا يمكن لأم أن تغير ابنها، أو لولد أن يغير أباه.

استنتجت المطاف المنتظر لهذا المسار من الحديث..

ـ هل تقصد أن عليَّ استبدال زوجتي؟

ـ هذا هو الحل الأفضل والأسرع والأرخص.

من درج مكتبه أخرج ملفًّا ممتلئًا بالصفحات، وضعه أمامي.

ـ هنا عشرات الحالات من الزوجات اللاتي قررن الانفصال عن أزواجهن بسبب اختلاف مواعيد الصحو. كلهن يبحثن عن شريك جديد يتناسب مع مواعيدهن. خذ هذا الملف وادرسه جيدًا.

ثم غمز بعينه اليسرى كصديق متباسط..

ـ ستجد فيه الكثير من الجميلات.

هززت رأسي رافضًا..

ـ أنا لا أريد استبدال زوجتي.

نظر إليَّ بشفقة، أعرف يقينًا أنها مدعاة..

ـ إذا عليك أن تتحمل التكلفة المادية.. أو تنتظر.

من درج مكتبه أخرج علبة من أقراص الاسترخاء وضعها أمامي..

ـ هذه خارج حصتك الشهرية. هدية بسيطة من الإدارة، لتعينك على الانتظار.

***

عدت للمصنع في الموعد المحدد في إذن الانصراف. بدلت ملابسي وواصلت العمل دون حماس. سمير كان يختلس نحوي النظرات طوال انهماكه في العمل. كنت ألاحظه، وأشعر أنه يريد أن يسألني عما بي، ولكن قوانين المصنع تمنعنا من تبادل الأحاديث خلال ساعات العمل.

عندما انتهينا، وجدته أمامي وأنا أغير ملابسي. كان لم يزل بملابس العمل، وكأنما لم يستطع صبرًا لكي يبدل ملابسه، قبل أن يسألني:

ـ ما بك؟

قررت ألا أقاوم الرغبة في الإفصاح..

ـ الأمر يزداد صعوبة. اليوم قالوا لي صراحة: إن عليَّ استبدال زوجتي.

بدا على وجهه أسى أعرف أنه حقيقي..

ـ وماذا تنوي أن تفعل؟

ـ أنا لن أطلق هالة مهما حدث.

اقترب مني وهمس..

ـ أنا سمعت أن بعض الفرقاء الآن بدؤوا في اللجوء للقضاء، للطعن في دستورية البروتوكول.

أثارت كلماته اهتمامي..

ـ وكيف أفعل شيئًا كهذا؟

ـ عليك بالعثور على المحامي الملائم. شخص مشاكس، لا يبالي من الدخول في نطاحات مع الدولة ذاتها.

تقلصت أمعائي توترًا. أنا لم أتخيل أن يصل الأمر لهذه الدرجة. بالتأكيد أنا لا أريد أن أتحول لِمُعَادٍ للدولة. أنا لا أرفض بروتوكول تنظيم الوقت، ومقتنع تمامًا أنه ـ كما يقولون في المذياع العام ـ حل ملائم لأزمات البلد الاقتصادية والبيئية والصحية، وكل أنواع الأزمات. أنا فقط أريد أن أجتمع مع زوجتي من جديد في واقعنا، وليس فقط في الأحلام التي تبثها الشريحة إلى عقلي.

ـ اسمع. أنت لم تزل متمسكًا بزوجتك برغم أنكما من الفرقاء. وتبدو لي سعيدًا، فلماذا لا تدلني على ما تفعله؟

بدا على وجهه التفكير لفترة، ثم قال:

ـ ما رأيك أن نشرب شيئًا سويًّا في أي مقهى ونتحدث؟

***

رشف سمير من فنجان قهوته، ثم نظر عميقًا في عيني، وقال:

ـ أنصت لي جيدًا يا أكرم وحاول أن تتفهمني، فما بينك وبين زوجتك،

يختلف كثيراً عما بيني وبين زوجتي. أنت تحبها، وتريد صحبتها. أما أنا فلم تكن الزوجة بالنسبة لي أكثر من وعاء للجنس.

شعرت بالتقزز من تشبيهه..

ـ هذه هي الحقيقة للأسف. كل ما افتقدته في زوجتي هو المضاجعة. وهو شيء كان من السهل عليَّ تعويضه.

صمت وعاد لقهوته، وكأنما يريد إثارة فضولي..

ـ كيف؟

طالت فترة شرب القهوة، فبدأت أعتقد أن الأمر ليس متعلقًا بإثارة الفضول، وإنما هو يجد بالفعل صعوبة في نطقها. حتى عندما قالها، فعل ذلك بسرعة، وكأنما يبصقها من فمه..

ـ أنا أضاجعها وهي نائمة.

تقريبًا كان هذا هو أكثر شيء مقزز سمعته طيلة حياتي..

ـ كيف؟!

ـ الأمر بسيط. كل ما عليك هو أن تجذب...

بسطت كفي في الهواء أمام وجهه لأصمته..

ـ ليس هذا ما قصدته. أقصد كيف تتحمل فعل شيء كهذا؟ الأمر أشبه بالاغتصاب.

مط شفتيه..

ـ ليس بالنسبة لي.

كنت أتطلع مصدومًا إلى وجهه، وأنا أتساءل إن كان من المناسب أن أصارحه بمدى حقارته..

ـ طالما أنك لا تحبها، والأمر كله متعلق بالجنس، فلماذا لا تطلقها وتتزوج بأخرى؟

ـ يمكنك أن تقول: إني أحب الحياة بهذا الشكل؛ لأنها أقل تكلفة. فالآن أصبح راتبي القليل ملكًا لي وحدي. أنفق منه على نصف حياة، فأصبحت أعيش في رغد لأول مرة منذ مولدي، فلماذا أفسد هذا؟

ساد الصمت مع اختناق الكلمات في جوفي. بينما بدا على وجهه أسى وكأنما سمع ما يتردد في عقلي ولا يعبر شفتي، فقال موضحًا مقصده:

ـ أنا أعرف أن هذا لن يجدي نفعًا معك. فأنت تريد من زوجتك ما هو أكثر من الجنس. وأنا لا أنصحك بتجربة الأمر ـ إلا إذا أردت هذا بالطبع ـ أنا فقط أجيب عن تساؤلك.

قررت تجاهل الأمر، واعتبار أني لم أسمع منه شيئًا..

ـ اسمع يا سمير، أنا لا أحيا حياة طبيعية على كل المستويات. منذ تطبيق هذا البروتوكول وتدمير حياتي الزوجية، وأنا فقدت الرغبة في كل أشكال الحياة. لم يعد لي أصدقاء أو أقارب أو هوايات. أنا لا أريد أي شيء، ولا أعرف أي شيء. إن كنت تريد مساعدتي حقًا، فأرجوك أن تبحث لي عن محام جيد، من النوع المشاكس الذي تقصده.

هز رأسه مبديًا التعاطف..

ـ سأفعل.

***

يومان من الصحو مَرَّا عليَّ بشكل طبيعي. عدت أستيقظ لأجد وجهها أمامي، بتعبيراته الهادئة، وعينيها المغمضتين في استرخاء نوم ملائكي. فقط

ما بقي لينغص عليَّ ذلك الهدوء، أن رسالتي الأخيرة لم تزل في مكانها على لوح التواصل. لماذا توقفت هالة عن استخدام هذا اللوح؟ فكرت أن أخط لها رسالة جديدة، لكنَّ شيئًا كالكبرياء الجريح منعني من فعلها. لن أتواصل معها مرة أخرى حتى تبادر هي بالتواصل. لكن هذا لم يمنع عقلي من أن يتداول ذلك التساؤل المقلق: هل فعلت شيئًا أغضبها؟

لكن اليوم عادت الأحداث لوتيرتها الغرائبية المتصاعدة. في هذا الصباح فتحت عيني مستيقظًا على صوت الموسيقى الصباحية الحماسية، لأجد جانبها من الفراش خاليًا!

نهضت مفزوعًا. الأمر ينذر بكارثة إن هي لم تَبِتْ ليلتها في فراشها. خرجت من الحجرة فوجدتها نائمة على الأرض أمام باب الشقة بملابس الخروج. لقد كانت عائدة للتو من الخارج عندما فاجأها موعد النوم. تلك الشريحة المعدنية اللعينة أدخلتها في حالة السبات، فوقعت نائمة في هذا المكان. والآن هي في ورطة كبيرة؛ أن تتواجد خارج فراشك في موعد نومك هي جريمة تستوجب التحقيق. ارتجف جسدي وأنا أفكر في هذا؛ سيحضرون غدًا عندما تستيقظ، ويأخذونها للاستجواب. شعور بالعجز اخترق جسدي وقلبي وروحي ذاتها. لم أجد ما أفعله سوى حملها إلى فراشها. لم يكن أمامي الكثير من الوقت لأبدل لها ملابسها هذه المرة. فكرت أن أخط لها رسالة جديدة على لوح التواصل، لكن اكتشفت أن الرسالة المتروكة عليه منذ يومين ـ بتوقيت صحوي ـ صالحة تمامًا. دَثَّرْتُها، وارتديت ملابسي وغادرت مسرعًا إلى حافلة المصنع.

كنت أغير ملابسي قبيل بَدْءِ فترة العمل الأولى، والرأس مشغول

بهمومه وهواجسه. لم يعد من مكان في عقلي الآن لأفكار عما يدور حقيقة أثناء نومي، أو عن سر تلك السلوكيات الغريبة من زوجتي؛ فكل ما يشغلني الآن هو كيفية نجاتها من تلك الورطة. غدًا سأكون غارقًا في أحلامي السعيدة، بينما ستكون هي بين أيديهم، يعتصرونها في تحقيق جاف، بلا شعور أو رحمة. والله وحده يعلم إلى أين سيؤدي بها هذا التحقيق، وشكل العقوبة التي سيقررونها في حقها. سمير اقترب مني، دس في جيبي ورقة صغيرة وتحدث هامسًا:

ـ هذا رقم هاتف صفاء الراعي.

نظرت له مندهشًا، طالبًا أي توضيح عن طبيعة صفاء تلك التي يبشرني برقم هاتفها..

ـ محامية من النوع المشاكس الذي حدثتك عنه.

تذكرت الأمر. وعندما تذكرته تذكرت أني كنت قد نسيته فاندهشت لهذا! ربما نسيته؛ لأنه ما عاد يحمل لي أية أهمية، وربما أنا لا أملك ـ منذ البدء ـ نية حقيقية في المضي في هذا الطريق الشائك. كدت أصارح سمير بأفكاري، شاكرًا له تعبه، لكني فكرت أن ربما محامية مشاكسة كتلك هي ما أحتاجه الآن لأجد مخرجًا لزوجتي من ورطتها، إن كان لها من مخرج. الوقت لم يزل مبكرًا، ولو كنت أمتلك القدر اللازم من الوقاحة لمهاتفة شخص في هذه الساعة، لما ترددت في مهاتفتها. لكن قواعد اللياقة تجبرني على انتظار وقتٍ ملائمٍ. والوقت الملائم هو أثناء استراحة الغداء.

مرت ساعات الفترة الصباحية ثقيلة، وأنا أحاول السيطرة على أفكاري والتركيز في عملي دون جدوى. ارتكبت أخطاء عدة، وفي كل مرة كان

سمير حاضرًا لإنقاذي، مع كثير من نظرات اللوم الصامتة. عندما أعلن المذياع العام عن فترة استراحة الغداء، كان صوته في أذني كموسيقى عذبة تحمل الكثير من الأمل والبهجة. هرعت إلى قاعة الاستراحة، حيث في مدخلها هاتف معلق على الحائط يعمل بالعملات المعدنية. ألقمت فمه ما شاء من عملات، حتى أتاني صوت صافرة الخط الهاتفي معلنًا تأهبه لتلقي أوامري. أخرجت من جيبي الورقة المطوية وطلبت الرقم. تحدثت بكلمات سريعة مختصرة مع الصوت الأنثوي الهادئ على الطرف الآخر. طلبتُ موعدًا في أسرع وقت، فحصلت على ميعاد بعد دوام المصنع بنصف الساعة. طلبت منها تفصيلا بعنوان المكان، فاكتشفت أن نصف الساعة هو زمن أكثر من كاف لبلوغ الموضع الموصوف.

جلست أتناول طعامي صامتًا تحت ستار من نظرات سمير المتسائلة. احتاج وقتًا ليتغلب على صراعه الداخلي، ويقرر التدخل في شئوني..

ـ هل ستقابلها؟

نظرت له مستفهمًا، فأشار إلى موضع جيبي، حيث وضع الورقة..

ـ صفاء تلك.

هززت رأسي بالموافقة. بدا على وجهه شبح للدهشة، وكأنه ما كان يتوقع أن أمضي في جنوني إلى هذا المستوى. ربما كان ينتظر مني أن أشكره ثم أمزق الورقة أو أحرقها. فكرت أن أخبره بمستجداتي، لكني آثرت الصمت. ذلك العامل ضخم البنية وقف معلنًا أحدث نتائج المراهنات، قبل أن يفتح الباب لرهان جديد. تذكرت رهاني الأخير فسألت سمير:

ـ ذلك الغرض الذي صنعناه منذ بضعة أيام ـ الأسطوانة الحمراء ـ هل عُثر عليه؟

هز رأسه نفيًا..

ـ كلا.

ـ أهو سلاح إذن؟

مط شفتيه معلنًا عدم المعرفة.

في الفترة الثانية كان أدائي في العمل أفضل. انتظاري للقاء القريب، جعلني أَقْدِر على إبعاد الهواجس عن رأسي إلى حين؛ فربما ألتقي بعد ساعات بمن يَصلح أن ألقي على كاهله بكل الهموم والمخاوف والأشباح. قرب نهاية يوم العمل صارت حالتي النفسية والعصبية أكثر استقرارًا. بشكل ما كنت أُمَنِّي نفسي بِطَاقَةٍ من النور ستُفتح أمام عيني بعد قليل. كنت كيائس يتعلق في أي أمل مهما كان صغره. حتى وإن كان سيدة لا أعرفها توصف بالمشاكسة من باب السمعة الحسنة. لكن قبل دقائق من انتهاء اليوم دوى صوت صافرة مزعجة في المذياع العام. الأمر يعني التوقف عن العمل، واتخاذ وضع الانتباه لأمر طارئ. شددنا كلنا أجسادنا، وتجمدنا في صمت، عدا النظرات التي سعت لتتلاقى حاملةً توجُّسًا، وكلٌّ منا يبحث عن أي لمحة من طمأنينة أو علم في عيني جاره. لكن الدهشة هي ما كانت توحدنا الآن على قلب واحد مرتجف. عندها اقتحموا المكان. بدلات سوداء، وخطوات واثقة، وأحذية ثقيلة مصممة لتحدث في الأرض دويًّا يقبض القلوب، وعندما مروا بجواري شممت عطرهم الناري ـ ولا أعرف إن كان هناك وصف كهذا للعطور ـ النفاذ. عطر يحرق أنفك، ومداركك، وأعصابك. مَن صمم عطرًا كهذا جدير بالفوز بكل جوائز العالم في الكيمياء! تبعتهم بنظراتي، كانوا يقتربون من ركن بعيد، وقبل أن

يبلغوه كان هذا العامل النحيل ينهار باكيًا. حملوه بينهم حملا وغادروا وهو يبكي وينتفض، لكنه لم يستنجد. حتى في لحظات انهياره كان عاقلا، مدركًا أن الاستنجاد والصراخ لن يُفيداهُ. غادروا المكان، وفي أعقابهم دوَّى في المذياع العام صوتٌ صافرة تأمرنا بالعودة لما كنا نفعله.

في الحافلة جلستُ بجوار سمير. كان الكل صامتين. حتى موتور الحافلة بدا صامتًا. والشوارع، والسائرون، والسيارات المارة. لوحة كبيرة للصمت، والويل لمن يجرؤ على تلطيخها. لكني لم أستطع الاحتمال أكثر، فكنت صاحب المغامرة الأولى بالحديث، حين مِلْتُ على أذن سمير وهمست:

ـ لماذا؟

نظر إليَّ بعينين يسكنهما الحزن، ثم مال على أذني بدوره..

ـ سمعت إشاعات منذ فترة، أنه منهم.

صدمة عنيفة شلت عقلي لثوانٍ. دائمًا أسمع عنهم. في همس الناس، وفي صراخ المسئولين باللعنات على رؤوسهم في التلفاز. أنا أصدق في وجودهم، لكني لم أتوقع أبدًا أن أرى أحدهم عن هذا القرب. لقد كان زميل عمل. يبتسم في وجهي في الصباحات، ويحييني عند انتهاء اليوم. أحتك به أحيانًا عند المرور وأعتذر. ربما تَجالسنا على ذات الطاولة نلتهم طعام الغداء. ربما شممت عطره، أو لفحتني أنفاسه. هل يعقل أنهم بهذا القرب منا دون أن نشعر؟ يقولون عنهم في التلفاز وفي المذياع العام: إنهم سرطان هذه الأمة. والسرطان خبيث ويجيد الاختباء. وربما يوهمك كثيرًا أنه غير موجود. لكن في لحظة إعلانه عن حقيقته، لن يترك لك سوى الصدمة، عندما تكتشف كم كان قريبًا! وكم كان يعبث تحت أنفك وأنت

لا تراه! إنهم محقون إذن. لحظتها ارتجفت؛ ولكن ماذا عن لقائي المرتقب بعد دقائق مع تلك المشاكسة التي تَرتزق من مناطحة قوانين الدولة؟ ما الذي يضمن لي أنها ليست منهم؟ للحظة كدت أصل إلى قرار نهائي بإلغاء الموعد. لكن ماذا عن هالة، وما تمر به من تغيرات؟ ماذا عن رغبتي في إيجاد أي أمل لإخراجها من ورطتها؟ أتخيل الآن رجال التحقيق يخوضون في بيتي بتلك الأحذية الثقيلة المدوية، ويملؤون فضاءه برائحتهم المحرقة، وأنا نائم بلا حول ولا قوة. لا يجب أن أتركهم يأخذونها دون محاولة، حتى وإن كانت انتحارية. لهذا نهضت وتوجهت للسائق وطلبت منه أن يتوقف، فقد كنت قريبًا من المكان الموصوف للقاء.

***

الأمر لم يكن كما توقعته. في خيالي تشكلت صورة رمادية لمكان يشبه وكر العصابات والجماعات السرية كما كنا نراها قديمًا في الأفلام. تصوري لما يمكن أن تكون عليه محامية توصف بالمشاكسة لم يكن حتى قريبًا من الواقع. فكل شيء هنا كان فاخرًا، موحيًا بالثراء. بَدْءًا من السجادة التي تغوص فيها قدماي لحظة الدخول إلى حجرة المكتب، وحتى العطر الذي يفوح من جسد المحامية حاملا عبيرًا مسكرًا مهدئًا، يجعلك راغبًا في الاسترخاء والنوم! كانت جالسة أمامي، يفصل بيننا مكتب خشبي ضخم. وأمامها على المكتب قفصٌ به بعض أفراخ الطيور الملونة، جلست تُطعمهم، بعد أن استأذنت مني بأدب، مؤكدة على أنها تمنحني تركيزها كاملًا برغم ما بدا لي كمهمة شاقة ودقيقة. كانت تمسك الأفراخ الواحد تلو الآخر وتدس بين منقاريه أنبوبًا مطاطيًّا صغيرًا متصلا بِمحقن مملوء

بالطعام السائل، وببطء وحذر تدفع الطعام في جوف الطائر الصغير العاجز بين أصابعها بلا حول ولا قوة. تابعت ما تفعله لثوان، لكنها هزت رأسها تجاهي بتعجل وهي تحثني على الكلام.

ـ تفضل.

حكيت لها كل شيء. عدت بالذكريات حتى نقطة التقائي الأولى بهالة، ثم انطلقت للأمام وصولا للحظة اكتشاف جسدها النائم على الأرض في صالة المنزل. وفي الطريق مررت بلحظات الحب والألم والانكسار والعجز. لم أُخْفِ عنها شيئًا، ولا حتى أدق التفاصيل. وهي لم تَبْدُ متململة، أو فاقدة الانتباه. وبين كل جملتين أو ثلاث كانت تُعيد عليَّ معلومة قلتها من باب التيقن، أو تسألني فيما هو قادم ولا تستطيع عليه صبرًا. وكأنما تتعمد التأكيد على أن تركيزها بالكامل معي كما قالت في بَدْءِ جلستنا. مع انتهائي من حكايتي، كانت هي قد انتهت من إطعام طيورها. نهضت ووضعت القفص في مكانه على حامل معدني منتصب أمام مكتبة ضخمة تسكنها مئات الكتب المنتفخة. ثم عادت لتجلس أمامي مرة أخرى. في حركتها البسيطة قاطعة ذلك المسار القصير داخل الحجرة، كانت فرصتي لتأمل جسدها المائل للبدانة، الملفوف في منحنيات مثيرة، يبرزها ضيق ملابسها الأنيقة. كل شيء في هذه السيدة الأربعينية يوحي بالثراء، فكيف لها أن تتعاطف مع حالتي، أو تناطح الدولة من أجلي؟ هل أخطأ سمير فهم مقصدي؟ هل أخطأت أنا في رقم الهاتف؟! أيعقل أن تكون هذه بالفعل هي المحامية المشاكسة المقصودة؟ رغمًا عني اتجهت عيني للافتة الصغيرة المذهبة المتصدرة سطح المكتب، والتي تشير بوضوح إلى أن الجالسة أمامي هي بالفعل صفاء الراعي المحامية.

أخرجتِ السيدة منديلا مبللا ومسحت يدها بعناية وهدوء، ثم ألقته في سلة مهملات تجاور مجلسها، ثم اعتدلت وتوجهت نحوي بجسدها ونظراتها وكامل تركيزها..

ـ لماذا أنت هنا؟

أدهشني تساؤلها، فقد ظننت الأمر واضحًا في كلماتي..

ـ لقد أخبرتك.

ـ أنت حكيت لي حكايتك. وهي للأمانة حكاية مؤثرة. لكن لم أفهم بعد ما دوري المتوقع في كل هذا.

ربما هي محقة. في النهاية أنا هنا من أجل عمل، لا من أجل الثرثرة مع صديق، لذا عليَّ أن أكون محدَّدًا وواضحًا في كلماتي..

ـ أريد أن أطعن في دستورية بروتوكول تنظيم الوقت.

ـ هل تعرف كم سيكلفك هذا؟

أربكني سؤالها، فلم أفهم إن كانت تتحدث عن أجرها، أم عن المخاطر المتوقعة.

ـ أنت أخبريني.

ابتسمت لسبب غير واضح، ثم قالت:

ـ من الناحية المادية فالقضية مكلفة. الدولة تفرض على المواطنين رسومًا مرتفعة لمقاضاتها. هذا بخلاف ما سأتقاضاه أنا بالطبع. ومن ناحية أخرى، فبمجرد وضع اسمك على دعوة التقاضي، سيتم التحري عنك بشكل كامل، ستوضع حياتك كلها تحت مجهر عملاق؛ حاضرك وماضيك، وربما حتى تكون عندهم طريقة نجهلها لرؤية مستقبلك.

لكن هذا لا يقلقك؛ لأنهم في النهاية لن يهتموا بك. أنت نظيف تمامًا. سيجدونك مجرد عاشق يبحث عن استعادة حبيبته. لن يؤذوك، وسيتركونك تسير في طريقك الذي يعلمون جيدًا أنه لن يقودك لأي نجاح.

صمتتْ وكأنما تلتقط أنفاسها..

ـ ولكن عندما ينظرون لحياتك من هذا القرب، فسيرون زوجتك، وسيعرفون كلَّ ما أخبرتني به الآن، وستصبح ـ هي ـ في موضع شبهات مؤكدة. بمعنى أنك قد تشكل خطرًا عليها إن رفعت تلك القضية.

كانت كلماتها بالفعل مخيفة، ولكن..

ـ أليست هي في خطر بالفعل الآن؟

هزت رأسها..

ـ قانونًا هي ارتكبت مخالفة بعدم تواجدها في الفراش وقت النوم المحدد. ولكن حتى الآن الأمر ليس خطيرًا، فهي في النهاية كانت موجودة في بيتها. يمكن تقديم أي مبرر منطقي لما حدث. شريحة التحكم العصبي مزودة بجهاز تحديد الموقع، لكنه لا يرسل البيانات طوال الوقت، فقط في لحظة النوم، فهذا هو الوقت الذي تنشط فيه الشريحة وتتولى زمام الأمور، فإذا كان النائم بعيدًا عن فراشه فهي ترسل تحذيرًا. وبالتالي هم يعلمون إن نمت خارج فراشك، لكن لا يعلمون لماذا ولا كيف. لكن إن ضيَّقوا عليكما خناق المراقبة، فبالتأكيد سيكتشفون أمرًا ما وراء تصرفاتها تلك.

من بين كل كلماتها توقفتْ أذناي وعقلي وجميع مداركي عند كلمة

محددة، فقررت التيقن منها. بلهفة قلت:

ـ كيف يمكننا تبرير ما فعلته؟

رسمت ابتسامة أخرى غير مفهومة، لكنها أكثر اتساعًا من سابقتها. تمهلت قليلا في انتقاء الكلمات ـ أو هذا ما اعتقدته ـ ثم قالت:

ـ أنت حقًّا تحبها. تحرك قضية ضد الحكومة من أجلها، وتبدو متلهفًا لإخراجها من ورطتها المحتملة، دون حتى أن تتساءل عن مكان تغيُّبها، أو سبب عودتها للبيت متأخرة.

بسرعة قلت، وكأنما أدافع ضد اتهام لا أعلمه بعد:

ـ هذا ليس وقته الآن.

بسرعة قالت وكأنما تضعني عُنوة في مواجهة ما أود إنكاره:

ـ ربما كان في حياتها شخص آخر؟

أخرسني صدق الفرضية ووقاحتها، فتابعت هي بلا رحمة:

ـ أنت تتحدث هنا عن معاناتك دونها، واحتياجك إليها. وهي كذلك، بالتأكيد تعاني دونك، وتحتاجك. أو بمعنى أدق تحتاج لرجل.

حاولتُ إسكاتها..

ـ هالة ليست كذلك.

واجهتني بإصرار..

ـ كثيرون قالوا مثلك. لكن الوضع الذي نحياه الآن استثنائي، ولا يخضع لأية قياسات سابقة. مهما كانت قوة حبكما، فقد انفصلتما. ما تفعله أنت مجرد محاولة يائسة، مثل مَن يرفض الاعتراف أن حبيبته ماتت. لكنها الحقيقة التي سيعترف بها ذات وقت، شاء أم أَبَى.

ـ لكن هالة لم تمت.

ـ لقد افترقتما وانتهى الأمر. لا يهم إن كان القدَر الذي فرقكما اسمه الموت، أو اسمه بروتوكول تنظيم الوقت.

ساد الصمت لفترة. كانت لحظة مفروضة لابتلاع التساؤلات، وتذوُّق مرارة الحيرة. لا أعرف أية تعبيرات ارتسمت على ملامحي لحظتها، لكن كلماتها التالية بدت أكثر تعاطفًا..

ـ أَعْطِ نفسك بعض الوقت لتفكر. إن بقيت مُصِرًّا على رفع القضية، فأنا سأساعدك، ولن أتقاضى منك أجرًا. فليس كل يوم تقابل المرأة رجلا يحب امرأته كما تفعل. لكن صدقني، أنت تحارب طواحين الهواء. امرأتك لم تعد لك، ويبدو جليًّا أنها وجدت رجلا غيرك.

هززت رأسي في رفض صبياني ليس له داعم سوى مشاعر حب لم تجد ما يؤججها منذ عامين..

ـ مستحيل.

هزت رأسها مبدية المزيد من التعاطف..

ـ أتمنى ذلك.

كان عليَّ أن أعيدها لنقطة الارتكاز الأهم، قبل أن تُغرقني فرضياتها الملعونة أكثر..

ـ كيف يمكن أن أبرر ما فعلته هالة للسلطات؟

دون الكثير من التفكير، وكأنما هي حلول روتينية معتادة التناول..

ـ اِضربها على رأسها ضربة قوية تُحدث ارتجاجًا. وسيكون دفاعها أنها تعرضت لصدمة في رأسها أفقدتها الوعي خارج الفراش. وداهمها موعد النوم وهي على هذا الحال.

احتجت ثوانيَ لأستوعب أني سمعت بالفعل ما أظنني سمعته. في النهاية طلبتُ منها التأكيد..

ـ أضربها على رأسها؟!!

ـ هذا هو أفضل حل. يجب أن تكون حجتها قوية ومدعومة بأدلة. ستقول: إنها تعثرت أثناء دخولها الشقة، وسقطت أرضًا، واصطدم رأسها في أية قطعة أثاث ففقدت الوعي.

ـ ما تطلبينه مستحيل.

ـ هذا هو الضمان الوحيد لسلامتها من التحقيق. يمكن أن نبحث عن حجج أخرى لكنها لن تكون بمثل قوة تلك الحجة، وستبقى هناك نسبة مخاطرة.

كان عليَّ أن أعتصر خلايا مخي محاولا توليد مسارات جديدة لاحتمالات أخرى قد تكون غابت عن ذهن تلك المرأة الواثقة من نفسها..

ـ لماذا لا نقول: إنها تأخرت في الخارج لأي سبب طارئ؟

بسرعة ـ وكأنما كانت تتوقع السؤال ـ قالت:

ـ سيكون من الصعب إثبات هذا. نحن لا نعرف أين كانت حقًّا ومن قابلت. ربما كان هناك شهودٌ يدمرون قصتنا الملفقة. يجب أن نحكي قصة وقعت لها في البيت بعيدًا عن أعين الشهود.

كانت حججها منطقية، ولكن ما تطلبه صعب التقبل ولو كخيال مارق، فكيف بتنفيذه..

ـ حتى لو اقتنعت بخطتك، فلن أستطيع تنفيذها.

هزت رأسها متفهمة..

ـ سأرسل معك من ينفذها. عليك فقط أن تتعاون معه، وأن تمنحه أجرًا مناسبًا.

من درج مكتبها أخرجت علبت سجائر، انتشلت سيجارة وأشعلتها. شعرتُ وكأنما تعلن بهذا نهاية لقائنا. انتشر في المكان رائحة نفاذة يحملها دخان سيجارتها المتصاعد فوق رأسها متخذًا أشكالًا عشوائية مثيرة للتأمل، رائحة حلوة بقدر ما، يمكن وصفها باللاذعة إن جاز الوصف. لحظتها ترددت بين القيام وبين البوح بما في نفسي. لكنها سبقتني إلى القول:

ـ سأنتظر قرارك النهائي بخصوص القضية. وأرجو أن تفكر جيدًا.

هنا قررتُ إطلاق العنان للبوح..

ـ هل أنتِ منهم؟

نظرتْ لي في البدء دَهِشَةً، ثم اتسعت على شفتيها ابتسامة، وارتسم الفهم في عينيها..

ـ أتقصد المستيقظين؟

هززت رأسي بالإيجاب..

ـ هناك خطأ شائع عند معظم الناس. فهم يعتقدون أن المستيقظين يعيشون بيننا بشكل طبيعي مُدَّعِين أنهم منا.

أدركتها بإجابة سريعة:

ـ هذا ليس خطأ شائعًا. هذا ما يقال في الإعلام.

ـ لكنه للأسف ليس الحقيقة.

ضايقني إصرارها، فقررت أن أدلو بشهادتي..

ـ اليوم اعتقلوا زميلَ عملٍ لي؛ لأنه منهم.

نفثت دخان سيجارتها على مهل قبل أن تقول:

ـ ليس منهم بالتأكيد. في الغالب هو مختلط بأحد المستيقظين. ينتمي له بصلة قرابة، أو متعاون معه. أما المستيقظون فليسوا هنا. لا نراهم أو نحدثهم. لا يعيشون بيننا؛ لأنه مستحيل أن يخفوا حقيقتهم وهم تحت أنظارنا. لذلك يجب أن يختفوا بعيدًا.

ـ أين؟

ـ لا أعلم. ربما في الجبال، أو في أعماق البحار حتى. ما أعرفه يقينًا، هو أني لست منهم.

في منفضة السجائر أطفأت سيجارتها وهي لم تزل بعد في منتصف الطريق لكامل احتراقها. فأدركت حينها أن هذه هي إشارة الانتهاء.

***

لم أكن مرتاحًا لوجوده في منزلي، لكن حتمية ما هو مقدم على فعله، وتأكيدات المحامية بضرورة معاونته والسماح له بفعل ما شاء، هما ما أبقيا فمي مغلقًا على مشاعر التوجس والتوتر، حتى وإن بَدَوَا على نظرات عيني ورعشة خفيفة في يدي. كان قوي الجسد، مع تلك النظرة الصارمة التي تبعث الخوف. هيئته تشير إلى مجرم محترف. لا أدري طبيعة علاقته تحديدًا بالمحامية، لكن من الواضح أنه الموكَّل بأداء مَهامِّها القذرة. بمجرد دخولنا المنزل سبقته إلى حجرة النوم لأتأكد من أن وضعية نوم زوجتي لا تكشف شيئًا من جسدها. دخل الحجرة ورائي بوقاحة دون دعوة. عاين جسد زوجتي بعينيه وقال:

ـ جيد أنك لم تغير لها ملابسها.

تقدم مادًّا يديه يريد أن يحملها. برد فعل غريزي أمسكت ذراعه أمنعه من إكمال الطريق..

ـ سأحملها أنا.

ابتسم باستخفاف وغادر الحجرة. حملت الجسد الساكن حتى صالة المنزل. تحديدًا إلى الموضع الذي وجدتها فيه. أشار إلى مقعد خشبي قريب من باب الشقة..

ـ لقد تعثرت في السجادة وسقطت وصدمت رأسها بعنف بهذا المقعد. هذا ما حدث لها، وهذا ما يجب أن يكون حجتها. هل لديك وسيلة لنقل هذا الكلام لها؟

هززت رأسي بالإيجاب، فطلب مني أن أضع جسدها على الأرض ورأسها ناحية المقعد الخشبي. فعلت ما أمرني به، ووقفت منتظرًا خطوته التالية. نظر إلى عيني مباشرة، بشكل ما بدا لي مستمتعًا بما يثيره في نفسي من توتر وارتياب..

ـ الآن سأضرب رأسها بقوة في المقعد. ستجرح رأسها وسيسيل دمها. فإن كنت لن تحتمل ما ستراه، فأرجو أن تغادر المكان حتى أنتهي.

ـ هل سيؤذيها هذا؟

ـ جهازها العصبي الآن مطفأ تمامًا فلن تشعر بأي شيء. وسأضربها عند منابت الشعر حتى لا يحدث الجرح أي أثر مستقبلي ظاهر للعيان. أيرضيك هذا؟

لم أهتم بالإجابة، ولا حتى بحركة تأييد من رأسي، وغادرت المكان إلى حجرة النوم وجلست على طرف الفراش منتظرًا. لم يتأخر طويلا،

مجرد ثوانٍ وسمعتُه ينادي باسمي. خرجت إليه فوجدتها ممددة على وجهها وبركة دم صغيرة تحيط رأسها. شعرت برغبة في تحطيم رأسه، لكني تماسكت.

ـ أتمتلك مجففًا للشعر؟

اندهشت لسؤاله في البدء، قبل أن أجيبه بهزة رأس تعني: نعم..

ـ أحضره لي.

عدت إلى حجرة النوم، وانتشلت مجفف الشعر من بين أغراض هالة. أعطيته للرجل، فطلب مني توصيله بأقرب مصدر للكهرباء. ثم استخدم هواءه الساخن لتجفيف الدماء السائلة من الجرح. كان منهمكًا في مهمته وهو يغلف فعله بالإيضاح المناسب..

ـ يفترض أنك وجدتها على هذا الوضع بعد ساعات من إصابتها. لابد أن دماء الجرح تجلطت، وجفت تلك العالقة بملابسها بعد كل هذا الوقت.

أنهى عمله، ثم اعتدل واقفًا..

ـ أعدها إلى الفراش.

حملتها بحرص حتى الفراش. مددتها، ووضعت رأسها على الوسادة. دخل هو ورائي ووقف يتأمل ما أفعله حتى انتهيت.

ـ هل لديك ضمادات؟

ـ أجل.

بطريقة روتينية، وصوت بارد تقريري، بدأ يتلو عليَّ ماضي يومي ومستقبله..

ـ في الصباح وجدت زوجتك على الأرض على هذا الحال. حملتها إلى الفراش وضمدت الجرح بشكل سريع عجول حتى لا تتأخر على حافلة المصنع. الآن أنت رجعت إلى البيت، ستتصل بالإسعاف، وسيحضرون لفحصها وتقطيب الجرح. وأنت ستحكي لهم كيف وجدتها، وموضع سقوطها بالتحديد. وعليك أن تترك لها رسالة تلقنها فيها الحكاية التي اتفقنا عليها لتسردها على آذان رجال التحقيق. هل هذا مفهوم؟

هززت رأسي بالإيجاب. بنفس طريقته الروتينية واصل إطلاق أوامره:

ـ الآن انتهى عملي معك. ستمنحني أجري، وسأغادر.

بالفعل منحته أجره وغادر. شعرت بقدر من الراحة للخلاص من وجوده الثقيل. ضمدت جرح زوجتي. انتهيت وتأملت ملامحها الملطخة بدم جاف سال سهوًا على خديها. للحظات لم أستطع أن أصد الاقتحام الجريء لتلك الفكرة الجديدة المخيفة؛ أيعقل أن يكون ثمة رجل آخر؟ أتكون هذه هي نهاية قصتنا؟ كلمات المحامية تدوي في أذني فلا أستطيع أن أمنع عقلي من استنشاق رائحة المنطق النافذة منها؛ كل القصص تموت في وقت ما وبأثر ظروف ما. فهل ماتت قصتنا في سبيل إنقاذ موارد الدولة وتحسين مستوى معيشة الشعب؟!

حاولت طرد الأفكار والاندماج أكثر في مصادر التوتر القريبة حتى أنهي الدور الموكل لي من الخطة. مسحت المكتوب على لوح التواصل وتركته على بياضه الملوث ببقايا كتابات سابقة غير مقروءة. اتصلت بالإسعاف وشرحت لهم طبيعة الحالة الطارئة. بعد فترة ليست بالطويلة جاءني مسعف وطبيبة ورجل صامت لا يفعل شيئًا سوى التطلع للمكان،

وتوجيه نظرات متفحصة لملامحي. اكتفى هذا الرجل بالوقوف الصامت حتى انتهى المسعف والطبيبة من تقطيب الجرح بشكل تجميلي نظيف، ومنحتني الطبيبة ورقة بها اسم لكريم علاجي يجب أن تضعه على جرحها مرتين يوميًّا، وورقة أخرى تحتوي على كشف بالمبلغ المطلوب مني سداده مقابل الخدمة. منحتها المبلغ المحدد، فغادرت الحجرة هي والمسعف في حين بقي الرجل جامدًا في مكانه يتأملني. هنا أخرج من جيبه دفترًا صغيرًا وبدأ يستجوبني. أدركت أنه رجل أمن موكَّل بتلك الاستجوابات الروتينية في حالات الحوادث. الأمر كان روتينيًّا تمامًا لكنه مثير للتوتر والارتباك. حاولت التماسك وأنا أحكي له القصة المتفق عليها. قام بالكثير من الكتابة حتى ظننت أنه لم يغفل حرفًا مما قلته دون تدوين.

في النهاية أعاد القلم والدفتر الصغير إلى جيبه ثم غادر بعد كلمة تحية مقتضبة. أوصلتهم حتى باب الشقة ثم هرعت إلى الحمام، تقيأت طويلا حتى شعرت بالألم في حلقي. لا أعرف سبب هذا، فأنا لم أتناول طعامًا منذ وقت الاستراحة في المصنع. عندما انتهيت صرت أشعر براحة نفسية أكبر، وكأنما كنت أفرغ في المرحاض ما في روحي وليس ما في معدتي. عدت إلى حجرة النوم وكتبت كل شيء على لوح التواصل. دونت الحكاية التي سيكون عليها أن ترويها لرجال التحقيق. غادرت البيت واشتريت الدواء. عندما عدت وضعته قريبًا من موضع نومها، وكتبت لها على اللوح تعليمات استخدامه. بدلت لها ملابسها بملابس النوم المريحة، ووقفت بعدها ألهث مدركًا أني أخيرًا قد انتهيت من المطلوب مني على أكمل وجه، وأصبح مصيرها الآن في يد القدر. حاولت أن أكمل يومي

بشكل طبيعي، لكن التوتر والأفكار السوداء لم يفارقوا قلبي وعقلي، حتى إنني لأول مرة منذ زمن أشعر بالسعادة والامتنان لبروتوكول تنظيم الوقت، فأنا أدرك الآن أني بعد وقت قصير سوف أنام نومًا عميقًا مقطوعًا عن الحياة ومشاكلها وضغوطها. وربما عندما أستيقظ بعد الغد سأجد أن الأمور قد حُلَّت تمامًا. ذكَّرني هذا بأمر هام، فعدت إلى لوح التواصل وكتبت لها ملحوظة أن تكتب لي كل ما دار معها بالتفصيل لتطمئنني أن كل شيء صار كما يجب، وكذلك أكدت عليها أن تمسح كل المكتوب على اللوح بمجرد أن تقرأه حتى لا تقع عليه أعين رجال التحقيق.

عند نهاية اليوم تمددت في مكاني، ولأول مرة منذ زمن احتضنتها وانتظرت لحظة الغياب، فلم تتأخر.

***

في منتصف الطاولة وضعت هالة صينية بها الدجاج المشوي الساخن، يبث في المكان بخارا دافئا ورائحة شهية. جلست على مقعدها بجواري. قبَّلت يدها وشكرتها على جمال طعامها قبل حتى أن أتذوقه. لكنها ابتسمت بدلال وأعلنت رفضها للمجاملات..

ـ تذوق أولًا.

قطعت بسكينها وشوكتها قطعة من لحم الدجاج. نفثت فيها من أنفاسها الحلوة لتبردها، ثم قربت الشوكة من فمي، فالتهمتها مُصدِرًا صوتَ استحسان.

ـ لذيذة.

ابتسمت بسعادة الأطفال، وبدأنا نتناول الطعام وأنا أقص عليها

حكايات يومي. كل شيء كان هادئا وجميلا في تلك اللحظة الصافية. حتى عندما قاطع بكاء الطفل غداءنا، لم نشعر بأي ضيق، أو تتلوث لحظتنا الدافئة، وإنما انطلقنا معًا إلى حجرته. وقفت هي وتركتني أحمله، فهي تعرف كم أشتاق لهذا بعد غيابي في المصنع نهارًا كاملا! حملت الرضيع من مهده فهدأ واستكان وابتسم في وجهي، قبل أن يريح رأسه على كتفي ويواصل نومه. حملته عائدًا إلى طاولة الطعام، وأكملنا غداءنا والطفل نائم على كتفي.

في المساء استرخينا أمام التليفزيون. كان يعرض فيلمًا كوميديًّا أحبه ولم أشاهده منذ زمن، لكني لا أتذكره الآن. كثيرة هي التفاصيل في الأحلام التي لا نتذكرها عند صحونا. كانت بجواري تُرضع الصغير، عندما انتهت وغفا بين يديها، مددت يدي أطلبه. أخذته منها وتركته مسترخيًا في نومه على صدري، مستمتعًا بدفء احتضانه. وضعت هالة رأسها على كتفي، مستمتعة بلحظتنا، فطوقت كتفيها بذراعي الحر، لتكون تلك هي اللحظة السحرية التي أحتضن فيها العالم كله.

في نهاية اليوم وضعنا الطفل في مهده، واحتوتنا حجرتُنا. كانت نظرة واحدة بيننا كافية للاشتعال. كلمة صغيرة هامسة من فمي، تحمل كل صدق وحرارة الكون:

ـ أوحشتِني.

ابتسمتْ في خجل فاشتعل جمر الخدين، وتعانقنا. مضينا متمهلين في طريقنا المشترك، حيث في منتهاه نبلغ الوصال ومنتهى الاكتمال، كجزئين من جسد واحد يستعيدان التئامهما. تلك الحرارة المتجددة تصهرنا

وتؤجج التحامنا فنصبح كيانًا عصيًّا على الانفصال، لنحصل معًا على عمر أطول للذة التي تبدو لا نهائية، يمتد دِفْؤُها حتى إلى دقائق الاسترخاء المُسْكِر لجسدينا المتلاحمين، وحتى تهدأ الأنفاس، وتتبدد الهمسات وراء النوم الجميل.

***

عندها أستيقظ...

الموسيقى الحماسية تدوي من المذياع العام. أنهض جالسًا، وكأنما إحدى وثلاثون ساعة كاملة من النوم لم تُنسني لهفتي وتخوفاتي، فأسدد النظرات إلى جسد زوجتي النائم لأتأكد من أنها بالفعل هنا. أمرر كفي على جسدها متلمسًا حقيقته المادية، للمزيد من يقين الإدراك. أرفع عيني نحو لوح التواصل فأجده أبيض كعقلي المسكون بأشباح الحيرة والعجز. لماذا تبخل عليَّ بالكلمات؟ أريد أن أعرف ما حدث؛ هل أخذوها؟ هل صدَّقوا حجتها؟ هل خرجت من الورطة سالمة أم لم تزل هناك احتمالات لتوابع آتية؟ للحظة راودني يأسي أن أوقظها لأسألها، لكنَّ شعورا مُقبضا أصابني مع استعادة سريعة ليقين استحالة حدوث هذا، فتصاعد في أعماقي كل صديد الجروح المنفتحة منذ عامين، لينفجر من عيني دمعًا كثيفًا. بكيت في الفراش كطفل صغير. احتضنتُها وضممت جسدها بقوة الأعاصير وأنا لا أكف عن إطلاق الدموع والنحيب، متجاهلا أوامر المذياع العام بضرورة الإسراع بأداء طقوس الصباح.

عندما شرعت في خلع ملابسي في دفء الحمام كانت نفسي أهدأ، ولكن عقلي لم يزل يفور بأفكاره. لا بد من طريقة لدفعها للتواصل معي.

عندما خلعت سروالي اكتشفت أن حلم الأمس لم يكن حلمًا تمامًا، وإنما ترك في سروالي الداخلي بعض آثار من واقع. الأمر كان غريبًا ومذهلًا، يفترض أني أتناول بكثافة جرعة دواء تقضي على أية رغبة أو حتى قدرة جنسية، سواء في الواقع أو في الأحلام، فمن أين جاء هذا؟

حملت مستجدات الحيرة تلك لما بقي من طقوس الصباح، حتى خرجت لصالة الشقة، عندها شعرت بها. لن أقول إني شممتها، فتلك أكثر من مجرد رائحة، وإنما نذير موت، أو عقاب إلهي قادم من الجحيم. رائحة عطر رجال التحقيق الذي شممته في المصنع من قبل، لم يزل يملأ فراغ بيتي كحقيقة مقيتة، فأدركت أنهم جاؤوا بالفعل. على كل حال قد يحمل هذا بشيرَ خيرٍ، فربما يعني أنهم لم يجدوا عندها ما يدعوهم لأخذها. حاولت تضخيم تلك الفكرة وتأطيرها بإطار برَّاق في عقلي لعلها تخفف من مسببات توتري لما بقي من اليوم. لكن اليوم كان يحمل لي وعودًا بالمزيد من الأفكار السوداء في الطريق، خاصة عندما قُطعت محاولات اندماجي التمثيلي في العمل على صوت المذياع الداخلي يعلن ضرورة توجهي خلال استراحة الغداء لمقر وزارة السكان لأمر هام. سمير تأملني بنظرات دهشة تحمل أسئلة صامتة، فرددت عليه بنظرات حيرة تحمل عجزًا وعدم فهم. بمجرد انطلاق صافرة الاستراحة توجهت لمكتب إدارة العاملين للحصول على تصريح المغادرة. كان التصريح جاهزًا أمام مدير الإدارة. منحه لي ومعه نظرة متسائلة، فأدركت أنه مثلي مندهش من الاستدعاء، لكني كالمتعلق بطيف أمل، سألته:

ـ أتعرف سببًا لهذا الاستدعاء؟

هز رأسه:

ـ للأسف لا. كل ما نعلمه أن موظفًا من الوزارة اتصل صباحًا يطلب حضورك. ستسجل اسمك على بوابة الدخول وهم سيدلُّونك على المطلوب.

هززت رأسي شاكرًا، وغادرت مكتبه وأنا أقرأ إذن الانصراف. كان إذنًا دون عودة. وكأنهم يتوقعون تأخري هناك لأكثر من ساعات العمل بالمصنع. أم تراهم يتوقعون عدم عودتي من الأساس؟! فكرة أن يتم استدعاؤك من جهة حكومية فكرة مثيرة لكل براكين التوجس الخامدة، فما بالك وتلك الجهة هي وزارة السكان. الوزارة المتحكمة في قانون تنظيم الوقت، بما يتبعه من إجراءات وتعقيدات. والأهم أنها الجهة التي تنتمي لها إدارة رجال التحقيق. ولكونهم جزءًا من تكوين الوزارة، فربما لهم دخل ما في هذا الاستدعاء. حاولت طيلة الطريق أن أقنع نفسي أن الأمر لا يحوي سوءًا وإلا كانوا أرسلوا رجال التحقيق لأخذي بدلا من هذا الاستدعاء.

بلغت مقر الوزارة، عند البواية أدليت باسمي وبياناتي بصوت متماسك بالكاد. دلني موظف الاستقبال على التوجه إلى مكتب إداري؛ مكتب كبير وفخم عليه لافتة أنيقة تدل على أن صاحب المكتب هو مدير إدارة البحث والتطوير، وهو منصب بدا لي علميًّا بعيدًا عن عالم رجال التحقيق الأمني المقبض، فهدأت تخوفاتي بقدر يسير. طرقت باب المكتب ودخلت، لأجد فوق المقعد الوثير جسدًا بدينًا سبق لي لقاءه كما خُيِّل لي. ربما كان هو ذاته موظف إدارة الشكاوَى الذي فحص شكوتي منذ أيام قليلة. وربما

كان مجرد شبيه. لكن الرجل ما إن رآني حتى اتسعت ابتسامته، وفرد ذراعيه مستعرضًا، وقال بمرح موضحًا:

ـ ترقية.

فأدركت أنه هو ذات الموظف بالفعل. دعاني للجلوس أمامه، فجلست. مد يده بين أوراقه وأخرج الملف الذي يحوي اسمي. ملف منتفخ بأوراق الشكاوَى والتظلمات التي قدمتها. وقتها ارتجف قلبي متلهفًا، أيعقل أن يحمل لي الاستدعاء أخبارًا سارة؟ هل وجود الملف هنا أمام ذلك الرجل المبتسم المرح يحمل بشارة بأنهم وجدوا حلًّا لمعضلتي؟

ـ لقد وجدنا حلًا لمعضلتك.

كان لكلماته وقعٌ ثقيل، عجزت أن أحمله وأرده إليه في شكل تساؤلات. لكن في عيني بدا ما جعله يبتسم بوسع شفتيه. قبل أن يميل تجاهي ويتحدث همسًا بحميمية الصداقة، وعينه اليمنى تغمز لي بخبث مرح:

ـ أخبرني أولًا. كيف كان حلمك يوم أمس؟

من رحم حرارة اللهفة والسعادة وُلِدَ توجسٌ باردٌ. ماذا يعرف عن حلم الأمس؟

ـ كالمعتاد.

ضحك بصوت عالٍ بدا ـ مقارنة بهمساته منذ لحظات ـ كهدير انفجار بركاني..

ـ بالطبع لم يكن كالمعتاد. فنحن نعرف التجربة الخاصة التي مررت بها.

هل وصلت قدرتهم على التلصص لهذه الدرجة؟

ـ لم يكن تلصصًا لا سمح الله.

كيف عرف أن هذا ما فكرت فيه؟!!!

ـ لكننا ببساطة زرعنا هذا في عقلك. نحن من منحنا الأمر لجهازك العصبي أن يستجيب للحلم المثير بهذه الطريقة. لقد منحناك قدرًا من المتعة المفتقدة، ولا تنكر هذا.

كانت كلماته مربكة، فاحتجت لثوانٍ لتنظيم أفكاري، ولتساؤل يزرع في عقلي حقيقةَ ما فهمته الآن..

ـ هل تقول: إنكم خلقتم في عقلي هذا الحلم الجنسي، وجعلتموه بكل هذه الدرجة من الواقعية؟

ـ ليس في عقلك فقط. بل في جهازك العصبي بالكامل. ما مررتَ به في نومك ليس مجرد رؤية، وإنما تجربة واقع افتراضي متكاملة. أنت لم تزل حتى هذه اللحظة مرتبكًا. ما زلتَ تشعر بلذة ما دار بينك وبين زوجتك، ما زلتَ تشعر ببعض الخدَر في أطرافك. وتتمنى أن يتكرر هذا كثيرًا في أحلامك. أليس كذلك؟

كنت مندهشًا من دقة وصفه لما يعتمل بنفسي منذ الصباح، فهززت رأسي مؤيدًا دون كلمات.

ـ وهذا تحديدًا هو ما أعرضه عليك الآن. لقد وضعناك في تلك التجربة لتتذوق حلاوة ما نحن بصدد تقديمه لك.

عاد ليميل نحوي بجسده. ضيَّق عينيه معلنًا عن أهمية وخطورة ما سيقوله الآن، فانتبهت بكل كياني..

ـ لقد اخترناك.

اعتدل في جلسته وكأنما قال كل شيء. أخرج سيجارة وأشعلها ونثر

في الهواء عادمها الذي حمل ذات الرائحة النفاذة اللاذعة مثل سيجارة المحامية.

ـ لقد جعلناك تعيش هذه التجربة خلال نومك. فحتى هذه اللحظة لا سلطان للشريحة عليك سوى خلال النوم. لكن ماذا لو كان بمقدورنا أن نجعلك تعيش نفس التجربة وأنت مستيقظ. أن تقابل زوجتك، وتعاشرها في أي وقت تختاره في اليوم؟

صمت معلنًا أنه ينتظر مني جوابًا..

ـ لا أعرف. على حسب ما نتحدث عنه هنا.

ـ نحن نتحدث عن نوع آخر من الأحلام. أحلام اليقظة.

أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته..

ـ نحن نحاول تطوير عملية التحكم في النوم والأحلام. الأمر معقد، وينطوي على الكثير من الجوانب التقنية التي لن تفهمها، فدعنا نقفز مباشرة للنتائج. نحن نسعى لتقديم خدمة جديدة للمواطن. هناك الكثيرون مثلك ممن أصيبت حياتهم بدرجات متفاوتة من التعاسة بسبب قانون تنظيم الوقت. نحن نعتبركم آثارًا جانبية، ولكن لا يعني هذا ألا نهتم بكم. ولهذا اخترعنا ذلك التحديث في النظام لكي يساعد على جعل حياتكم أفضل. طريق جانبي مختصر يقودكم مباشرة إلى أحبائكم؛ أحلام اليقظة.

كان يتحدث بطريقة دعائية، ولكن كلماته لم تنجح في استثارة حماستي، وإنما فقط أكسبتني طبقات إضافية من الحيرة..

ـ ولكننا بالفعل نلتقي في الأحلام، فما الجديد؟

نظر إليَّ مذهولا وكأنما لم يتوقع مني غير السعادة والامتنان..

ـ الأحلام ليست مشبعة بشكل كاف، وإلا ما كنتَ أنت والآلاف غيرك تَسعون منذ عامين لتغيير واقعكم. لكن ما نتحدث عنه اليوم ليس مجرد أحلام. بل واقع افتراضي كامل. في الوقت الذي تختاره من اليوم، كل ما عليك أن ترسل إشارة معينة برغباتك. وستقوم الشريحة بوضعك داخل حلم يقظة بكامل أحاسيسك ومداركك. حلم حقيقي تمامًا، يمكنك فيه أن تتذوق الطعام، وتشم الروائح، وأن تستمتع بزوجتك كما تشاء. وستبلغ لذتك تمامًا كما يحدث في أي حلم جنسي مشوه يراودك قسرًا أثناء نومك.

عندما صمت هذه المرة أدركت أنه قال كل شيء. كانت لم تزل في عقلي مناطق فارغة أحتاج لملئها بالمزيد من المعرفة، ولكن على الأقل أنا الآن مطلع على كل ما يهم، وكل ما يلزم لاتخاذ قراري. فقط عليَّ أن أعرف ما هو تحديدًا القرار المطلوب مني اتخاذه!

ـ ما هو المطلوب مني الآن؟

فتح الملف وأخرج منه ورقة وضعها أمامي..

ـ مطلوب منك أن توقع على هذا الإقرار بالموافقة لكي تكون جزءًا من المجموعة التجريبية الأولى لهذا التحديث.

ـ الأمر إذن ما زال في طور التجربة؟

ـ نحن لن نُتيحه على نطاق واسع الآن. وبالطبع لن نتيحه بشكل مجاني. لذلك فهي فرصة ثمينة من أجلك. كونك ضمن المجموعة التجريبية سيجعلك تتمتع بهذا التحديث مجانًا طيلة حياتك.

أشرت إلى مؤخرة رأسي حيث موضع الشريحة المختبئة تحت جلدي..

ـ هل سأخضع لعملية أخرى؟

هز رأسه نفيًا..

ـ هو مجرد تحديث سيتم إضافته في برنامج التحكم الخاص بك على النظام العام، لكن هذا يحتاج لموافقتك بالطبع على الشروط والأحكام.

سؤال أخير كان عليَّ أن ألقيه الآن..

ـ هل هذا الوضع هو المسار الوحيد لتصحيح أخطاء قانون الـ ...

قاطعني بسرعة:

ـ القانون لا يخطئ.

ـ أقصد أزمة التفرقة بيني وبين زوجتي. هل سيبقى هناك مجال لحل الأمر بشكل واقعي أم أن هذا التحديث هو العلاج الوحيد والنهائي؟

بابتسامة وصوت عالٍ دون داعٍ قال:

ـ طبعًا سيبقى مجال الحل النهائي والواقعي متاحًا. ولكن كما قلت لك من قبل: هذا يتطلب تعديلًا لمواد القانون، وهو ما سيأخذ وقتًا طويلا قد يصل لأعوام.

أطفأ ما بقي من سيجارته في منفضة السجائر..

ـ هذا العرض هو أفضل المتاح الآن. وربما أصلا أفضل من الحلول الواقعية. فهو يقدم لك أكبر حلم في تاريخ البشرية. أن تحول أحلام يقظتك إلى واقع محسوس. يمكنك حتى من خلال هذا التحديث أن تضاجع نساء الأرض كلهم، فربما إن اجتمع شملك بزوجتك تكتشف أنها ما عادت ترضيك.

انفجر البركان بضحكة جديدة، فأدركت أنها لحظة مناسبة لتغيير تعبير الدهشة المرسوم على وجهي منذ بداية تلك الجلسة، ورسم ابتسامة صغيرة مجاملة..

ـ صدقني، هذا التحديث هو بوابة حياتك الجديدة.

نظرت للورقة الموضوعة بيننا. كانت ممتلئة بكلمات متلاصقة بخط صغير يجعل قراءتها تحتاج للكثير من التدقيق. عدد مهول من البنود والشروط المرتبطة بموافقتي على هذه التجربة، ولست أدري إن كان سيتيح لي الفرصة والوقت لقراءتها قبل التوقيع أم لا. القرار كان يحتاج للكثير من التفكير. وأنا كنت أحتاج للكثير من الشجاعة التي استجمعتها بعد جهد، فقط لكي أقول:

ـ هل يمكن أن أحصل على مهلة للتفكير؟

ارتسم على وجهه جمود مفاجئ يشبه الغضب. لكنه عاد ليبتسم قائلا:

ـ أمامك يوم واحد.

أعاد الورقة إلى الملف، وتناول بطاقة صغيرة من حافظة بلاستيكية على مكتبه..

ـ سأنتظر منك اتصالًا.

بكلمات مغموسة في نبرات التهديد، أضاف:

ـ عدم اتصالك سنعتبره إهانة للوزارة، وللقانون.

صقيع أصاب أطرافي لحظتها، فوجدت في نفسي الحاجة لِأَنْ أتساءل:

ـ وماذا إن رفضت؟

ابتسم..

ـ لا شيء. هذا حقك تمامًا.

أشار بيده نحو الباب بأمر صريح وقح بالانصراف. نهضت وأنا أتمتم بكلمات شكر، استدرت مُيَمِّمًا وجهي طريق الخروج، لكنه استوقفني..

ـ نحن لسنا الأشرار هنا يا صديقي.

توقفت واستدرت إليه منتبهًا.

ـ أعرف أنكم تخافون منا، تخافون قوانيننا، وتخافون رجال التحقيق. وربما كان معكم بعض الحق. ولكن هذا لا يجعلنا أشرارًا، أو عصابة إجرامية ما. نحن مجرد فئة من الناس تسعى ليل نهار لجعل حياتكم أفضل. حتى لو اضطررنا في بعض الأحيان لاتخاذ تدبيرات لا تنال رضاكم؛ لأننا نرى الصورة بشكل أكبر. أنت لا ترى سوى حياتك فقط. لكن نحن نرى كل شيء. حياتك، وحيوات الملايين غيرك. لذلك تأكد أننا لا نسعى للأذى، فَهَوِّن على نفسك، واتخذ القرار الذي تراه أفضل لمصلحتك الخاصة.

اختتم كلماته بابتسامة.

كان يفترض في هذه الكلمات أن تكون مريحة مشجعة، فلماذا أشعر الآن بالمزيد من الضغط والتهديد؟!

***

عندما غادرت مبنى الوزارة لم يكن موعد الانصراف من المصنع قد حان. لكن معي إذن انصراف دون عودة يتيح لي حرية مبكرة عن الموعد اليومي المعتاد. فكرت أن أتمشى قليلا على النهر، لعلي أضيف

لأفكاري بعض الصفاء المعين على اتخاذ قرار سليم. لكني فضلت العودة للبيت. اشتريت وجبتين من الطعام الجاهز في طريقي، وضعت إحداهما في الثلاجة وتركت فوقها ورقة باسم زوجتي كتبت عليها: (من أجلك). وجلست أمام التلفاز ألتهم الثانية وحيدًا. لأول مرة أشعر بهذا البرد والخواء. وكأن هناك تناسبًا طرديًّا بين ازدحام العقل، وخواء العالم! برغم القرار المصيري المطلوب مني اتخاذه، إلا أني لم أكن أريد أن أفكر. كنت أحاول طرد الانشغال من رأسي وتفريغه بأي شكل. تناولت طعامًا أحبه، وشاهدت على التلفاز برامج الأطفال. دخلت إلى حجرة النوم وجلست على مقعد في مواجهة وجه زوجتي النائمة..

ـ ماذا أفعل الآن؟

سؤال قادني إلى أفكار لا أحب استدعاءها..

ـ ولماذا عليَّ أن أفعل هذا وحدي؟ ماذا عنك؟ لماذا لست معي؟

انتزعني رنين الهاتف من حصار الأفكار السوداء. أجبت نداءه فوجدت المحامية هي صاحبة الاتصال. انتظرت أن تحمل كلماتها تساؤلًا عن قراري بشأن مقاضاة الحكومة. لكن الحقيقة أن تساؤلها كان مختلفًا..

ـ لماذا استدعوك اليوم إلى وزارة السكان؟

كان سؤالا مفاجئًا، لكني قررت تخطي المقدمات الروتينية، واعتبار أن التساؤل المنطقي عن طريقة معرفتها بهذا الأمر، تساؤل لا داعي له، وزائد عن حاجة الحوار..

ـ عرضوا عليَّ أمرًا.

فاجأتني بالمزيد..

ـ عرضوا عليك أن تكون فأر تجارب لبرنامج أحلام اليقظة. أليس كذلك؟

ابتلعت دهشتي من جديد..

ـ بلى.

ـ وهل وافقت؟

ـ طلبت مهلة للتفكير.

ـ وماذا تنوي أن تفعل؟

ـ لست أدري. ما زلت أفكر. ماذا تقترحين عليَّ؟

صمتت طويلًا وكأنما تصارع نفسها بين الصمت والبوح. وفي النهاية قالت:

ـ أنا لا أملك أن أقترح عليك شيئًا. لكن الأمر مثير للقلق. فكرة أن يتم تحديث الشريحة لتصبح قادرة على التعامل مع عقلك في حالة وعيه، هي فكرة مقلقة. ربما تمكنهم من معرفة مكانك وأنشطتك طوال اليوم، وليس فقط أثناء نومك. ربما تمكنهم من قراءة أفكارك، ومعرفة ما لا تعرفه أنت عن نفسك. الأمر مريب، هذا كل ما أستطيع قوله لك.

كانت كلماتها مذهلة ومقلقة في ذات الوقت..

ـ هل تظنين حقًّا أنهم قادرون على هذا؟

بسرعة أجابتني:

ـ التكنولوجيا الحديثة يمكن أن...

قاطعتها موضحًا مقصدي:

ـ أنا أقصد من الناحية الأخلاقية. كيف يمكنهم فعل شيء كهذا؟!

صمتت لفترة وكأنما صدمت بسؤالي. بعدها كانت كلماتها قوية، ونبراتها واضحة، ومخارج ألفاظها مضبوطة ومضغوطة..

ـ هل حقًّا أنت بهذه السذاجة؟!

لم أتوقع منها إهانة أو هجومًا كهذا. تفاجأت، لكني لم أشعر أني قادر على الرد..

ـ هل تعرف كيف أحدثك الآن؟! وكم التعقيدات التكنولوجية التي يتبعها هذا الخط الهاتفي لكي أتمكن من مهاتفة عملائي دون مراقبة؟

كانت مفاجأة ثانية. لم أُبالِ باتهامات السذاجة وأنا أتساءل:

ـ هل يراقبون الهواتف كذلك؟

لم تندهش هذه المرة، وبدا وكأنما توقعت السؤال، فأجابت مسرعة:

ـ إنهم يراقبون كل شيء. وهو ما لا يجعلني أستبعد أن يكون هذا التحديث في الشريحة هو في الحقيقة تحديث في تكنولوجيا المراقبة والتحكم. لذلك خذ حذرك.

قالتها وأنهت المكالمة دون كلمة وداع، وتركتني في قلب العاصفة بلا طوق للنجاة. كنت أشعر لحظتها بالغضب. غضب من كل شيء. غاضب من هالة، ومن المحامية، ومن الحكومة، ومن البروتوكول، والشريحة. أريد الهَرَبَ من كل شيء، ومن كل مكان. في الحقيقة أريد الهرب إلى اللاشيء وإلى اللامكان، ولكن لا أدري كيف. نهضت إلى لوح التواصل، ودون اكتراث بتبعات، خططت كلمات تحمل غضبي:

(هالة.. أنتِ لا تعرفين ما أواجهه.. مغريات كثيرة تدفعني للتخلي عن قضيتنا.. للتخلي عنك.. وكل ما أرجوه منك هو العون والسند.. لكنك

لا تبالين.. هذه الرسالة ستكون آخر تواصل بيننا.. ستكون فرصتك الأخيرة.. إما أن تكتبي لي ردًّا وتوضيحًا.. وإما سأُنهي ما بيننا وأجد لنفسي زوجة جديدة وأواصل حياتي).

بمجرد أن انتهيت من كتابة الرسالة أمسكت الممحاة أبغي محوها. لكن قبل أن أفعل توقفت وصارعت نفسي. أخشى الآن رد فعلها. أخشى أن يكون في غضبي عليها ظلمًا لها. لكن ما في نفسي لم يعد بالحجم القابل لحبسه في الصدر. لقد تضخم وبات وحشًا قادرًا على تمزيق صدري وأحشائي، والتهامها. لذلك تركت الممحاة من يدي، وتركت الرسالة على اللوح.

***

عدت من المصنع مكدودًا، منتهك الجسد والأعصاب كما لم يحدث من قبل. لحظة دخولي للبيت كلحظة انغماس في حضن حنون دافئ. فجأة يتبدل الحال للراحة والاسترخاء بمجرد أن أشم عطرها العالق في الأركان. حتى وإن لم تلاقني عند الباب بوجهها الباسم كالمعتاد. لكن عطرها يدل على حقيقة وجودها. خلعت حذائي وأنا أناديها عازمًا لومها على عدم ملاقاتي عند الباب، لومًا هيِّنًا متدللا يبغي فقط الحصول على قُبلة منها أو ضمة شغوفة للمصالحة. لكنها لم تستجب لنداءاتي. حملتني الخطوات المرهقة إلى المطبخ، فلم أجدها. لم يكن من المعتاد وجودها في حجرة النوم في هذه الساعة من النهار، لكني لم أجد غير حجرة النوم مكانًا محتملا. باب الحجرة مغلق على غير اعتياد. اقتربت منه فبلغتني من ورائه أصوات أنفاس مرتبكة نشوانة لشخصين في خضم فعل انغماس

وقح. فتحت الباب بسرعة احتراق أعصابي، فوجدتها في الفراش متلبِّسة بالفعل الشيطاني مع ذلك الرجل العاري. لم أصدق نفسي لثوان كانت كافية لِأَنْ يحاول كلاهما يأسًا مداراة فضيحته. لا أعرف كيف وجدت هذا السكين في يدي. ولكن أعرف أن صوت الصرخات، ولون الدم، وملمس دفئه على يدي ووجهي، حملوا لي بهجة ومتعة غير مكتشفة؛ متعة الثأر. حتى عندما فرغتُ منهما، وتأملت جثتين ممزقتين اختلطت أجزاؤهما ببعضها، لم أستطع منع نفسي من رفع السكين إلى فمي ولعق الدماء من عليها مستمتعًا.

***

استيقظت من النوم خائفًا مشوَّشًا؛ ما معنى هذا؟ يفترض أن الشريحة لا تولد سوى أحلامٍ سعيدة. فمن أين جاء هذا الكابوس؟ هل يكون الغضب المستعر بداخلي أكثر قوة من الشريحة، فهزمها بتلك الرؤية المرعبة؟ أم أن الشريحة هي التي فعلتها؟ شعرت لحظتها أن هذا الكابوس قد يكون مجرد تحذير منهم؛ وكأنما يعرضون عليَّ ما يمكنهم فعله بي إن أنا رفضت عرضهم. لكن الأفكار السوداء عن الكابوس سرعان ما تراجعت مستسلمة أمام أفكار سوداء جديدة عن الواقع. فقد كان لوح التواصل أبيض تمامًا. ليس ذلك البياض المشوب بآثار الحروف الممحوة؛ وإنما بياض ناصع شاهق، ليس له سوى معنى وحيد؛ لقد غسلت هالة لوح التواصل. لم تكتف بمسح رسالتي، بل غسلت اللوح كله! الأمر يبدو وكأنه تَعَمُّد إهانة. هي تَمحوني بالكامل من حياتها. لم أصدق هذا في البدء. كيف؟ لقد هددتها صراحة أني سأتزوج غيرها، وهي لم تُبالِ. كلا. ليس الأمر فقط أنها لم تُبالِ.. لقد غسلت اللوح! محت كلماتي بالماء والمنظفات!

عندما دوت من المذياع العام صافرة تبلغني بوصول حافلة المصنع، كنت لم أزل على الفراش ألوك حيرتي وخوفي وغضبي. نهضت مسرعًا أغير ملابسي. لكن مهما بلغت سرعتي فقد صار مستحيلا أن أدرك الحافلة. لكني تمسكت بأمل الوصول إلى المصنع قبل انطلاق صافرة بدء العمل.

في اللحظة الأخيرة تمكنت من فعلها. كنت أتخذ موقعي أمام الماكينة لاهثًا في ذات لحظة انطلاق صافرة بدء العمل. كنت متعبًا، وكان تعب الجسد يصب زيتًا على نار غضبي فتشتعل أكثر. كنت في حالة من قابلية الانفجار جعلتني راغبًا في الانعزال عن كل شيء. حتى في وقت الاستراحة اتخذت مجلسًا منعزلًا، ولأول مرة تعمدت البعد حتى عن سمير. ويبدو أنه قرأ هذا في ملامح وجهي فلم يحاول الاقتراب مني، واكتفى بتطلع صامت من مجلسه البعيد محاولا استكشاف ما بداخلي. وكنت أنا ألاحظ نظراته، فأتعمد تجنب تلاقي الأعين. طوال يوم عمل كامل في المصنع لم أنطق سوى بجملة واحدة حملت تساؤلًا لذلك العامل ضخم الجثة حين كان ينظم الرهانات الجديدة..

ـ ماذا عن الأسطوانة الحمراء؟

أجابني بحيرة:

ـ أية أسطوانة حمراء؟

لحسن حظي لم أتكبد عناء المزيد من النطق، فقد تطوع أكثر من عامل لتذكيره بذلك الرهان القديم. فهز العامل الضخم رأسه وقال حاسمًا:

ـ لم يظهر لها أثر.

فازداد غضبي غضبًا. فحتى الرهان الأخير يبدو أني خسرته.

بعد انتهاء ساعات العمل عدت إلى البيت ممتطيًا الصمت وآخر مقعد في الحافلة، بعيدًا عن كل الأعين والألسنة. دخلت إلى الشقة فشعرت كأني غريب عن المكان، كحديث موت يتلمس خطواته المستكشفة في قبره. في صالة البيت وجدت هذا الاكتشاف الصغير الذي أعماني تَسَرُّعُ الصباح عن ملاحظته؛ كان عقب سيجارة مدهوس على الأرض. لمن هذه السيجارة؟! هل هالة تدخن السجائر الآن؟ أم أنها استقبلت في بيتنا زائرًا غامضًا؟ أهو رجل أم امرأة؟ أنظر إلى الأريكة الكبيرة في الصالة وأتساءل: أيعقل أن تكون تلك الأريكة احتوتهما؟ أيكون ما في كابوسي حقيقة تحدث كل يوم بجوار رأسي وأثناء نومي؟!

هربت من الأفكار السوداء إلى حجرة النوم حيث هالة غافية على ملامح براءتها وسكون جسدها. وقفت أتأملها وكأنما ألقي عليها نظرة وداع. أنا لن أضعف أو أتراجع؛ سأفعل ما انتويته، سأنفذ تهديدي يا هالة. نظراتي لها لم تحمل لي شجنًا أو دِفْءَ ذكريات، وإنما المزيد والمزيد من الغضب. بشكل ما أسعدني هذا، فربما يعني أني شفيت من حبي لها، وصار هيِّنًا عليَّ مبادلتها الجفاء بما يماثله. وربما أتجاوز الأمر إلى ما هو أبعد؛ إلى حد الخلاص منها. أخرجت هاتفي وتحدثت مع الموظف البدين لأبلغه برفضي العرض، وأطلب منه ملف السيدات الباحثات عن أزواج ملائمين. بدا صوته جافًّا جامدًا وهو يخبرني أن طلبي هذا لم يعد من اختصاصه، وأن عليَّ زيارة إدارة الشكاوَى في أي وقت. شكرته وأنهيت المكالمة دون أن أهتم حتى بمحاولة استشراف مشاعره تجاه ما أبلغته به، فأنا الآن كنت غاضبًا ولا أبالي.

كنت غاضبًا، حتى إني في المساء لم تكن لديَّ رغبة في النوم بجوارها، لولا الخشية من عقوبة النوم خارج الفراش. في هذه الليلة اندسست في فراشي مبكرًا، وكأنما أقطع أمامي أي سبل للتراجع أو للتصرف بتهور غير محسوب. قررت أن أقضي في الفراش الدقائق المتبقية على النوم منتظرًا. بدا لي لحظتها كتصرف ملائم، لكن ربما أنا مخطئ. ربما الأمر بشكل ما ينطوي على ترتيب قدري. وكأن اختياري دخول الفراش في هذا الوقت كان لهدف لا أعلمه لكن روحي تقودني إليه. ملل الانتظار، وغضبي منها، ورغبة متصاعدة ـ ربما كانت مدعاة ـ في تحقيرها، وارتجاف البدن حين ملامسة دفء جسدها الهامد. كل هذه خطوط صغيرة كانت تتسرب بين يدي كثعابين دقيقة التكوين، تتلاحم وتلتف حول نفسها في تضافر وتمازج، مكوِّنة حبلًا خشنًا يطوق رقبتي ويجذبني تجاهها. وقتها لم أفكر في حب، أو حتى رغبة، فكرت أنها طريقة ملائمة لوداع قائم على الاستهانة. كما استهانت هي بي، ستكون تلك طريقتي للاستهانة بها. كما خانتني في خيالاتي، ستكون تلك هي طريقتي لخيانتها؛ لخيانة حبنا ذاته. ستكون هي طريقتي لإعلان صامت لها ولنفسي أني توقفت عن حبها، وأنها ما عادت بالنسبة لي سوى شيء. هنا أتذكر تعبير سمير الذي سبق وأثار تقززي: وعاء للجنس؛ فأجده التعبير الأنسب لوصفها. الآن يا هالة أنت لم تعودي لي سوى وعاء للجنس.

تحركت نحوها منقادًا بعزم لن يوقفه شيء. ومددت يدي أرفع طرف ردائها، وأحسره عن بياض جسدها، فكانت تلك هي البداية. وبعدها كان الفعل التام الذي تغير عنده كل شيء.

***

عندما حانت ساعة الاستيقاظ فتحت عيني والصوت القوي يدوي في الحجرة. أول ما لاحظته أن هالة ليست في مكانها. وقبل أن أفكر فيما جرى لها أو أرسم أية احتمالات، كانت الملاحظة الثانية؛ هناك جملة مدوَّنة على اللوح المغسول. اعتدلت جالسًا لأتمكن من قراءتها. كانت جملة موجزة، حادة، بخط طال الاشتياق إلى رؤيته.. (لا تبحث عني أبدًا).. لم أفهم هل هو غضب أم شيء آخر؟! هل هجرتني؟! هل فهمت ما فعلته بجسدها النائم فقررت المبادرة بالرحيل؟ ولكن هذا مستحيل؛ فنومها خارج فراشها للمرة الثانية يعرضها لخطر الاعتقال. هل يمكن أن تكون قد خاطرت بنفسها من أجل الهرب مني؟ هل تكون فِعلتي الحقيرة هي السبب؟ في هذه اللحظات تبخر الغضب، وحل محله شعورٌ قاتمٌ بالإثم والندم.

دام معي هذا الشعور المقيت حتى منتصف النهار. كنا نواصل عملنا بعد استراحة الغداء بدقائق، حين دوت صافرة الطوارئ تأمرنا بالثبات، واقتحم رجال التحقيق المكان بملابسهم السوداء وأحذيتهم السوداء ورائحتهم السوداء، وهم يتجهون بخطواتهم الثقيلة الواثقة نحوي.

الجزء الثاني كابوس

كان الجهاز عبارة عن تطور تكنولوجي غير مفهوم للصليب الخشبي الذي كان يستخدم قديمًا للتعذيب. كنت منتصب الجسد في وضع وقوف مغتصب. مشدود القدمين إلى الجهاز بحزام جلدي خشن. وذراعاي مفرودتان على امتداد أفقي وكل منهما مكبلة بحزام آخر. ورأسي تغوص داخل وسادة جلدية ـ خشنة كذلك ـ مكبلة بطوق معدني يحاصر جبيني، وتتناثر منه الأسلاك، بشكل يوحي أن الأمر ليس مجرد صليب لتقييد البشر، وإنما هناك وظائف كهربائية أو ميكانيكية ما يؤديها هذا الجهاز. أول ما خطر ببالي هو مشاهد التعذيب بالكهرباء كما نراها في الأفلام القديمة. لكن الجهاز بدا لي أكثر تعقيدًا، بل وحتى أكثر بهجة بلونه الأحمر الزاهي.

لا أعلم كم مر عليَّ من الوقت وأنا مصلوب بهذا الشكل. لكني أعلم أن الألم صار لا يطاق، وصار يزحف على كل خلايا جسدي المشدود. كنت في حجرة خالية إلا من طاولة خشبية عارية في مواجهتي، يليها مقعدان خشبيان. بالتأكيد هو مجلس مُعَدٌّ لمن سيحقق معي؛ فأين هو؟ لماذا لا يحضر ويوجه لي أسئلته أو اتهاماته، لعل قَتْل خوف الترقب والانتظار يساهم في قَتْل ولو جزء من آلام الجسد.

بعد ساعات من الانتظار، فُتح الباب الوحيد ودخل عبره العطر الناري،

يتبعه رجلان يرتديان الملابس السوداء الأنيقة المميزة لرجال التحقيق. لكنَّ ملامحهما لم تكن بذات الصرامة والمهابة، وجسديهما لم يكونا بذات التكوين المثالي المنحوت عضليًّا. فأحدهما كان قصير القامة وكان يبتسم في وجهي أثناء دخوله. ألقى عليَّ تحية ودودة، قبل أن يجلس ويضع أمامه على الطاولة ملف أوراق. أما الآخر فكان أطول قامة، ولديه بطن عامرة بالدهون، وفي يده شطيرة يأكل منها. وهو يتخذ مجلسه بجوار زميله قال لي في تهذيب:

ـ أرجو ألا تمانع إن أكملت غدائي أثناء العمل.

لم أفهم إن كان يسخر، أم أنه بالفعل بحاجة لإذن مني؛ لإنهاء طعامه، لذلك لم أَرُدَّ. لكن القصير بذات الابتسامة الودودة قدم لي ما يشبه الإيضاح:

ـ مواعيد استراحة الغداء هنا في الوزارة مرتجلة وغير منتظمة. نحن هنا لا نمتلك للأسف الكثير من أوقات الراحة.

صمت وهو يتطلع لوجهي بذات الابتسامة. شعرت أنه يتوقع مني تعليقًا مشجعًا. فتمتمت بما معناه:

ـ كان الله في عونكم.

قصير القامة فتح الملف فلم تكن به الكثير من الأوراق. قرأ بعض البيانات من الورقة الأولى. ثم أغلق الملف مرة أخرى وعاد يتطلع إلى وجهي بنفس الابتسامة..

ـ الأمر بسيط يا أكرم. نحن فقط نريدك أن تخبرنا بكل ما تعرفه عن اختفاء زوجتك.

لم أتفاجأ بسؤاله، فقد كنت أتوقع أن يكون وجودي هنا مرتبط باختفاء هالة.

ـ أنا لا أعرف شيئًا.

قلتها كإجابة بَدَهِية متعجلة، فاتسعت ابتسامة محدثي..

ـ أنت بالتأكيد تعرف شيئًا.

كانت إجابته مرعبة، فأنا في وضع عاجز أمامهما، ليس لي من أمل سوى أن يصدقاني. لذا خرج صوتي مرتعشًا، ولجأت للأَيْمان المغلَّظة لتدعم كلماتي..

ـ أقسم بالله أني لا أعرف شيئًا. أقسم لكما أني لا أعرف متى ولا كيف ولا أين اختفت.

قضم الطويل قضمة من شطيرته، ولم يستطع أن يتمهل حتى يبتلعها، فقد كان راغبًا بشدة في الاستيلاء على دفة الحديث من زميله. لذلك قال بصوت مشوه بسبب امتلاء الفم بالطعام:

ـ أنت لم تفهم مقصدنا. نحن لا نطلب منك أن تخبرنا بمكانها. نحن فقط نطلب منك أن تخبرنا بما تعرفه عن الأمر. أية معلومات تعرفها قد تكون مفيدة.

كلماته ساهمت بشكل كبير في تهدئة روعي، فقد شعرت أن الأمر ربما مجرد تحقيق روتيني. بالتأكيد تقييدي بهذا الشكل لا يتوافق مع فكرة الروتينية، ولكن طريقتهما الودودة في استجوابي قد تدعم تلك الفكرة. لذا حكيت لهما كل شيء. تقريبًا كل شيء؛ فأنا بالتأكيد أهملت أي ذكر للمحامية، ولمغامرتي الصغيرة في التحايل على القانون وتدبير

حادث اصطدام رأس هالة. والأهم أني بالطبع لم أذكر حرفًا عما فعلتُه معها في نومها؛ ليس خوفًا من أية عواقب، وإنما؛ لأني صرت أشمئز مما حدث بمجرد أن أتذكره. ربما ما حكيته لهما ليس ذي شأن؛ مجرد حديث عن تغيرها تجاهي، وتوقفها عن استخدام لوح التواصل، وعودتها المتأخرة للبيت أحيانًا. وهي معلومات لم أدرك كيف يمكن أن تفيدهما، لكني أقسمت لهما على أنها كل ما أملكه، وهما أنصتا إليَّ بصمت وتركيز. كان الطويل قد أنهى شطيرته، وعندما ساد الصمت بعد انتهاء حكايتي، كان يبحث في جيبه عن منديل ورقي ليمسح يده. لم يجد، فمد يده لملفي يقتطع ورقة من قلبه ليمسح بها يديه وفمه، قبل أن يعتصرها بيده ويرميها على الطاولة مجعدة متهرئة!

ـ أنت إذن لا تعرف شيئًا تقريبًا.

قالها لي فأسرعت بالتأييد:

ـ هذه هي الحقيقة. أقسم لكما.

القصير محافظًا على ابتسامته اللطيفة قال:

ـ نحن نصدقك تمامًا. هل تعرف لماذا؟

صمت فهززت رأسي مستفهمًا، فأجابني الآخر:

ـ؛ لأن زوجتك أصبحت من المستيقظين. هل تعرف مَن هم المستيقظون؟

ضربتني كلمته بعاصفة ثلجية. أردت أن أصرخ بالإنكار، لكني اكتشفت أني بالفعل لا أملك علم اليقين.

ـ أنت تعرف أن الشريحة تتواصل معنا بمجرد نوم الشخص. وهكذا نتحكم في درجة عمق نومه ومدته ونبثه الأحلام الجميلة التي ننتجها

خصيصًا من أجله، والتي نصممها بناء على الخيالات والذكريات البسيطة التي تستطيع الشريحة أن تستخلصها من عقله.

استلم الآخر طرف الكلمات وأضاف لقول رفيقه:

ـ زوجتك اختفت. لم نعد نستقبل شيئًا من شريحتها. هل تعرف معنى هذا؟

عاد مسار الكلمات للآخر ليكمل في دوره:

ـ معناه أن زوجتك نزعت شريحتها بشكل غير قانوني. وهل تعرف من هم الذين يقومون بفعل إجرامي مماثل؟

تلقائيًّا وجهت نظراتي نحو الآخر، فقد أدركت أن إلقاء أحدهما للسؤال في نهاية حديثه، هي مثل إشارة لرفيقه بأن دوره قد حان للكلام! وبالفعل أكمل الآخر:

ـ جماعات المتمردين الرافضين لبروتكول تنظيم الوقت، والذين يطلقون على أنفسهم اسم: المستيقظون.

لم يختم حديثه بسؤال هذه المرة، فكان هذا يعني أن الحديث انتهى! وبالفعل ساد الصمت، واستمرت النظرات تحدق في وجهي طويلا وكأنما مُنتَظَر مني أن أقول شيئًا ما لكني لا أعرفه. في النهاية قلت:

ـ لكن هالة ليست من هذا النوع.

قال القصير:

ـ وكيف تعرف؟ أنت فعليًّا لا تعرف شيئًا عنها منذ عامين.

لأول مرة ترتسم على وجه الطويل ابتسامة، وهو يقول:

ـ وهذا ينقلنا لنقطة هامة. أنت بالفعل رجل يحب زوجته بشكل غير

مسبوق. ما تفعله في سبيل الحفاظ عليها يستحق أن يسرد في كتب الحكايات. يا رجل، ليتني كنت مكانك لأرتاح من زوجتي.

ضحك، وضحك رفيقه على دعابته، وضحكت بدوري مجاملة..

ـ لكنك كما تعرف؛ فموظفو الحكومة لا يسري عليهم بروتوكول تنظيم الوقت.

توقفت عن الضحك. شعرت بالمفاجأة برغم أن هذا هو ما قاله لي سمير من قبل. في الحقيقة أنا لم أتفاجأ مما قيل، وإنما تفاجأت؛ لأنه يقوله لي بهذه البساطة والأريحية! لماذا يعترف لي بأمر كهذا يفترض أن يكون سِرًّا؟!

ـ لا تتفاجأ، فالأمر منطقي تمامًا. إذا تناوب موظفو الحكومة على النوم واليقظة، فلن نجد عددًا كافيًا من الموظفين لرعايتكم.

ـ الحكومة للأسف تعاني من عجز في أعداد الموظفين.

ـ بعكس الشعب، فنحن نمتلك منهم عددًا زائدًا عن الحد.

انفجر الاثنان في الضحك، لكني لم أشاركهما هذه المرة، فأنا ما زلت أسبح ضد تيار أفكاري السوداء. في النهاية قررت الإفصاح عنها..

ـ ماذا سيكون مصيري الآن؟

توقفا عن الضحك، ووجها نحوي نظرات متسائلة وكأنما فاجأهما سؤالي، وكأنما الأمر بَدَهِي ولم يكن من المتوقع أن أستفسر عنه.

ـ حسنًا، كما قلنا من قبل، نحن نعرف أن لا شأن لك باختفاء زوجتك، وأنك بالفعل لا تعرف شيئًا عنها.

اتسعت ابتسامة القصير حتى بلغت حد السماجة، وهو يقول:

ـ الأمر الجيد أننا نصدقك ونعرف أنك إنسان شريف ولم ترتكب جرمًا.

أشار إلى صليبي المعدني الأحمر، وتابع:

ـ هذا الجهاز الذي قيدناك به يقوم بوظائف عديدة، فهو بخلاف قدرته على بث الألم في الجسد إلى حد تدمير الجهاز العصبي، فهو كذلك قادر على كشف الكذب وقراءة المشاعر. وهو يؤكد لنا في هذه اللحظة أنك صادق.

سارع الطويل بالتدخل مسابقًا أي احتمالات لتسلل الأمل إلى قلبي:

ـ ولكن. على أحدهم أن يدفع الثمن.

توقف قلبي عن النبض لجزء من الثانية، قبل أن يعاود العمل بوتيرة متسارعة وكأنما يعوض ما فاته..

ـ ماذا تقصد؟

تنهد الطويل مفرغًا شحنة حزن، ثم قال:

ـ أنت تعرف الأمر؛ الأوراق الحكومية، والروتين، وعددا كبيرا من الخانات الفارغة يجب أن يتم تسديدها. نحن لا نعرف مكان زوجتك، ولا مكان أي شخص من المستيقظين، وهو ما يشعرنا بالعجز والقهر، وهي مشاعر سلبية تعيقنا عن الحياة بشكل سليم.

هز القصير رأسه مؤيدًا وهو يقول:

ـ بالأمس صِحتُ في وجه طفلتي ذات خمسة الأعوام بسبب شيء تافه فعلته؛ أنا حتى لا أذكره حاليًّا.

بلهجة متعاطفة قال الطويل:

ـ لماذا؟ بالله عليك، إنها طفلة لطيفة!

أشار القصير نحوي وهو يقول:

ـ بسبب زوجته. لقد كنت أدرس قضيتها وإحساس العجز يخنقني.

واصل الطويل مخاطبة رفيقه:

ـ بالضبط. وهذا ما كنت أشرحه له الآن!

عاد بعدها يواجهني بنظراته وكلماته..

ـ ولهذا أتوقع منك أن تتفهم ما سنفعله بك.

أردت أن أقول أي شيء لكن لساني أصابه شلل تام. الرجلان نهضا استعدادًا للمغادرة. حمل القصير ملف الأوراق واتجه إلى الباب. كان عليَّ لحظتها أن أفهم، أن أسأل، لكن سؤالي كان عاجزًا مختزلًا:

ـ وأنا؟!

مط الطويل شفتيه..

ـ كما قلنا؛ على أحدهم أن يدفع الثمن. سنعتبرك من المتعاونين مع المستيقظين، وستقضي بضع سنوات في السجن. وصدقني نحن لا نهدف لمعاقبتك، وإنما نهدف لِأَنْ يفهم المستيقظون ـ أو أي من يفكر في الانضمام لهم ـ أن أفعالهم لها تبعات مأساوية تقع على عاتق أحبائهم.

أضاف القصير إلى كلمات صديقه:

ـ لكن لا تقلق. الأمر لن يكون سيئًا إلى هذا الحد، فأنت سوف تقضي معظم فترة سجنك نائمًا.

غادرا الحجرة وتركاني مصلوبًا على جهازهما البغيض، مكبلا بالخوف والقهر. بقيت هكذا لفترة لا أعلمها، حتى حضر اثنان من رجال التحقيق

وفكا وثاقي وأنزلاني عن الجهاز. كان جسدي متعبًا متيبسًا فلم أَقْوَ على الحركة أو حتى الانتصاب، فوقعت أرضًا. لم يمهلاني وقتًا، أمسكا كتفي وسحباني خلفهما على الأرض إلى خارج الحجرة. آخر ما لاحظته من الحجرة هو ذلك الجزء الأدنى من الجهاز؛ حيث تستقر قطعة أسطوانية من معدن مطلي باللون الأحمر. قطعة أعرفها جيدًا، فقد شاركت في صنعها؛ بل وراهنت بكل ما أملك على أنها جزء من مكنسة كهربائية. أدركت الآن أني خسرت الرهان، فبكيت.. بكيت كثيرًا.

***

كنت في الخامسة من العمر، أرتدي سروالا قصيرًا، وسترة منامة صيفية خفيفة، برغم صقيع الليل الذي يجفف عظامي. أجلس أمامها أرتعش في مزيج من برد وخوف، وهي لا تبالي. على ضوء الشمعة الصفراء الشحيح تقوم بمزج محتويات الطبق بملعقة خشبية. يبدو من الطبق لزوجة المزيج المقزز، وتطل رائحته النتنة، لكني مجبر على الأكل. تمد يدها بالملعقة نحو فمي، تسطع في وجهي عيناها الحمراوان، وتطلق من فمها زمجرة خفيفة مصحوبة بكشف عن نابيها البارزين، فآكل دون اعتراض أو إبداء لتقزز. أعرف ما سَيَلِي هذا، فقد مر به الكثير من الأطفال قبلي، وسمعته كثيرًا في حكايات جدتي؛ أمنا الغولة ستحتجزني وتطعمني لأيام حتى يسمن جسدي الهزيل، ثم تذبحني، وتترك جسدي مستقرًا في قاع القدر الكبير الذي دائمًا يحترق معدنه الأسود على لهب نار المدفأة، ويغلي في أحشائه نفس الطعام المقزز الذي تُطْعِمُنِيه.

فرغ الطبق، وتركني في حالة من الإعياء والقهر الصامت. مدت الغولة

أصابعها المخلبية تتحسس أجزاء محددة من جسدي، مختبرة مدى امتلائها باللحم والدهن. وبدا على وجهها رضا عن عملها، فجذبتني عن المقعد بعنف تقودني نحو الحجرة المظلمة التي ترتع بأركانها الفئران. كان خوفي من هذه الحجرة أكبر من خوفي من أمنا الغولة. تُذَكِّرني ـ كلما دخلتها ـ بوَجْفات القلب عندما كان المدرسون يهددوننا بالاحتجاز في حجرة الفئران، ونحن بعد أطفال صغار بين السابعة والثامنة من العمر. تُلقيني الغولة فوق الفرش الخشن الموضوع على الأرض، فأتكور على نفسي محاولا استدعاء النوم، متجاهلا أصوات الفئران، وحركتها الدؤوبة على جسدي، وعضَّاتهم المؤلمة لمؤخرتي. أبكي وأصرخ وأنادي على أمي.

تأتي أمي مسرعة وتضيء نور الحجرة. أعتدل جالسًا في الفراش وأنظر نحوها فتواجهني بنظرات غاضبة. تلعنني؛ لأني أيقظتها من النوم، وتحذرني من مزيد من الصراخ حتى لا أيقظ إخوتي المتناثرين على فراشين ملاصقين لفراشي. حاولت أن أخبرها بما حدث. حاولت أن أحكي لها عن أمنا الغولة وحجرة الفئران. لكنها هددتني بأن ينهش أبو رجل مسلوخة لحمي إن لم أغمض عيني وأنام حالا. غادرتني وأخذت معها الضوء. ساد الظلام، فارتجفت، وتدثرت بغطائي محاولا النوم. بعد لحظات سمعت أنفاسه الثقيلة تجول في الحجرة. ذات التوقيت المعتاد في كل ليلة، عندما ينامون جميعًا، ويسود الظلام الصامت. حاولت أن أكتم أنفاسي عَلَّه لا يهتدي لمكاني، فينهش أيًّا من إخوتي النائمين بدلا مني. لكن أصابعه الرفيعة الطويلة بدأت تتحسس جسدي، فأدركت أنه يقصدني. الغطاء بدأ ينسحب عن جسدي بالتدريج. تمسكت بجفني وشفتي مطبقين، فإن التهمني الآن فلا أريد أن أرى أو أصرخ حتى لا تغضب أمي. لكن كان

لابد وأن تأتي لحظة انفلات، لحظة يتحرك فيها الجسد معاندًا إرادتي؛ في هذه اللحظة تباعد جفناي واستعدت الرؤية فلم أَرَ شيئًا؛ كانت الحجرة خالية، ولا شيء سوى الظلام. كدت أتيقن من جنوني، لكني رأيته يقف في ركن بعيد مختبئًا في الظلام. طويل رفيع البدن كما توقعته، بذراعين طويلتين تبلغان الأرض برغم انتصاب قامته. يتقدم نحوي على ساقين طويلتين إحداهما حمراء داكنة بلون اللحم النتن. لم أستطع أن أقاوم، فكانت لحظة الانفلات الأخرى فصرخت.

جاءت أمي وقد فاض كيلها، يتبعها الكلب الأسود الضخم الذي كان يعينها على وضعي في حالة النوم وأنا رضيع. أعرف أنها لم تعد تستعين به منذ زمن، منذ أن جاوزت الرابعة من العمر وتسلم أبو رجل مسلوخة العمل الليلي الشاق، لذلك اندهشت أن الكلب الأسود لم يزل يرافقها. قالت لي صارخة: إنها ستترك الكلب هنا رابضًا عند قدمي، والويل لي إن لم أنم حالا.

في الصباح كنت مشوشًا بسبب عذابات ليلتي. لجأت للصمت والسكون في مكاني المنزوي في نهاية الفصل الدراسي، محاطًا بالمراهقين الشبقين الصاخبين المتفاخرين بالشوارب الرفيعة التي بدأت تخط تحت أنوفهم. والمدرس يدخل الفصل فيسود صمت الخوف، يلوح بعصاه الطويلة الثقيلة فوق رؤوسنا فننتظر معرفة تعيس الحظ الذي ستنال العصا من لحمه. كانت العصا تدور وتدور في الفضاء، تطال كل الأركان، وحتى ركني البعيد غير الآمن. لكن قبل أن تحط في مطافها الأخير، جاء رسول ينادي باسمي، معلنًا رغبة الـ HR في لقائي. تبعت الرسول في ردهة

طويلة باهتة حتى بلغنا حجرة مكتب هائلة الاتساع. كان عليَّ أن أقطع بداخلها مسيرة طويلة حتى أبلغ المكتب الخشبي عند نهايتها، ومع كل خطوة تزداد دقات القلب المرتجفة المتوجسة. بلغت المكتب فقابلني الرجل البدين بابتسامة عريضة، وفرد ذراعيه مستعرضًا بشكل مسرحي مرح..

ـ ترقية جديدة.

لم يدعني للجلوس. تركني واقفًا وهو يشرح لي دون تجميل ـ وفيما يشبه الأمر ـ رغبته في أن أشي بزملائي. استخدم معي كل أساليب التهديد؛ قوانين ولوائح، مضايقات في العمل، النقل لمكان بعيد، النقل لوظيفة أقل شأنا، وحتى الكلب الأسود وخيالات حجرة الفئران كانوا حاضرين في كلماته. تبولت على نفسي خوفًا، وخشيت أن تبلغه رائحتي، فضغطت بفخذي على ما بينهما محاولا كتم فعلتي! وقررت أن أنصاع. حكيت له كل شيء، ووشيت له بكل الأشخاص. حكيت له عن أمنا الغولة، ووشيت بأمي وكلبها الأسود، ووشيت بمدرسي وعصاته الطويلة. لكنه لم يُبَالِ، أو ربما كان من الممكن أن يبالي إن استمر الكابوس لوقت أطول. لكنها كانت اللحظة المحددة لاستيقاظي.

فتحت عيني على صوت المذياع العام يعلن موعد الطعام. نهضت جالسًا على فراشي، رأسي تدور بسبب طول النوم ربما. عندما زالت الغشاوة واستعدت قدرًا كافيًا من الإدراك، شعرت ببلل السروال، ففهمت أن تبولي لم يكن فقط في الحلم! لم يزل هناك وقتٌ على موعد الاستحمام الأسبوعي، ولا جدوى من المطالبة باستثناء من الحراس. عليَّ أن أتحمل

الإحساس المقزز حتى يجف البلل وأعتاد الرائحة. نهضت بصعوبة ووقفت أنتظر حتى فتح باب الزنزانة المعدني، فغادرت.

***

قاعة الطعام في السجن كانت تشبه مثيلتها في المصنع، حتى الوجوه كانت تشبه مثيلتها في المصنع. في أيامي الأولى هنا ـ منذ زمن لا يعلمه إلا الله ـ كنت أتنقل كل يوم من موضع جلوس لآخر، مفتشًا في الوجوه عن وجه أعرفه؛ ذلك الزميل من المصنع الذي أخذوه قبلي بأيام. كنت متعلقًا بأمل العثور عليه، كوجه مألوف يمكن أن نتكئ على بعضنا في تمضية الوقت وتبادل شجون الذكريات. لكن مع مرور الوقت أدركت أن حتى وجوده معي لن يُحدِث فارقًا. فما هي إلا دقائق صحو قليلة نقضيها في قاعة الطعام، ثلاث مرات يوميًّا، نلوك الأكل الرديء الذي نملأ به الثقوب السوداء التي تتسع في أروحنًا يومًا بعد يوم، من أثر الكوابيس الممتدة التي نعيش فيها أغلب الأوقات. وبعد العشاء نقضي دقائق إضافية في دورات المياه حتى نفرغ وساخات أحشائنا، ثم نعود للنوم الإجباري.

ذات يوم كنت جالسًا وحدي أتناول الطعام متناسيًا سعي البحث الفاشل، عندما حط بجسده الهزيل على المقعد المجاور لي. جلس يتأملني دون أن يأكل. كان نحيلا بجلد متهدل يوحي بعشرات الكيلوجرامات المفقودة، وعينين حمراوين، وشعر أبيض بالكامل. كان يبدو في السبعين برغم أن تقديري له أنه لم يبلغ بعد الأربعين. فاجأني بقوله:

ـ لن تجده.

سألته مندهشًا:

ـ من هو؟

ابتسم كاشفًا عن فم افتقد أسنانه بالكامل..

ـ من تبحث عنه بالطبع. أنا أراقبك منذ أول يوم لك، ولاحظت أنك تفتش في الوجوه. أنت بالتأكيد تبحث عن صديق أو قريب سبقك إلى هنا.

هززت رأسي..

ـ هو ليس صديق بمعنى الكلمة.

قال:

ـ على كل حال طالما لم تجده حتى الآن، فهو لم يعد هنا.

رفعت عيني عن طبق الطعام، وتطلعت إلى عينيه. كانت نظراته مشتتة، وحركة عينيه سريعة تدور في المكان دون توقف.

ـ هل هناك سجن آخر غير هذا؟

أفلتت منه ضحكة عالية لكنه سيطر عليها سريعًا وبترها بقسوة..

ـ لا أحد يمكث هنا لفترة طويلة. لا تستهن بما يحدث لنا. أن تقضي حياتك نائمًا، تعيش كابوسًا تلو الآخر، وتواجه في كل لحظة أسوأ مخاوفك. هذا يعني نهاية سريعة في أحد المصيرين.

مال بوجهه نحوي فلفحتني رائحة فمه الكريهة..

ـ الجنون أو الانتحار.

كدت أصارحه أن ملامحه وطريقة حديثه تنبئ بالفعل أنه بات على شفا مصير منهما، لكنني تراجعت؛ خوفًا من ثقل وقع كلمات كتلك على روحه المنتهكة، واكتفيت بالسماح له بمجالستي يوميًّا في مواعيد الطعام

الثلاثة. نتخذ ركنًا بعيدًا منزويًا عن العيون. ونتبادل أحاديثَ فيما يخص كلَّ تفاهات العالم. أو بمعنى أدق كان هو يتحدث وأنا أسمعه، منتظرًا اللحظة التي يأخذنا فيه الجنون أو الانتحار؛ لكننا صمدنا لوقت طويل.

في هذا النهار كنت أتناول الطعام بتمهل ومعاناة. لا أعرف هل صارت الملاعق أثقل أم صارت يدي أضعف. لكن الأمر كان مُجهِدًا بحق. حتى فَكَّاي ما عادا قادرين على ممارسة المضغ بذات القوة والسرعة. ربما هو التيبس العضلي الذي يسببه طول فترات النوم، لا أعرف. جاء رفيقي حاملا صينية طعامه وجلس بجواري صامتًا. كانت معجزة أن يمر هذا الوقت دون أن يفتح فمه. التفت ناظرًا إليه. كانت حركته مرتعشة ونظراته زائغة. انتبهت أنه صار أكثر نحولا عما كان، ولا أعرف كيف يمكن أن يَحدُث شيءٌ كهذا، فقد كنت أظنه بلغ منتهى النحافة. حتى خطوط العمر باتت على ملامحه أكثر عمقًا ووقاحة. كم مر علينا من زمن هنا؟ كيف يبدو شكلي الآن؟ لماذا لا يبدو أثرٌ للعمر على كلب أمي الأسود؟!!

ـ عندي خطة.

قالها بعد صمت فأخرجني من هواجسي.

ـ سأهرب منهم.

ـ كيف؟ نحن لا نعرف من السجن سوى هذه القاعة.

أشرت إلى باب القاعة البعيد الفولاذي، والذي ينتصب أمامه أربعة حراس أشداء.

ـ نحن لا نعرف ما ينتظرنا خلف هذا الباب.

ـ أنا لن أهرب من هذا الباب.

كان يتحدث بسرعة وحماس وبقايا الطعام تتناثر من فمه.

ـ هذه القاعة ليست هي السجن.

رفع قبضته المضمومة يطرق بها على رأسه بقوة..

ـ السجن هنا. أنا سوف أهرب من هنا.

ـ تهرب من رأسك؟!!

هز رأسه بحماس..

ـ بلى.

ـ وكيف ستفعل شيئًا كهذا؟

أشار إلى حيث النافذة المفتوحة على المطبخ، حيث الطباخ البدين الذي يمنح كل فرد منا صَحْفَةَ طعامِه..

ـ سأتسلل إلى المطبخ.. أسرق سكينًا صغيرًا. وفي موعد الاستحمام. حين أكون عاريًا تحت الماء البارد، بعيدًا عن أعين الحراس المتراخية. سأخرج السكين، وأقطع شقًا في مؤخرة رقبتي، وأنتزع الشريحة.

نظر إليَّ وعلى وجهه ابتسامة واسعة..

ـ سأفقدهم القدرة على التحكم بي. هكذا سأهزمهم.

ـ سيقتلونك.

اتسعت ابتسامته أكثر..

ـ لكني سأهزمهم. أتدري لماذا؟

مال نحوي وتابع هامسًا:

ـ لأني لم أُجَنَّ أو أنتحر. سأخرج من هنا مرفوع الرأس.

بدت لي خطته مجنونة. لم أشأ أن أقتل حماسه وأصارحه أن ما ينوي

فعله هو مجرد انتحار آخر. لكني تتبعت نقطة أخرى لفتت انتباهي في الأمر.

ـ وكيف ستتسلل إلى المطبخ؟ وكيف ستحمل السكين إلى الحمام دون أن يلاحظوا؟

استعاد الوضع الطبيعي لمجلسه. وضع ملعقة مليئة بالطعام في فمه. ابتلعها على مهل ثم قال:

ـ ما زلت أفكر في طريقة.

دوت الصافرة من المذياع العام، فتركنا الطعام وانتصبنا واقفين. الصوت الجهوري خرج من المذياع يحمل لنا التعليمات اليومية الروتينية التي حفظناها عن ظهر قلب. بعدها تابعنا وراءه سرد القَسَم الذي نتعهد فيه ـ بعد الغداء كل يوم ـ أن نصبح مواطنين أفضل وأن نعيش ما بقي من عمرنا نادمين على جرائمنا وأفعالنا. بعدها غنينا النشيد الوطني ثم بدأنا رحلة العودة إلى الزنازين الفردية.

دخلت زنزانتي وتمددت فوق الفراش على ظهري أتأمل السقف. هل كانت هذه البقعة موجودة من قبل؟ تبدو كبقعة بلل تنتهك البياض المحيط. لكن لماذا تبدو لي أقرب إلى رسم لوجه شخص؟ هل هذا حقيقي؟ ولماذا يبتسم لي الوجه؟ حاولت أن أنهض واقفًا لأقترب منه مستكشفًا، لكني اكتشفت أني مقيد بأحزمة جلدية إلى الفراش. حاولت التملص منها، لكنها كانت مشدودة وقاسية. نظرت إلى الوجه على السقف عاجزًا أبغي أي عون، فابتسم لي مرة أخرى وقال:

ـ لا تستسلم.

بعدها تحرك مبتعدًا. لكن مهلًا؛ أنا من أتحرك، الفراش كله يتحرك، والسقف يمضي فوقي في اتجاه معاكس، وأذناي يملأهما صوت عالٍ لصرير عجلات الفراش، وصوت خطوات تضرب الأرض بإيقاع الهرولة السريعة. رفعت رأسي مستكشفًا ما حولي، فوجدت طبيبي العجوز يبتسم في وجهي ويربِّت عَلَى كتفي مهدئًا..

ـ سيكون كل شيء على ما يرام.

استمروا في دفع الفراش حتى شعرت بنا نقتحم بابًا يقود إلى قاعة أكثر بياضًا، وأقوى إضاءة. وضعوني تحت كشافات الضوء الحارق. أربعة رجال أشداء فكوا وثاقي، وبأياد خشنة رفعوا جسدي ونقلوه إلى طاولة العمليات. ممددًا على ظهري، ولهب الإضاءة يحرق عيني. قاموا بتكبيلي في الطاولة بأشرطة جلدية متينة. والطبيب العجوز وقف بجواري يلبس قفازه المطاطي، ويبتسم في وجهي، ويقول:

ـ لا تقلق، فالأمر بسيط.

كدت أن أسأله عن الداعي للقيود طالما أن الأمر بسيط، لكن تصاعد الألم أعجزني عن النطق. كان الألم كشفرات حادة تمزق بطني، فصرخت. ربَّت الطبيب على كتفي..

ـ سيختفي كل شيء الآن.

لم أجد ما أفعله سوى أن أخرج من بين صرخات الألم حروفًا مستعطفة تشكل كلمات رجاء..

ـ ساعدني أرجوك.

كان الألم يعصف برأسي، ويعجزني حتى عن إدراك ما يدور حولي،

لكني برغم هذا شعرت بوخزة الإبرة وهي تُفرغ سائلًا ما في أوردتي. اعتدل الطبيب وبقي لفترة محدقًا في وجهي. يبدو أنه لاحظ أني لم أزل أتألم، فهز رأسه أسفًا..

ـ يبدو أن المخدر لن يجدي في حالتك. لكننا مضطرون لأن نبدأ، فيجب أن نخرجه من جسدك في أسرع وقت.

اتسعت ابتسامته وهو يضيف بنبرات هادئة:

ـ عليك فقط أن تتحمل.

ثم بدأ يشق بطني بمِشرطه. صرخت صرخة عالية، ولحسن حظي أن الألم تصاعد حتى أغشى عقلي، ففقدت الوعي.

فتحت عيني بعد لحظات أو أعوام. كنت لم أزل مقيدًا إلى طاولة العمليات، لكن الكشافات البيضاء مطفأة، وإضاءة القاعة باهتة، ولا شيء يرافقني سوى الصمت. كنت وحدي في المكان. نظرت حولي فلم أجد سوى الفراغ. رفعت رأسي لأرى باقي جسدي، فوجدت بطني مفتوحة على اتساعها. أطراف الجلد المقطوع مثبتة على الجانبين بمشابك معدنية، وأحشائي الدامية تبدو واضحة من التجويف الواسع. لكني لم أكن أشعر بأي ألم. فقط أشعر ببعض التقزز والكثير من الدهشة. سرعان ما انسحب مني الإحساسان حين تعالى في القاعة صوت بكاء طفل رضيع. صوبت نظراتي متتبعًا تجاه الصوت، فوجدت مهدًا لطفل، والطبيب العجوز واقفًا بجواره، يحركه في هزات رتيبة، ويداعب ـ بتعبيرات وجه مضحكة ـ الرضيع الباكي. لحظات ورفع الطبيب رأسه وواجهني بعينيه المرهقتين.

ـ لقد كان علينا أن ننتزعه من أحشائك قبل فوات الأوان.

لم أفهم ما يعنيه في البدء، كنت مخدَّرًا بكم الدهشة الزاحف على عقلي. نظرت إلى الطفل محاولا تبينه من بين قوائم المهد الخشبية المتقاربة. كان جسدًا دقيقًا، أحمر اللون، يتلوى على إيقاع صرخاته. لم يزل مكسوًّا بدماء أحشائي.

ـ يحتاج للنظافة.

قلتها بهدوء وواقعية، فهز الطبيب العجوز رأسه.

ـ سنفعل.

هنا فتح باب القاعة ودخلت هالة. تحركت بخطوات سريعة قوية نحو مهد الطفل. ناديتها:

ـ هالة.

لم تجبني وواصلت السعي نحو الطبيب المتيبس دهشة. حرك الطبيب جسده ليقف حاجزًا بينها وبين مهد الطفل، فمدت يدها إلى طاولة الأدوات وقبضت على المشرط الملوث بدمائي. بحركة سريعة ودقيقة ذبحت الطبيب، فسقط على الأرض وهو يغرغر والدماء تندفع من جرح رقبته نحو كل مكان.

ـ هالة. أنا آسف.

انحنت على الرضيع تلتقطه وتضمه إلى دفء صدرها. نظرت بتجاهي وقالت مرة أخرى:

ـ لا تستسلم.

تحركت بحملها نحو باب القاعة. ناديتها ملتاعًا:

ـ انتظري. حرريني.

توقفت واستدارت تواجهني..

ـ عندما تخرج من هنا ابحث عني.

قلت لها:

ـ لكنك طلبت مني قبلًا ألا أفعل.

ابتسمت فأضيء وجهها..

ـ يا أحمق، عندما تقول لك المرأة شيئًا فهي تعني عكسه.

قالتها وغادرت القاعة وتركتني أصرخ وأناديها.

تحت ماء الدش المنهمر بدأت أتخلص من أوجاع الجسد. تحسست جسدي العاري، كل مليمتر منه، فلم أجد أثرًا لجروح أو خياطات. ربما يعني هذا أني أفقت من كابوسي، وأني الآن بالفعل أقف في الحمام بجوار عشرات الرجال العرايا، نأخذ حمامنا الأسبوعي في ذات الموعد الروتيني، تحت الماء البارد صيفًا أو شتاءً. أنظر ذات اليمين وذات الشمال فلا أجد سوى الأجساد الخشنة التي يجمعها كلها النحافة وتهدلات الجلد الفارغ. ألتفت إلى الوراء فأرى الحارس عند باب الحمام يشيح وجهه المتقزز عنا. وراءه يبدو طابور من الرجال العرايا منتظرين تقدمهم لاتخاذ دورهم تحت الصنابير العالية. يتقدمهم صديقي، الذي واجه نظراتي بمثلها، قبل أن يبتسم ويغمز لي بعينه، غمزة لم أفهم معناها. استدرت معاودًا الانهماك فيما أفعله، متمسكًا بفكرة أن هذا هو ما يحدث حقًّا في واقعي، حتى يحدث ما يثبت لي أني في كابوس آخر.

بعد دقيقتين دوى في المذياع العام صافرة انتهاء فترة الاستحمام، فخرجنا من تحت الماء واتجهنا في طابور بطيء نحو ركن القاعة البعيد

حيث علقت المناشف الرمادية المتهرئة. في سيري مررت بجوار صديقي المتأهب لتلقي أمر الدخول تحت الماء. فمد يده يقبض على ذراعي ليرغمني على التوقف. ومال على أذني بكلماته الهامسة..

ـ لقد فعلتها.. السكين معي.

قالها وفتح كف يده بزاوية مخفية عن عين الحارس، فوجدته يقبض على سكين فاكهة ذي مقبض بلاستيكي أحمر، حجمه أصغر من كف يده. كنت مندهشًا، فلم أُبَالِ بتعطيل الطابور ورائي، وسألته بذات الهمس:

ـ كيف أخذته؟

ابتسم وقال:

ـ هذا هو أجمل ما في الأمر. لقد وجدته على فراشي عندما استيقظت.

تحولت ابتسامته لضحكة سعادة واستمتاع، امتزجت بصوت الحارس وهو يسبنا ويأمرنا بالتحرك. واصلت الطريق نحو الركن البعيد، تناولت المنشفة وبدأت أجفف جسدي، وعقلي يحلل الكلمات، ويحاول رسم صورة لما يشبه الحقيقة. كل المعطيات تقول: إني في كابوس جديد. فليس من معطيات الواقع أن يضع المرء خطة طفولية مجنونة، ثم في لحظة يجد أمامه مصادفة ما يسد أكبر ثغرتين في خطته؛ فجأة وجد على فراشه السكين الذي تمناه. سكين صغير ليمكنه من القبض عليه وأخذه إلى الحمام دون أن يلاحظه أحد. هذا لا يحدث في الواقع. الآن أنا أؤمن أن الكابوس مستمر. لهذا لم أبال في البدء عندما سمعت الصرخات. التفت إلى مصدرها كما فعل الجميع، لكني لم أتفاعل مثلهم. كنت أنظر كمن يشاهد خيالا يدور على شاشة سينما محايدة. كان صديقي يشهر السكين وينظر في وجه الحارس بتحدٍّ ويصرخ:

ـ الآن سأتحرر.. في وجهك.. سأفعلها في وجهك وأمام عينيك.. شاهدني.. شاهدني.

قالها ثم بدأ يمزق مؤخرة رقبته بالسكين وهو يصرخ بين ألم واستمتاع. حتى هوى على الأرض، وماء الاستحمام يحمل دماءه في كل مكان، وحتى موضع أقدامنا. نظرت إلى الحارس فوجدت على وجهه ابتسامة زهو، بينما ساد الهرج بين المسجونين، وتوترت الحركة، فتبادلت الأقدام ركل السكين الصغير فوق الأرض الزلقة، حتى استقر تحت قدمي تمامًا، ودون أن أدري سببًا ـ وفي غفلة من الجميع ـ انحنيت ألتقطه، وأطبقت عليه كف يدي، فاختفى بداخله عن الأنظار.

كنت أجلس لتناول طعام الإفطار. عدة فترات من أوقات الطعام مرت ولم يظهر الصديق. فكرت أن أسأل عنه الحرس لكني لم أكن أعرف له اسمًا لأضعه في جملة استفهامية مفيدة. اختفاؤه قد يعني أن ما رأيته كان حقيقة. أحاول مقاومة تلك الفكرة، فلا تكف عن مصارعتي. كيف تكون حقيقة؟ من أعطاه السكين إذن؟ أنظر نحو الحراس الأربعة الواقفين عند الباب الفولاذي. لا يمكن لشخص أن يتسلل إلى زنزانة سجين أثناء نومه سوى الحراس. هم إذن من أعطوه السكين. هم كانوا يعرفون ما يفكر فيه، يعرفون مخططه، ويريدون مساعدته على تنفيذه، فلماذا؟ بل وكيف؟ كيف عرفوا؟ هل سمعوه وهو يحدثني؟ هل قرؤوا أفكاره؟ التساؤلات كثيرة، وأمواج الحيرة عالية. كنت غاضبًا، نحن هنا لسنا فئران تجارب. بل نحن مجرد فئران تجارب. هذه الوجوه النحيلة حولي هي وجوه فئران، وتلك الأجساد المتآكلة الموصولة بأذيال طويلة مشعرة، هي

بالتأكيد أجساد فئران. وحتى أنا؟ هل أنا فأر؟ ألقي الملعقة من يدي، وأنهال برأسي كله على قطعة الجبن أمامي أقرضها بقواطعي الحادة البارزة. تبلغ أذناي أصوات ضحكات الحراس، فأسدد نحوهم نظرات البغض. أنهض عازمًا على وضع حد لما يحدث. أتحرك نحو الباب الكبير الذي لا نعرف ما وراءه. اعتدل الحراس في وقفتهم، تأهبوا لاستقبالي.

ـ ماذا يوجد وراء هذا الباب؟

تبادلوا النظرات ثم الابتسامات ثم القهقهات العالية. أفسحوا الطريق وأشاروا لي نحو الباب أن أتفضل. تحركت نحو الباب، ومددت يدي نحو المقبض البارد. أدرته فانفتح الباب دون جهد. وراءه كانت تبدو السماء بزرقتها، وبروز من صخر يمتد من الباب وحتى حافة السماء. خرجت من الباب وتحركت فوق صلابة الصخر الصاعد. كان قليل الارتفاع، لكن الأمر كان مرهقًا. بلغت منتهى الصخر فوجدتني أقف فوق حافة جبل شاهق، وتحتي تمتد السحب البيضاء الكثيفة. التفت ورائي فوجدت وجوه الحراس تطل عليَّ من الباب المفتوح محملة بابتسامات شامتة. أدركت الآن لماذا لا يبالون بإغلاق الباب، فالهرب من هنا مستحيل. عليَّ أن أكون طائرًا لكي أهرب من هذا الارتفاع. عندها رأيت طائرًا أبيض ضخمًا يجتاز السحب صاعدًا نحوي. كان يقترب بسرعة، لأدرك مع انكماش المسافة بيننا أنه حصان مجنح جميل الهيئة. يمتطيه فارس في دروع فضية لامعة، ويداري وجهه داخل خوذة يعلوها الريش الأحمر. بلغني الحصان، وحلق على ذات ارتفاعي. والفارس يأمرني:

ـ اقفز.

نظرت خلفي فوجدت الحرس يتحفزون، وعلى وجوههم قلق، فأدركت أن ما يحدث خارج مخططاتهم. كنت منذ لحظات على وشك الإيمان بأن لا شيء يصير خارج مخططاتهم، ولهذا كانت دهشتي عظيمة؛ وكذلك سعادتي. لم أتداول الأفكار لوقت طويل، وتركت نفسي لتيار الأحداث العجيبة وقفزت على الحصان وراء ظهر فارسه. عاد الحصان يقطع المسافات للأسفل، تعبر فوق رأسي طلقات رصاص الحرس. غاص الحصان وسط السحب الكثيفة، فكانت باردة ولها إحساس لطيف يدغدغ الجسد، حتى إني تبسمت مرغمًا. خرجنا من السحب نحو فضاء صاف هادئ. كنا نحلق فوق بحر وجبال وأشجار صنوبر عالية. كان إحساس الأمان يدفئني، ويبدو أن فارسي شعر بمثله، فتجرأ ونزع عن رأسه الخوزة، لتبدو أسفلها رأس فتاة جميلة، يتطاير شعرها وراءها ليحتويني. التفتت نحوي، تأملتْ آسفة نُحولي وضعفي، ثم تبسمت في وجهي وقالت:

ـ لا تخش شيئًا يا حبيبي. أنت معي الآن.

نظرت إليها مندهشًا، خجلا من مناداتها لي بكلمة (حبيبي). بدا وكأنما قرأت ما في عيني من كلمات غير منطوقة، فتجهمت ملامحها..

ـ ما بك؟ ألا تعرفني؟

صارحتها بالسؤال الأكبر:

ـ من أنتِ؟

توترت حركة الحصان في الهواء وبدا للحظة وكأننا سنسقط. تشبثت بفارستي، حتى استعاد الحصان التوازن وهدوء التحليق. جذبت الفارسة لجامه فحط بهدوء على الأرض فوق عشب زاهي اللون، يتقاطع خضاره

مع لون أبيض لزهور دقيقة متناثرة في كل مكان. هبطت الفارسة على الأرض في قفزة واحدة. بدت غاضبة وهي تروح وتجيء أمامي. توقفت ووجهت نحوي نظرات أشعرتني بالمسئولية عن ذنب اقترفته ولا أعرف ما هو..

ـ لقد قلت لك ألا تستسلم. وها أنت تنساني.

أردت أن أبدي اعتذارًا أو ندمًا، لكني لم أعرف ماذا أقول.

ـ أنا هالة.. هالة زوجتك.. انظر حولك.. لقد صنعت كل هذا من أجلك.. من أجلنا معًا.

كانت تدور حول نفسها وتشير إلى السماء والعشب والبحر والأشجار والطيور والورود البيضاء والحمراء، وحتى تلك الورود البنفسجية البعيدة. لكن الأرض في تلك اللحظة اهتزت تحت أقدامنا بعنف. توترت الفارسة..

ـ لا تنسني مرة أخرى.. ولا تستسلم أبدًا.. هل تسمعني.. لا تستسلم أبدًا.

كانت تكررها صارخة، وصوتها يبتعد عني أكثر فأكثر، ويتزايد مقدار ما يتبدد منه في الهواء، برغم أن المسافة بين جسدينا لم تزل كما هي.

فتحت عيني.. كنت ممددًا على الفراش في زنزانتي. فوق رأسي وقف اثنان من رجال التحقيق، ورجل ثالث يرتدي معطفَ أطباء أبيض. كانوا ينظرون إلى وجهي بتفحص وتدقيق. لم أبال، فربما هو كابوس جديد. أغمضت عيني واسترخيت في تمددي، محاولا تذكر ذلك الوجه؛ أين رأيته من قبل؟ وذلك الاسم ـ هالة ـ متى سمعته من قبل؟ لكن أصوات حديثهم المبهم كانت قادرة على تمزيق كل الشباك التي نصبتها لاصطياد الذكريات الشاردة.

ـ أنت تقول: إنه عاش في حلمه أحداثًا ليست من صناعتكم؟

ـ بالتأكيد، فنحن لم نصمم لهم سوى كوابيس. لكن ما عاشه الآن كان مبهجًا. لقد عرضت عليكم قراءاته العصبية، لقد كان سعيدًا في حلمه.

ـ وكيف يحدث شيئًا كهذا؟

ـ لا أعرف. ربما جزء من عقله يقاوم.

ـ بعد كل هذه السنوات؟!

ـ هل مررتم بشيء كهذا من قبل؟

ـ كلا. على الأقل ليس في فترة خدمتي. أنتما تعلمان أني حديث العهد هنا.

ـ وماذا عن السجلات؟ كل شيء مدون في السجلات.

ـ لقد راجعتها بالفعل ولم أجد أي ذكر لأمر مماثل.

ـ وماذا تقترح أن نفعل؟

ـ لا شيء في أيدينا لفعله. دعونا نعتبر أن الأمر مجرد شذوذ لحظي. وإن تكرر فسيكون علينا أن نجد ما نفعله.

ـ حسنًا. حتى يتكرر الأمر، لا أعتقد أنك يجب أن تذكر في السجلات شيئًا عنه.

ـ هذا صحيح. يجب أن تبقى السجلات في أحسن حال. هل تفهمنا؟

بعدها صمتوا وغادروا الزنزانة، فسعدت بقدر يسير من الاسترخاء، قبل أن يُعيدوني إلى كوابيسي.

كنت أجلس لتناول طعام الإفطار ـ أو الغداء أو العشاء ـ وعيناي لا تفارقان الحراس الأربعة وبابهم الفولاذي. هل العالم الذي صنعته هالة لم

يزل قائمًا خلف هذا الباب؟ ربما إجابة هذا السؤال تتعلق بحقيقة تلك اللحظة؛ هل أنا في واقع أم في كابوس؟ نهضت نحو الحراس عازمًا على العودة إلى هناك. أريد أن أكتشف المزيد من هذا العالم. أريد أن أعرف من هي هالة. لكن الحراس يتحفزون مع اقترابي منهم، يشدون قاماتهم، ويتخذون وضعًا متأهبًا متلاصقين. وعند مسافة خطوتين يشهرون هراواتهم في وجهي. أشير نحو الباب المخفي وراء أجسادهم..

ـ أريد أن أخرج من هنا.

دون كلمة، يرفع أحدهم هراوته ويحط بها على رأسي. أسقط على الأرض متألمًا، وأغيب عن الدنيا.

كنت أجلس وحدي في قاعة الطعام الخاوية. مر الطباخ متعجلًا، ورمي أمامي طبق طعام مغطى بغطاء معدني منتفخ. رفعت الغطاء عن الطبق فوجدت رأس صديقي مشوية، ومكان عينيه ترقد شريحتا طماطم، تسيل عصارتهما على خديه. أجفلت وسددت فمي بيدي حتى لا أتقيأ. نهضت إلى المطبخ عازمًا أن أشتكي للطباخ انحدار جودة الطعام. فتحت باب المطبخ ودخلت يسبقني الغضب، فوجدت جبلا من الأجزاء البشرية الدامية المتراكمة فوق بعضها، يعلو حتى يلامس السقف البعيد. رؤوس وسيقان وأذرع. تراجعت بظهري خائفًا. عدت إلى قاعة الطعام الخالية. تمنيت لحظتها أن أعود إلى زنزانتي، لكني لا أعرف الطريق إليها. ناديت الحراس، فلم يجبني أحد. قررت أن أجرب ذاكرتي وحظي وألتمس بنفسي طريق العودة للزنزانة دون معين. خرجت من قاعة الطعام إلى ممر طويل شبه مظلم. قطعت فيه مئات الخطوات فلم أبلغ نهايته.

شعرت بالإرهاق وأعجزني انهمار العرق على عيني عن الرؤية السليمة، فتوقفت ألتقط الأنفاس مستندًا إلى جدار الممر. سمعت صوت الخطوات الثقيلة الراكضة تتعالى من بعيد. نظرت إلى هناك، إلى الظلام الذي يبتلع النهاية المجهولة للممر. لحظات وتبينت حدود الجسد المندفع نحوي، ثم خرج من الظلام غول عملاق مُشعِر، يكشر عن أنياب بيضاء، تقطر منها دماء آخر ضحاياه. تناسيت تعب البدن وجريت هاربًا. كانت مطاردة شبه محسومة النتيجة؛ أنا بجسدي المكدود وساقي النحيلتين، في مطاردة للهرب من غول ضخم قوي البنيان خفيف الحركة. توقع النتيجة لم يكن بحاجة لأي حسابات خاصة، فقد كانت هزيمة ذلك البشري الهزيل حتمية. بعد بضع خطوات أدركني الغول بالفعل، قفز قفزة مهولة فحط بثقله فوق كتفي ليسقطني على الأرض وجسده يعتليني. فتح فمه أكثر كاشفًا عن المزيد من صفوف الأسنان المدببة اللامعة. زمجر متأهبًا لقضم رقبتي، لكن في هذه اللحظة دوت في المكان صرخة قتال حادة، وانقضت فارستي على الغول. نظرات الغول لانقضاضتها كانت بليدة غبية، نظرة من لم يتوقع مقاومة أو بذل جهد في الوصول لمسعاه. وهي أحسنت استغلال تلك الحالة الوقتية، فلم تمنحها متسعًا من الوقت لتمر؛ كانت انقضاضتها سريعة وطعنتها نافذة، تناثرت من الغول دماء سوداء على وجهي وملابسي، قبل أن يسقط على الأرض. نهضت مقاومًا إرهاق البدن والفارسة واقفة فوق الغول تنزع سيفها من صدره. مسحت الدماء عن سيفها في فراء الغول، ثم استدارت لي. جالت بنظراتها على جسدي في مسح سريع، فلما تأكدت من خلوه من الإصابات قالت:

ـ سيأتي المزيد. يجب أن نغادر حالًا.

لم أكن في حال يسمح بالاستفسار أو المناقشة، لذا تبعتها صامتًا. ركضَتْ في ممر تلو الآخر وأنا أتبعها. شبكة معقدة لكنها بدت لي تعرف كل شبر فيها، فتتحرك بثبات دون تردد أو إبطاء. في الطريق قابلنا غولين أو ثلاثة فصرعتهم. حتى بلغنا بابًا صغيرًا مختبئًا في عمق الظلام عند منتهى هذا الممر. فتحتِ الباب وانطلقتْ منه فتبعتها. ركضنا بين فروع أشجار متشابكة، نحاذر أن تجرح وجوهنا. غابة كثيفة يغطيها الثلج الذي يحتوي بنعومته ثقل خطواتنا، فيزيد من صعوبة الركض. لكننا سرعان ما خرجنا من تلك الغابة نحو عشبنا الأخضر الحبيب، الذي لم تنجح الثلوج في إخفاء بهائه، وإنما أكسبته شحوبة ناعسة ورقيقة. فوقنا السماء كانت صافية، تتوسطها شمس حنونة غير حارقة. توقفت الفارسة، فتوقفت بدوري. استدارت لي فانحنيت أعبُّ من الهواء بصعوبة، غير قادر حتى على الانتصاب. مشفقة قالت لي:

ـ نحن الآن بأمان. اجلس واسترح.

تركتُ جسدي يهوي على الأرض كما شاء. فتمدد مسترخيًا، ووجهي نحو السماء. كان صدري يعلو ويهبط بسرعة جنونية، وفمي يصدر حشرجة وتأوهات محاولا تجاوز آلام الصدر في تنفسه. وقفت الفارسة فوق رأسي تتأملني. ثم ضحكت بعذوبة، وقالت:

ـ ماذا فعلوا بك يا صغيري؟

هززت رأسي، وبعناء قلت:

ـ ربما أنا لم أعد صغيرًا.

هزت رأسها آسفة، وسألتني:

ـ هل تتذكرني؟

ـ أنت هالة.

ـ كيف تتذكرني؟

لما أجد بُدًّا من مصارحتها..

ـ أتذكرك من الحلم الماضي.

بدت حزينة؛ في عينيها التمعت دموع متمردة. كيف يمكن أن تبكي مَن صارعت الغيلان للتو؟!

ـ وماذا عن حياتك الماضية؟ ماذا عن حياتنا؟

قلت دون أن أدري إن كان وراء قولي كذب أم إيمان:

ـ سأتذكر. أعرف أني سأتذكر. هي فقط مسألة وقت.

رفعت نظراتها نحو الأفق. بدا عليها خوفٌ وهي تتراجع بظهرها وتقول:

ـ ربما ليس لدينا الكثير من الوقت.

رفعت نظري إلى ذات اتجاه نظراتها، فوجدت عاصفة عاتية من رمال سوداء تسعى نحونا بسرعة تفوق سرعة أفكاري، فلم تمنحني وقتا لتدبر أو تفكير. غمرتني العاصفة لتطمس العالم عن عيني، وتبعث في جسدي آلامًا كانغراس ملايين السكاكين.

من جديد كنت مصلوبًا إلى الجهاز الأحمر، وأحزمته الجلدية الخشنة تقبض على رأسي وأطرافي. كنت أخرج للتو من حالة الآلام، فلم أدر إن كان هو ذاته ألم الحلم، أم أنها آلام آلة التعذيب. أمامي كان يقف رجل التحقيق، يتأمل وجهي بنظرات حادة. لم يكن جالسًا. لم يكن مبتسمًا أو

متراخيًا. كان واقفا، حاد النظرات، وهو ما يعني أن الأمر حقا خطير..

ـ كيف فعلت هذا؟

حتى صوته كان يحمل غيظًا مختلطًا بخوف. أجبته:

ـ أنا لم أفعل شيئًا.

ـ اسمع؛ أنت وضعتنا في ورطة خطيرة. لكي نحضرك إلى هنا كان علينا أن ندون في السجلات ما حدث. وهي المرة الأولى في تاريخ هذا السجن الذي تُدَوَّن في سجلاته ملاحظة غير مُرضية. لذا عليك أن تتكلم.

كنت منهكًا، متألمًا، لا مساحة كافية في عقلي أو في جهازي العصبي لممارسة الألاعيب أو حتى للتحكم في منابت الأقوال..

ـ هي من فعلت هذا.

ـ من هي؟

ـ هالة.

تحرك مبتعدًا عني بخطوات عصبية. بنظرات تكسوها غشاوة بيضاء رأيته يتجه إلى طاولة قريبة، ويتناول من فوقها أوراقًا يقرأ منها، قبل أن يلقيها فوق الطاولة بحركة غاضبة، ويعود لمواجهتي..

ـ أنت تقصد زوجتك؟ المستيقظة؟

زوجتي؟!! هل أنا متزوج؟! منذ متى؟! أنا لا أتذكرها.

ـ هي في الحلم أخبرتني أن اسمها هالة.

ـ هل أخبرتك بمكانها؟

سألني بلهفة لم أفهم معناها، فأجبته بصدق وقح:

ـ أنت أحمق. أنا أتحدث عن الحلم.

سرى في جسدي ألمٌ حارقٌ هذه المرة، وكأني ألقيت فجأة في بحر من الحمم. لا أعرف كيف فعلها، فهو لم يلمس الجهاز، أو حتى يحرك إصبعًا. اكتفى بمشاهدتي وأنا أحترق، حتى ذهب تيار الألم الجارف، وتركني ألهث في إعياء ورعب. حينها قال:

ـ أنا أعرف أنك تتحدث عن الحلم. ولكن من قال: إن الأحلام ليست هامة؟ نحن قادرون على توليد أحلامك، قادرون على التحكم بها. فما أدرانا أن المستيقظين لم يكتسبوا ذات المقدرة؟ ربما ما يحدث في أحلامك هو اقتحام متعمَّد منهم. لذلك ستخبرني بكل كلمة نطقتها زوجتك في أحلامك. بل وبكل حرف، وكل إيماءة، وكل إشارة. هل تفهم؟

لم أكن أدري وقتها كيف أفعل شيئًا كهذا، فبالنسبة لي الذاكرة هي شيء هلامي غير مفهوم الأبعاد. مادة مشوهة لا أعرف كيف أمسكها أو أتعامل معها. لكني هززت رأسي موافقًا بحماس، فأنا مستعد أن أخبرهم بأي شيء، مستعد لأن أصيغ أكثر أكاذيب الكون إقناعًا، فقط لكي أخلص من هذا العذاب، وأعود إلى كوابيسي الحانية.

كنت أجلس أتناول الطعام. وكان هذا حلمًا جديدًا، أو واقعًا مكررًا؛ لا أدري، ولا أبالي. نظراتي كالعادة تخترق أجساد الحراس الأربعة حتى تبلغ الباب الفولاذي، حتى إني لم أنتبه لتغامز الأربعة بالرؤوس والابتسامات نحوي. ولم أنتبه لانفصال أحدهم عن الجمع والتقدم مني بخطوات واثقة هازئة. لم أنتبه له حتى جلس في مواجهتي، ليحط جسده الضخم بيني وبين رؤياي المحببة للباب الفولاذي، فيخرجني عنوة من تأملاتي

الشاردة غير المفهومة. تطلعت إلى وجه الحارس، فابتسم ابتسامة عريضة، سخيفة، وهو يقول:

ـ أنا وزملائي نحاول استكشاف السبب الذي يجعلك طوال الوقت لا تبعد نظراتك عن الباب.

ضحك هازئًا وقال:

ـ هل تفكر في الهرب؟

سألته:

ـ هل أنت واقع أم كابوس؟

قال دونما تفكير:

ـ أنا مثلك تمامًا.

قلت له قاصدًا المراوغة:

ـ أنت كابوس إذن.

انصرفت عنه إلى طعامي، فمد يده وجذب الطبق من أمامي حتى يحصل على انتباهي كاملًا. ماذا يريد مني؟ ولماذا يقررون الآن التواصل معي؟ رفعت نظراتي نحوه منتظرًا أن يفصح عما يريد.

ـ هل تعرف أني بسببك خسرت رهانًا كان سيدر عليَّ مبلغًا كبيرًا من المال؟

لم أجبه، وإن كنت أتمنى أن يكمل لأفهم ما يعنيه. وهو لم يقصر في هذا الجانب، فقد بدا وكأنما يتحرق للبوح..

ـ لقد اعتدت أنا وزملائي عقد المراهنات عليكم. بمجرد وصول أحدكم إلى هنا نضع رهاناتنا على المدة التي سيتحملها قبل أن يجن أو ينتحر.

والحقيقة أني خسرت رهاني عليك. الحقيقة أننا كلنا خسرنا. بالأمس فقط أنت تجاوزت أطول مدة اقترحها أحدنا، وبالتالي كلنا خسرنا. وهو موقف لم يمر بنا من قبل، حتى إننا فكرنا لوهلة أن نمنحك مال المراهنات، فأنت بالتأكيد تستحق.

اتسعت ابتسامته الساخرة. هل هو جاد؟ وبماذا ستفيده جديته؟ هل هو هازئ؟ ولماذا يهزأ بي؟ لماذا يتحدث معي؟ وماذا يتوقع مني أن أقول أو أفعل؟

ـ كم مر عليَّ من وقت هنا؟

هز رأسه..

ـ ليس مسموحًا لي أن أخبرك، لكنه بالتأكيد وقت أطول مما تتخيله.

نهض واقفًا وهو يتابع قوله:

ـ في النهاية اتفقنا على مخاطبة الإدارة لكي يسمحوا لنا بإقامة تكريم بسيط لك، احتفالا بصمودك الذي لا نفهم سببه.

قالها وابتعد. استوقفته محاولا كشف الحقيقة عن الافتراضات التي تتصارع في عقلي..

ـ ذلك السجين الذي قتل نفسه في الحمام.

توقف واستدار نحوي بنظرات مستفهمة وابتسامة واثقة..

ـ هل كان جزءًا من رهاناتكم؟

اتسعت ابتسامته، ولمعت عيناه بما يعني أني سألت السؤال الصحيح. ثم واصل ابتعاده دون مبالاة بإجابة حيرتي. الآن أستطيع أن أطرح فرضياتي كحقائق، أو أشباه حقائق، فلم يزل هناك احتمالٌ قائمٌ أني الآن أحلم؛

فقط أحلم. لقد عرف الحراس بما ينتويه صديقي بطريقة ما، وتراهنوا حول قدرته على تنفيذه، ولذلك منحوه السكين، ويسَّروا له الأمر، ليضعوه أمام مفترق بين طريقي الرهان. تُرى من منهم راهن على موته؟ من منهم كسب رهانه؟

فتحت عيني على صوت الصافرة من المذياع العام. على غير العادة كانت زنزانتي مظلمة تمامًا. نهضت جالسًا. تحسست الفراش والجدار بجواري لأتأكد من جغرافية المكان. بالفعل أنا في زنزانتي. لماذا الظلام؟ حتى يدي لا أتبينها. ناديت الحارس فلم يرتدَّ إليَّ سوى صدى الصوت. سمعت صوت تنفس عميق ورائي؛ هناك من يشاركني الفراش. قفزت محاولا هجر الفراش، لكن يد قوية قبضت على ساعدي ومنعتني من الحركة. وتسلل إلى أذني صوت هامس كالفحيح..

ـ لا تخف. إنه أنا.

تبينت صوت صديقي الراحل.

ـ كيف؟

تصاعد ذات الفحيح، وبحروف مضغوطة وإيقاع بطيء قال:

ـ لقد عدت من أجلك. عدت لأحررك بدورك.

حاولت أن أسحب ساعدي من يده لكن قبضته كانت قوية.

ـ لا تقاوم حتى لا تؤذي نفسك.

شعرت به خلفي، يطوق خصري بذراع قوية. صرخت، وحاولت أن أنسلت منه، لكنه كان أقوى من المفترض.

ـ مهما حاولت لن أستطيع أن أصف لك العالم خارج هذا المكان. يجب أن تراه بنفسك. فقط دعني أنزع عنك الشريحة.

لم أتوقف عن المقاومة، ولم يتوقف هو عن الكلام الهامس المتآكل، وكأنما يتمتم بصلوات ديانة لا يعلمها غيره.

ـ ستسعى بين المروج، ستنام على الأغصان، ستمتطي غيمات الصيف، ستتنفس عبق الزهور..

صرخت فيه:

ـ أنت كابوس.. مجرد كابوس.

كان هذا عندما شعرت ببرودة نصل سكينه تلامس مؤخرة رأسي. حاولت التملص، لكن الألم كان أسرع مني، فصرخت والألم يعبر في طريق طويل على جلدي ولحمي.

ـ ستأكل الرحيق، ستشرب أنهار الخمر، ستتسلق جبال الورود..

تصاعد الألم والخوف والظلام. لا أدري كيف يتصاعد الظلام، وكيف يصبح في مرتبة أعلى من كونه ظلامًا! لكني لم أجد متسعًا من الوقت لتأمل تلك الأفكار الطارئة..

كنت جالسًا أتناول الطعام. أو أدَّعي أني أتناول الطعام. أو ربما كنت وقتها حتى غير مُبالٍ بِادِّعاء تناول الطعام. كنت أنظر للطبق أمامي دون حراك. الطبق ممتلئ، والقاعة حولي شبه خاوية. أدور بنظري في كل الأركان؛ هل هؤلاء فقط هم كل المسجونين؟ كان العدد قليلًا جدًا، لم يبلغ العشرين. أين البقية؟ هل غادروا؟ هل ماتوا؟ يهيأ لي أنه كلما خلت تلك القاعة، ازدحمت ـ في المقابل ـ القبور وعنابر المجانين. قريبًا لن يبقى غيري. لكن من قال: إني سأبقى؟ لماذا أتعامل وكأني بالفعل أمتلك تلك الحصانة المدهشة، والقدرة على الصمود؟ أَلِأَنَّ الحرس قالوا لي هذا؟

وما أدراني بصدقهم؟ بل ما أدراني بحقيقتهم؟ أعدتُ نظراتي إلى الطبق فوجدته خاليًا! هل كان ممتلئًا قبلا؟ هل أكلتُه؟ أم أن الطعام مل مني فغادر؟ يد كبيرة مُدت على الطبق لتسحبه من أمامي، وفي مكانه وضعت طبقًا صغيرًا به قطعة حلوى غير واضحة الحدود. رفعت عيني فوجدت الحراس الأربعة أمامي، يبتسمون..

ـ احتفال بسيط بنجاحك.

قلت لهم: «**وهل الصمود نجاح؟ هل البقاء إنجاز؟**» تأملوني بنظرات متسائلة، فأدركت أني لم أنطق بحرف. قلت لهم: «**اللعنة عليكم وعلى حلواكم. خذوها واغربوا عن وجهي.**» لكنهم لم يتحركوا، أو تتبدل طبيعة النظرات. فأدركت أن فمي لا يتحرك، وأن الكلمات لا تتجاوز حدود مناطق التفكير. صرخت فيهم: «**اللعنة عليكم، ماذا فعلتم بي؟**» نظروا إلى بعضهم وارتسمت في أعينهم مسحة من الحزن. أكثرهم حزنًا قال لرفاقه:

ـ ليتني أطلت مدى الرهان ليومين، لكنت فزت عليكم. لقد بلغها الآن.

قالها وهو يشير إليَّ باستهجان. فأجابه رفيق:

ـ إنه لم يبلغ بعدُ أي مكان. فهو لم يزل هنا؛ لم يمت. ولا يبدو لي أنه جُنَّ.

قال آخر:

ـ انظر إلى عينيه. نظراته. جسده الجامد. هذا نوع من الجنون قرأت عنه قديمًا في كتاب؛ له اسم ما، لكني نسيته.

تجاوزت غطرستهم قدرتي على التحمل فصرخت فيهم: «**عم تتحدثون أيها المعاتيه؟ أنا لم أُجَنَّ بعدُ. أنا لم أزل أدرككم، وأشعر بكم. لم أزل قادرًا على التأمل والتفكير. لكني فقط لا أستطيع أن أنطق. بل إني لم أزل قادرًا على**

الفعل والحركة. انظروا. انظروا إليَّ وأنا أنهض.» قمت واقفًا فعادت نظراتهم تتأملني. «**انظروا إليَّ. انظروا إليَّ وأنا أمشي، وأنا أركض.**» جريت مبتعدًا عنهم. اتجهت نحو الباب الفولاذي المتروك بلا حراسة. كنت أريد فقط أن أثبت لهم أني قادر على الحركة، لكن يبدو أن فعلي استفزهم، فطاردوني. قبضت على مقبض الباب وأدرته. انفتح الباب فكانت وراءه مرآة تسد الوجود. سطحها يتموج بنعومة وكأنه من الماء. لكنه كان بالصفاء الكافي لأراني. أو بمعنى أدق؛ أراه. هذا الواقف ليس أنا. هذا رجل عجوز. الشعر الأبيض المتساقط، وتجاعيد الوجه، وانطفاء الأمل في العينين. صرخت:

ـ لقد صرت عجوزًا.

خرجت صرختي من فمي هذه المرة. لحظتها أدركوني، طرحوني أرضًا وتكالبوا عليَّ، يُطعمون لحمي لأحذيتهم وهراواتهم. وأنا لم أتوقف عن الصراخ..

ـ منذ متى وأنا هنا؟ منذ متى وأنا هنا؟

لكن لم يجبني أحدهم. حتى غبت عن الوعي. أو ربما استعدت الوعي، فأنا لم أعد أدري متى ينتهي الكابوس أو يبدأ.

***

استعدت الوعي على شعور احتكاك بطني بالأرض. كان حارسان يقبضان على قدمي ويسحلانني وراءهما وأنا منكفئ على وجهي. تحملت الألم في انتظار لحظة الوصول. لكل ألم نهاية، ولكل طريق محطة وصول. عليَّ فقط أن أصبر وأتحمل. كان الممر طويلا. مكان لم أره من قبل في السجن. لكن الأمر لم يُثِرْ فضولي. فقط أتحمل وأصبر. أدخلاني إلى حجرة

وتركاني على أرضها وغادَرَا. دوَّى صوت انغلاق الباب، أعقبَتْه دون تمهل صرخة تحمل غضبًا..

ـ كيف تفعل كل هذا؟

اعتدلت جالسًا على الأرض. لكن البدن كان محطمًا عاجزًا عن الاستواء السليم، فبدا جلوسي أقرب لاضجاع مؤلم. لكني تمكنت من التواصل معه بنظراتي. كان نفس رجل التحقيق الذي قام بتعذيبي في كابوس سابق، أو ربما في حياة أخرى.

ـ المساجين يتحطمون تمامًا قبل أن يبلغوا نصف المدة التي قضيتها أنت هنا. ولكنك تصمد. بل ولم تزل بعد كل هذه السنوات قادرًا على المقاومة، إلى درجة القتل.

قالها وألقى أمامي على الأرض سكينًا صغيرًا ملطخًا بالدماء. نفس السكين الذي حرر به صديقي نفسه..

ـ من أين حصلت على هذا السكين؟

قلت له:

ـ هذا ليس سكيني.

هز رأسه في غيظ، ثم مد يده في جيبه وأخرج جهازَ عرض صغيرًا. عبث بشاشته قبل أن ينحني فوقي ليريني الصور المعروضة على الشاشة. كان تصوير فيديو من كاميرا المراقبة في الحمام. كان بإمكاني أن أرى صديقي وهو يستحم وسط صف الرجال العرايا. وبعد ثانيتين كان بإمكاني أن أراني وأنا أنقضُّ عليه من الخلف ممسكًا بالسكين. وفي اللحظة التالية كان بإمكاني أن أراني وأنا أقطع مؤخرة رقبته بتمرير سكيني عليها مرة تلو

الأخرى تلو الأخرى، والحرس يهجمون عليَّ ويحاولون إبعادي عنه. رجل التحقيق أطفأ جهاز العرض وأعاده إلى جيبه..

ـ لماذا قتلتَه؟

قلت بلامبالاة:

ـ لأن هذا مجرد كابوس.

تمددت على ظهري ناظرًا للسقف في استرخاء. لم يكن يبلغني منه سوى صوته..

ـ لا تتذاكَ عليَّ. ما فعلتَه لم يحدث من قبل في تاريخ هذا السجن، أو في تاريخ أي من السجون التي نديرها. وفي الوزارة ينتظرون مني تقديم تقرير واف، فعليك أن تتكلم الآن.

قلت محافظًا على اتجاه النظرات، مستمتعًا باللعبة الجديدة:

ـ في يوم ما سأسعى بين المروج، سأنام على الأغصان، سأمتطي غيمات الصيف، سأتنفس عبق الزهور..

قاطعني:

ـ ما هذا الذي تقوله؟

أجبته:

ـ هي صلاة تعلمتها من صديق.

سألني بسرعة، وكأنما هو مطلع على ما في ذاكرتي:

ـ أهو ذات الصديق الذي قتلتَه؟

هززت رأسي:

ـ صديقي لم يمت، صديقي تحرر.

ساد بعدها صمت مفاجئ. انتظرت منه أي تعليق حاد، لكنه لم يُصدِر صوتًا. لما طال الصمت توجست، فرفعت رأسي أرسل نظرات الاستكشاف. كانت الحجرة خالية إلا مني. أين ذهب؟! تحاملت على الجسد المنهك ونهضت واقفًا أستكشف أركان الحجرة. ليس هناك سواي وأربعة جدران؛ وهو ما أعنيه حرفيًّا، فحتى الباب لم يكن هناك. مجرد جدران أربعة مصمتة! على أحدها عُلِّقت ساعة حائط دائرية، يتحرك عليها عقرب الثواني برتابة. تحسست الجدران، كل مليمتر منها، لأتأكد أنه ليس ثمة باب مخفي. لكن الأمر كان يزداد وضوحًا مع الوقت وتقدُّم السعي. أنا بالفعل محبوس في تلك الحجرة العجيبة. جلست على الأرض، وأسندت ظهري لجدار. ليس أمامي سوى انتظار الصحو. قريبًا سيدوي صوت الصافرة في المذياع العام ليوقظني، فليس عليَّ الآن سوى تمضية الوقت. يمكن أن أسلي نفسي في تخيل طبيعة العذاب الذي قد أواجهه في كابوس كهذا. كابوس لا يحدث به أي شيء؛ فقط أنا وصوت تكات الساعة والحجرة الصغيرة. لكن ربما كان هذا هو العذاب؛ أن أبقى وحدي، أنا وصوت تكات الساعة والحجرة الصغيرة! حاولت تخيل مرور الأعوام بوضع كهذا، فوجدت الأمر بالفعل عذابًا أليمًا. خاصة مع وجود الساعة التي تجعل لمرور الوقت وقعًا بطيئًا كئيبًا. ربما كان في يدي ما يمكن أن أفعله لكي أجد الباب المخفي، لكني لم أزل هادئًا، متراخيًا، لا مباليًا. فليحدث ما يحدث، طالما في دقيقة محددة سلفًا، سينطلق المذياع العام لينهي كل شيء.

أصابني طول الاسترخاء بالنعاس، فتمددت على الأرض ونمت. استيقظت بعد مدة لا أعلمها لأجد كل شيء كما هو. أعترف الآن أن

القلق وقتها وجد طريقه لخلايا العقل والروح. الأمر ليس قابلا للتلقي الهازئ أو المتراخي. الأمر فعلا مُقبض وثقيل عل النفس. نهضت إلى الساعة محاولا أن أنزعها عن الجدار لكي أجد طريقة لإيقافها. لكنها كانت مثبتة في الجدار بمتانة أرهقت قواي دون جدوى. تركتُها وعدت مرة أخرى أتحسس الحوائط دون نتيجة تُرجَي، حتى عدت لنقطة انطلاقي، فعاودت الجلوس على الأرض. طالت الجلسة هذه المرة حتى تمزقت خيوط قدرتي على التحمل. نمت عدة مرات واستيقظت. الغريب أني لم أشعر ولو للحظة واحدة بجوع أو عطش أو حتى برغبة في قضاء حاجتي. فقط الملل، والمزيد والمزيد من الملل. وهو ما يؤكد لي أكثر أني في كابوس وسأصحو منه. ولكن متى؟ هذا هو السؤال.

لِكَمْ من الوقت سأتحمل تلك الوحدة وهذا الفراغ؟ إلى متى سأتحمل صوت الساعة الوقح المستفز؟ لماذا يحرصون الآن على وضع مقياس الوقت هذا أمامي، بعد زمن من المرور العشوائي للوقت دون حساب؟ لأن هذا هو العذاب بالتأكيد. تلك الساعة هي عدوي الأول في هذه اللحظة. لماذا أكتفي بمحاولات فاشلة لإسكاتها؟ ربما عليَّ أن أحطمها. أدمرها تدميرًا. نهضت إلى الساعة من جديد أضربها بقبضة يدي مرات. سالت الدماء من لحمي وعظامي، والساعة لم يصبها سوى شرخ بسيط، لكنه كان كافيًا ليخبرني أن ثمة جدوى ما مما أفعله، فقررت المواصلة. كادت قبضتي اليمنى أن تتمزق ألمًا، فأوكلت ما بقي من المهمة إلى قبضتي اليسرى. ضربة ثم ضربة ثم ضربات كثيرة متلاحقة، تصحبها صرخات تُقويني وتُعينني على تحمل الألم. في النهاية تحطم زجاج الساعة، ومددت يدي بداخلها أنتزع

العقارب والأرقام، ثم انتزعت اللوح الخشبي الرقيق المصنوعة منه قاعدة الساعة، حتى بدا أمامي ما خفي عني من الجدار. وفي وسطه وجدت ثقبًا صغيرًا كأثر لمسمار كان مغروسًا في الحائط منذ زمن فات. بدا لي ثقب المسمار كطاقة أمل ضئيل. مددت يدي أعبث بأجزاء الساعة المتناثرة تحت قدمي، حتى عثرت على العقرب الأكبر. قضيب معدني ثقيل، له طرف مدبب يصلح كسلاح أو كأداة للحفر. غمست الطرف المدبب في الثقب الصغير، وبدأت أكحت به جوانب الثقب لأوسعه. أعرف أنه جهد شاق، ووقت طويل، لكنه الأمل الوحيد.

جلست في مكاني متعبًا بعد وقت طويل من الجهد. وأمامي ثقب المسمار أصبح حفرة في حجم قبضة يدي. بدا لي كإنجاز إعجازي يستحق الاحتفال. لكني لم أكن أمتلك أي أدوات للاحتفال سوى ذاكرة متآكلة، وخيال معطل. لكني حين نمت رأيت في المنام أني أحتفل بعيد زواجي، أمامي كعكة وشمعة منحوتة على شكل أول الأعداد، ووراءها وجه جميل يبتسم لي. وجه مموه غير واضح المعالم، وصوت قادم من أعماق الجنة يخاطبني..

ـ كل عام وأنت معي.

كنت أبتعد بسرعة عن المشهد وأنا أحاول التركيز مغالبًا الضباب لأستكشف ملامح الوجه. لكني استيقظت وقد بقي في روحي جزء من جمال حضورها، فنهضت إلى العمل مشحونًا بالمزيد من إرادة الحياة. عدت إلى الثقب أوسعه أكثر وأكثر حتى بلغ قطرًا يتسع لرأسي تقريبًا، لكنه لم يبلغ بعد العمق الكافي لكي ينفذ من الناحية الأخرى للجدار. كنت

متعبًا، مدركًا أن الكثير من العمل لم يزل ينتظرني. نمت من جديد فرأيت عينيها هذه المرة واضحتين بصفائهما. كانت تحتويني بين ذراعيها، وكنا في حالة عشق صاف وانفصال عن الكون وعن الحياة. شعرت أن عينيها مألوفتان، أعرف هذا البريق، وهذا الاتساع، وهذا العمق الجارف. لقد رأيتهما من قبل ولا أتذكر أين. كنت أحفر في الجدار وأحفر، والخيال يتداول مظهر عينيها، ويفتش في الذاكرة عن مسكنهما. عدت أحفر حتى أَدْمَتْ حَوَافُّ العقرب يدي. استهلكت مساحات من جلد الكفين في جروح وخدوش، فتركت الحفر متألمًا وعدت إلى النوم. انتظرت رؤية جديدة تكشف المزيد من تفاصيل سيدتي الغامضة. لكن في المنام هذه المرة رأيتها واضحة بملامح جلية. كانت أسفل مني نائمة، وكنت أنتهكها عُنوة. نهضت من النوم وقد تذكرت كل شيء. لقد كنت متزوجًا بالفعل. هالة هي الزوجة وهي فارسة الكوابيس. تذكرت ما فعلته بها فصرخت. نهضت أطرق الجدران بقوة وأصرخ مناديًا من يحررني. كنت مهتاجًا ثائرًا. لا أعرف عمن أبحث، أو أسعى بنداءاتي المستغيثة. لكن ربما كان هناك أحد خارج هذه الجدران ـ أو داخلها ـ قادرًا على مد يد العون وإغاثتي. سمعت صوت الاحتكاكات بالجدار، فالتفت إلى الحفرة فوجدت يدًا رقيقًا تعبرها من الاتجاه الآخر. أعقبها عبور اليد الأخرى. كفان قويتان قبضتا على جانبي الحفرة ليزيداها اتساعًا، حتى تمزق الجدار بالكامل أمام إصرارهما. دخلت الفارسة ملفوفة في دروعها. وجهها مكشوف عن الملامح التي صرت أعرفها يقينًا. ركعت أمامها أرجو منها العفو. أمسكتْ كتفي؛ لأنهض مستويًا أمامها..

ـ لا عفو ولا خصام بيننا. أنا أنت وأنت أنا.

ـ ما فعلتُه لا يغتفر.

ـ ما فعلتَه من سوء إنما فعله شيطانك، فلا تعتذر أنت عنه ولا تتحمل خطاياه.

من نِطاقها أخرجتْ سيفًا قويًا. أدارته في يدها ومدت نحوي مقبضه..

ـ خذه. لقد حان وقتك.

أمسكت السيف مترددًا. أخرجت هي من ذات النطاق سيفًا آخر..

ـ ستقاتل إلى جانبي حتى تخرج من هنا.

أصابتني كلماتها بكل خوف العالم. كنت أتماسك خشية أن تلاحظ ارتجافاتي، واكتفيت بهزة رأس موافقة، دون أن أغامر بكلمات تحمل لأذنيها آثار خوفي وترددي. فابتسمت في وجهي مشجعة، ثم قالت:

ـ اتبعني.

خرجنا عبر الفجوة في الجدار إلى ممرات سوداء، قطعناها راكضين. قاتلنا في طريقنا كل الحراس والكلاب السوداء، والغولات المتعطشات لدماء الأطفال، وكل ذوي السيقان المسلوخة. من الخوف والارتجاف انتقلت ـ بأسرع مما تصورت ـ إلى الاستمتاع والإثارة. كان إحساسي بانغراس السيف في لحم أعدائي هو أفضل إحساس ساورني منذ ميلادي؛ حتى إني تمنيت أن تدوم تلك اللحظة للأبد ولا نبلغ محطة الوصول. لماذا أسعى إلى منتهى الهرب، طالما أن الفعل في ذاته ممتع إلى هذا الحد؟ لكن كما قلت من قبل؛ لكل شيء نهاية. ولم أكن أعرف أن نهاية هذا الحلم ستكون هي ذاتها نهاية كل الأحلام.

فتحت عيني على صوت ينادي بإصرار، ولطمات كف خشن على وجهي..

ـ استيقظ يا هذا. ألم تكتفِ من النوم طوال تلك الأعوام؟

قالها بنبرات ساخرة. فتحت عيني ببطء محاذرًا من الاحتراق بضوء الزنزانة الساطع على غير اعتياد. كان شابًا صغيرًا يشاركني فراشي بجلسة مرتجلة على طرفه. عندما واجهته بعينين مفتوحتين ابتسم في وجهي..

ـ حمدًا لله على سلامتك يا بطل.

افترضت ضمنيًّا أنه حلم جديد، فلم أبالِ. أرسلت نظراتي إلى ما وراء كتفه، حيث وقف شاب آخر في ذات عمره يُمسك ملف أوراق مفتوحًا بين يديه ويقرأ منه:

ـ يا إلهي.. هذا الرجل أسطورة.

نهض الشاب الأول ليقف بجوار رفيقه مرسلا نظراته إلى قلب الأوراق..

ـ كيف؟

قال الشاب الثاني بحماس:

ـ انظر كم مر عليه من وقت هنا؟ هناك كذلك تقارير تحكي عن صموده، ومحاولاته المتكررة للهرب عبر باب المطعم. انظر إلى هذه الورقة. لقد أظهر شذوذًا دائمًا أثناء الكوابيس جعلتهم يعترفون بفشلهم في السيطرة التامة على عقله. تخيل هذا؟

الشاب الأول مد يده ينتزع ورقة من الملف يقرؤها باهتمام زائد..

ـ يا إلهي. هل هذا اسمه؟ أكرم صفوت؟

أكرم صفوت؟!! أكرم؟!! هذا الاسم أنا أعرفه. من كابوس قديم ربما. أكرم. لم أسمع هذا الاسم منذ أزمان بعيدة. ماذا يعني هذا الاسم؟ ماذا تعني كل الأسماء؟ الأمر له علاقة بكينونة متفردة. ولكن ماذا تعني

الكينونة؟ وماذا يعني التفرد؟ لماذا تتزايد الأسئلة خلال اللحظات التي أشعر فيها أني اقتربت من الحصول على الإجابات؟!

ـ إنه هو؟!! هو من يبحث عنه نوح.

ـ حتى نوح لم يتوقع أن يجده على قيد الحياة. إنها معجزة.

ـ سأذهب لإخباره.

استدار الشاب مغادرًا الزنزانة. ومع استدارته رأيت البندقية الآلية المعلقة على ظهره. لماذا هو مسلح؟ هو لا يبدو لي كجندي، فهو لا يرتدي مثلهم. هذه المرة كان عندي قدر من القوة لتشكيل الحيرة في كلمات..

ـ من أنتما؟

اقترب الشاب مني ومسح على رأسي بحنان:

ـ نحن هنا لتحريرك. لقد سقط السجن في قبضتنا. البلد كلها سقطت في قبضتنا. قبضة الحرية.

كانت كلماته أقرب لشعارات محفوظة، لا تحمل من المعلومات بقدر ما تحمل من روح الحماس الشابة المنطلقة، لذلك لم أفهم منها أي شيء!

ـ ومن أنتم؟

اتسعت ابتسامته فخرًا..

ـ نحن المستيقظون.

***

كنا نتحرك في طابور بطيء، محكوم بقدرات أجسادنا المتهالكة، والمفاصل المتيبسة. يحيطنا عدد من الشباب المسلح يقودون مسيرتنا. بعضهم بدا نافد الصبر، فاستعان بدفعات ونكزات لإجبار الطابور على

الإسراع. لكن بعضهم كان أكثر تعقلا، ومنهم من تدخل للوم المتعجلين، واستبدال دفعاتهم بكلمات حماسية يستحثنا بها على المزيد من السرعة. لكن حتى وإن تغلبنا على تمرد الأبدان، فقد كان في الروح كذلك ما يكبلنا ويبطئ حركتنا؛ فكلنا خائفون، متوجسون. لا نعرف إلى أين نذهب، ولا طبيعة قادتنا الجدد. كان عدد المساجين قليل، أقل من العشرة بواحد أو اثنين. في حين تجاوز عدد الشباب المسلحين العشرين في تقديري. بعضهم اكتفى بالاصطفاف في طريقنا للفرجة علينا! وأحدهم كان يمسك كاميرا فيديو ويصور الطابور أثناء مروره عبر باب المطعم. عندما دخلنا إلى المطعم كان أول ما لاحظناه أن الباب الفولاذي مفتوح. قادونا عبره فأجبرت الشمس أعيننا على الاحتماء خلف انطباق الجفون.

كانت المرة الأولى التي أرى فيها الشمس منذ زمن طويل لا أعرف قدره. وراء الباب لم يكن هناك سوى فناء صغير. لا أشجار صنوبر، ولا بحار، ولا طيور أو جبال. مجرد فناء بأرضية إسمنتية رمادية، يحيط به سور عالٍ من حجارة صخرية يحجب العالم عن أعيننا. وفي الفناء كان المزيد من الشباب المسلحين. يحيطون عددًا من حراس السجن الذين توسطوا الفناء، جالسين على الأرض، وأياديهم مكبلة وراء ظهورهم، ووجوههم ذليلة نحو الأرض. أوقفونا في مواجهة الحرس، لنشاهد ما سيجري لهم. بالنسبة لي كان مشهدهم مثيرًا للشجن ولقَدْر من التعاطف. تجولت في وجوه باقي المساجين مستكشفًا إن كان هذا هو نفس ما يشعرون به، فلم أجد على وجوههم سوى نظرات البلاهة وعدم الفهم. من بين جمع الشبان المسلحين المتحلقين حول الحراس المهزومين، تقدم شاب

بخطوات واثقة. دار حول الحرس ببطء وتَرَاخٍ، صانعًا تأثيرًا دراميًّا. ثم التفت يواجهنا..

ـ اليوم تخرجون من جديد للحياة. كنت أتمنى أن أقول: إنكم تخرجون من جديد للحرية، لكنكم للأسف لم تعرفوا الحرية من قبل قط. لكنكم ستعرفونها من اليوم. لقد انتصرنا نحن المستيقظين، وأصبحت البلاد لنا. بالتأكيد لن نحتفظ بعد الآن بهذا الاسم. لن يكون هناك مستيقظون بعد اليوم. أتدرون لماذا؟ لأنه لم يعد في البلاد نائمون. أول القرارات هو إيقاف العمل ببروتوكول تنظيم الوقت. من اليوم لن يصبح هناك نوم جماعي، ولا أحلام مصطنعة. ستُنزع الشرائح الغبية من رؤوسكم، وتتحررون من قبضتها. اليوم نحتفل بأول يوم حرية في هذا البلد.

مع نهاية خطبته القصيرة هلَّل باقي الشباب فرحة وحماسًا. رفع الشاب ـ الذي بدا كقائدهم ـ يده فكفوا وصمتوا. التفت بعدها يشير إلى الحراس..

ـ وهذه هي هديتنا لكم؛ احتفالًا بالتحرر.

أشار برأسه لباقي الشبان، فتقدم منهم عدد مساوٍ لعدد الحراس، ووقف كل منهم وراء حارس، لينهال عليه ضربًا بسوط في يده. كان الحراس يصرخون، وضربات الشبان على أجسادهم تزداد قسوة. لم أفهم لماذا يحدث هذا. حتى عندما أشعل الشاب القائد سيجارته وبدا على عينيه نظرات استمتاع، سددها نحونا وهو يقول:

ـ هذا هو ثأرنا لكم. انظروا إليهم وتشفَّوا بهم. هذا ما نفعله بهم عقابًا على سنوات العذاب التي قضيتموها هنا.

برغم هذا لم أفهم لماذا يجب أن يكون ما يحدث ممتعًا. لماذا يفترض أن يريحنا هذا أو يثأر لما حدث لنا؟ ما أراه هو عدد من الرجال العاجزين يُعذبون. وهذا يذكرني أكثر بما حدث لنا هنا، ولا يسقط همه عن كاهلي. لكن يبدو أن الشبان لم يفهموا تلك الحقيقة، حتى أنهم قرروا التمادي. الشاب القائد اختار أحدَنا وتقدم منه ممسكًا يده.

ـ أنت. تعال معي. تعال لتجرب طعم الحياة الجديدة.

سحبه من يده والسجين يبدو خائفًا مرتبكًا. قاده حتى موضع الحرس. سحب من يد أحد الشبان سوطًا وزرعه في يد الرجل المرتجف. أشار إلى أحد الحراس قائلا:

ـ اضربه. جرب طعم الثأر. اِثأر بنفسك لنفسك. تذكر كل المعاناة التي عشتها بين هذه الجدران، وضع غضبك كله في ضربة واحدة.

كان على وجه الرجل ارتباكُ ودهشةُ مَن لا يفهم ما المطلوب منه تحديدًا. جال بنظره في وجوه الشبان حوله، فبدا لي خائفًا منهم، وربما هذا الخوف هو ما دفعه لأن يرفع السوط وينزل به على جسد الحارس بضربة ضعيفة، تتناسب مع ارتجافة يده، وضمور عضلاته.

ـ كلا. ليس هكذا. يجب أن تكون أقوى.

ـ الرجل خائف. ألا ترى هذا؟

هذه المرة لم أستطع أن أمارس لعبة الصبر والانتظار. هذه المرة أفلتت مني الكلمات، ووضعت نفسي بإرادتي في بؤرة المشهد. كل العيون التفتت إليَّ بين دهشة واستنكار. الشاب القائد تقدم مني. كان ينفث دخان سيجارته بكثافة وكأنما يخبئ وراءه ملامحه، فلم أتبين إن كان غاضبًا،

أم متفهمًا، أم فقط مندهشًا. توقف أمامي وهو يمسح وجهي بنظرات سريعة عميقة..

ـ نحن فقط نفعل هذا من أجلكم.

هززت رأسي.

ـ هذا ما أتمناه.

اتسعت عيناه، وتجهم وجهه، وكأنما جرحت كرامته..

ـ ألا تصدقني؟

ـ أنا لا أصدق العالم. ربما أنتم مجرد كابوس آخر.

ابتسم الشاب بإشفاق. ربَّت على خدي..

ـ مسكين، لقد أفقدوك القدرة على تمييز الواقع عن الخيال.

التفت إلى رفاقه..

ـ أريد أن أعرف كم قضى هذا الرجل من وقت هنا؟

الشاب الذي كان في زنزانتي بصحبة الملف، هو من تلقى السؤال، وأجابه دون تفكير أو جهد للتذكر:

ـ سبعة وعشرين عامًا.

بدت الدهشة على وجه الشاب القائد، وانطلقت شهقات الذهول والاستنكار من أكثر من فم شاب. في البدء لم أفهم مغزى الرقم. لكن الشاب القائد أعاد الرقم للتأكيد..

ـ هذا الرجل هنا منذ سبعة وعشرين عامًا؟!

هز الشاب المسؤول رأسه بالإيجاب..

ـ التقارير تقول: إنه لم يحدث أن صمد سجين كل هذه المدة. ولا حتى لنصف هذه المدة.

التفت الشاب القائد ناظرًا إلى وجهي. بدا متعاطفًا، حزينًا لحالي. عاد ليسأل رفيقه:

ـ وما اسمه؟

الشاب المسؤول بدا أنه لا يرغب في إجابة هذا السؤال. أو ربما ـ لسبب ما ـ لم يرغب في إجابته أمام الجمع، فتقدم من الشاب القائد وهمس في أذنه. عادت نظرات الشاب القائد إلى وجهي. لكن هذه المرة كانت تحمل صدمة. تجمَّد على ذات الوضع لثوان، ثم خرج منه على حالة من الارتباك. توقعت أن يقدم لي توضيحًا لتلك المشاعر غير المفهومة، لكنه عندما نطق، وجَّه الحديث لرجاله:

ـ أعيدوهم إلى منازلهم.

***

مع كل متر تقطعه الحافلة كنت أتأكد أكثر أني لم أزل محبوسًا داخل أحد كوابيسهم. ليست هذه هي المدينة التي تركتها. كل شيء محطم، كئيب، مسودٌّ. آثار دمار في كل الأركان. دخان أسود يتصاعد من كل مكان فوق الرؤوس. بضع بقع من دم رأيتها في أكثر من شارع وميدان رئيس. ليست هذه هي المدينة التي تركتها منذ.... سبعة وعشرين عامًا؟!! هل هذا صحيح؟!! كل هذه الكآبة والأفكار السوداء ترجح أني في كابوس الآن. ستدوي الصافرة قريبًا؛ بالتأكيد ستدوي، وسأستيقظ.

وضعونا جميعًا في واحدة من حافلات السجن بعد أن أعادوا لكل منا

متعلقاته الشخصية من المخازن. منحوا كلًّا منا مبلغًا ماليًّا كإعانة مؤقتة مرفقة بوعود بتشغيلنا في أعمال مناسبة في أقرب وقت. ومن ملفاتنا استخرجوا عناوين السكن، وبدأت رحلة إعادتنا إلى الحياة كما يقولون. كنت أرتدي زي المصنع. نفس الزي الذي ارتديته حين القبض عليَّ؛ لكنه صار واسعًا فضفاضًا، ولونه صار باهتًا متربًا، وبه تمزقات في أكثر من موضع، ربما بفعل أسنان الفئران التي تسكن مخزن السجن.

أغمض عيني لعلي أعجل بالصحو. لكن عندما أفتحهما لا أرى سوى الشوارع المحطمة، والوجوه الكئيبة المتوجسة، وتعبيرات البلاهة على وجوه جيراني في الحافلة المتعلقة نظراتهم بالشوارع في خوف.

دخلت الحافلة إلى شارع أعرفه جيدًا، وعند نهايته توقفت. الشاب القابض على أوراقنا وقف ونادى الاسم:

ـ أكرم صفوت.

كنت أتأمل الرصيف، وأبواب البيوت، محاولا تذكر كيف كان، لعلي أعرف ما صار، وكيف تبدلت الأحوال.

ـ أكرم صفوت.

نادى مرة أخرى، وكنت وقتها أتذكر ملايين الخطوات التي دبَّت على هذا الطريق تحمل سعادة وحماسة وحبا وحزنا. أنفاسي تملأ الهواء هنا. وكذلك أنفاسها..

ـ أكرم صفوت. أنت تسكن هنا.

كان الشاب واقفًا فوق رأسي، يوجه لي كلماته. وكنت لم أزل أبذل الجهد لربط وجودي بهذا الاسم الذي نسيته. هززت رأسي ونهضت.

تحركت نحو الباب. بصعوبة هبطت الدرجتين العاليتين حتى صرت في الشارع. دون تمهل انغلق باب الحافلة وانطلقت في طريقها. وقفت أتأمل ابتعادها محبَطًا، وكأنما توقعت لحظة وداع لم تحدث. التفتُّ إلى باب البيت. كان كما أذكره. أو كما أظن أني أذكره، وإن كان كساه الصدأ. قطعت الرصيف نحو الباب. اجتزت بقعة دم صغيرة في طريقي، ودخلت إلى البيت.

عندما فتحت باب شقتي كان كل شيء كما هو. بخلاف أطنان من التراب وخيوط العنكبوت، كان كل شيء كما تركته في ذلك اليوم البعيد وذهبت إلى المصنع للمرة الأخيرة. دخلت إلى حجرة النوم مصابًا بلهفة دون مبرر، وكأني سأجد هالة بالداخل، متدثرة على جانبها من الفراش، وتغط في سبات مصنوع. لكن الفراش كان خاليًا. تقدمت وجلست على طرف الفراش. رفعت عيني لأجد أمامي لوح التواصل. والغريب أن كلماتها كانت لم تزل هناك. غمرها التراب لكنها كانت لم تزل واضحة مقروءة. أو ربما هذا ما ظننته؛ لأني أحفظها: (لا تبحث عني أبدًا). ولأول مرة وجدتني أفكر أني ـ بالفعل ـ لا أحلم.

الجزء الثالث الصحو

ماذا أفعل هنا؟!

سارت الحياة ـ أو هكذا أظن ـ بشكل مستقر طوال ما فات من وقت. ليس لي عمل أو رفيق. لا أتحدث مع أحد ولا أفتح فمي سوى لاستقبال الأكل والماء. لكن هذا لم يضايقني، فأنا اعتدت عليه في سنوات السجن. أكثر ما أشعرني بالغربة هو صمت المذياع العام. هذا الشيء الذي كان جزءًا من حياتي ـ ربما الجزء الأهم ـ تحول إلى قطعة معدنية باردة ومهملة، فالحكومة الجديدة ما عادت تستخدمه للتواصل. أما أكثر ما أدهشني فهو عشقي للنوم؛ كنت أنام كثيرًا وكأنما البدن والعقل جوعانان للغياب. لم يكن هذا بأمر متوقع من شخص قضى كل هذه الأعوام نائمًا. ربما أصبح النوم جزءًا من تكوين روحي، جزءًا يكملني. أو ربما كنت أبحث عن الأحلام. فأنا منذ عودتي إلى البيت لم أَرَ حلمًا واحدًا.

ماذا أفعل هنا؟!

بقيت طويلا منتظرًا لحظة الصحو. تلك الصرخة كانت تدوي في أذني طيلة الوقت تخبرني ألا أسترخيَ أو أستسلمَ لذلك الكابوس الجديد. فقريبًا سأصحو لأكتشف أني لم أزل في زنزانتي، والصافرة توقظني، والحرس يقودونني إلى قاعة الطعام، لتناول غداء بلا طعم أو رائحة. لكن هذا لم يحدث. ومع انقضاء الأيام أصبحت أكثر قدرة على قبول فكرة أني أعيش

الآن واقعًا؛ حتى كبرت الفكرة وصارت هي اليقين. لا أعرف كم من الوقت احتجت لكي أتوقف عن الشكوك، لكني الآن ما عاد في عقلي من مساحة لارتياب في حقيقة وجودي.

ماذا أفعل هنا؟!

تعلمت أن أستهلك كل يوم بعضًا من وقت الصحو في السير بلا هدف في الشوارع. كان فعلا روتينيًّا مكروهًا، فما كنت أحب ما أراه من حزن المدينة. لكنه كان فعلا ضروريًّا ليستعيد جسدي شيئًا من القوة ودماء الحياة. أما معظم أوقات الصحو فكنت أبددها أمام التليفزيون ، فأنا ما عدت أملك أنيسًا سواه. في الأيام الأولى كان يؤنسني أمل مبهم أن أجد باب البيت يُفتح وتدخل عليَّ هالة لتضيئه بابتسامة غفران. لكني مع الوقت تناسيت هذا الأمل، واستبدلت به تعلقًا غير شغوف بشاشة التليفزيون. كان البث يستهلك فترات طويلة في استعراض مستجدات الدولة. وكان وجه ذلك الرجل يملأ الكثير من ساعات اليوم. اسمه دكتور سراج فاخر. لا أعرف تحديدًا طبيعة لقب دكتور الذي يسبق دائمًا اسمه؛ هل هو طبيب أم حاصل على الدكتوراه، لكن ما أعرفه أنه قائد الحكومة الجديدة وزعيم المستيقظين، وربما كان الرئيس القادم للدولة كما يتوقع المتوقعون. لكن أكثر ما كان يجذبني لمتابعة كل هذا الكم من الأخبار، هو ما يعرضونه من حكايات ونشرات عن المفقودين في عهد الحكومة القديمة؛ أولئك الذين لم يعثر عليهم في السجون، ولم يرد ذكرهم في أية سجلات. وكان يعتريني أمل جديد أن أجد اسم هالة بينهم. لكنه أمل كئيب مراوغ. فأنا أخشى تحققه، وبذات القدر أتمناه، لعلِّي أعلم عنها أي

شيء، حتى وإن كان نبأ موت أو فقدان. آخر كلماتها على لوح التواصل لم تزل هنا؛ أحافظ على وجودها كما لو كنت أرعى نبتة رقيقة. أمسح الأتربة عن اللوح بحرص دون أن أمسح الكلمات، ثم أستخدم قلمًا مشابهًا لترميم ما تداعى منها؛ أسير على الخطوط بحرص حتى لا أشوه طريقة رسمها للحروف. وقبيل نومي ألقي نظرة عليها؛ (لا تبحث عني أبدًا) أبتسم للوح، وأتمنى له أن يصبح على خير. وفي الصباح أفتح عينيَّ فأراه، فأتمنى له يومًا جميلًا. ذات صباح فتحت عينيَّ لأجد الكلمات لم تعد كما كانت. (لا تبحث عني) في حين اختفت كلمة (أبدًا) التي كانت تختتم الجملة ختامًا حادًّا صارمًا. أين ذهبت الكلمة؟ من مسحها أثناء نومي؟ أم تراني أنا مسحتها دون قصد، أو ربما بقصد مغلف بغياب عن الوعي. لم تطل تأملاتي كثيرًا في الأمر، فقد كان هذا هو الصباح الذي وردتني فيه المكالمة الهاتفية.

كان حدثًا استثنائيًّا أن يرن جرس هاتفي. أعرف أنه لم يعد لي في هذه الدنيا من أحد يُهمه أمري سواي. وبما أني لست أنا المتصل، فالأمر بالطبع غريب. حتى إني ترددت بين إجابة إلحاح الهاتف، أو تجاهله. لولا أني تذكرت وعدًا منحوه لي لحظة مغادرة السجن بأن يهاتفوني عند تَوَفُّر فرصة عمل ملائمة. توقعت أن يكون هو الاتصال الموعود فأجبته. لكن المتصل كان مسئولا من التليفزيون يدعوني لأحد البرامج الجديدة للحديث عن تجربتي في السجن.

ماذا أفعل هنا؟! الضوء حاد ساطع في عيني، والحركة دؤوبة أمام وهج الإضاءة تجبر نظراتي على التشتت والتفرق في كل الأركان، فتختطف

من تركيزي، وتكبدني جهدًا عقليًّا لا طائل من ورائه. المذيع يبتسم في وجهي ويسألني عن التفاصيل دائمًا. تفاصيل اعتقالي، تفاصيل استجوابي، تفاصيل سجني، تفاصيل كوابيسي. وأنا لا أذكر الكثير لأرضيه. أنا هنا فقط لكي أتحدث عنها. الشيء الوحيد الذي أحضرني إلى هنا، ودفعني لقبول تلك المغامرة؛ هو أمل أن تراني في مكان ما، وتسمع صوتي المرتعش وأنا أعتذر لها أمام العالم.

ـ أنا أريد فقط أن أتحدث عن هالة.

ـ ومن هي هالة؟

ـ زوجتي. أريد أن أوجه لها رسالة.

ـ بالتأكيد. تفضل الميكروفون معك.

أشيح بوجهي بعيدًا عن الضوء، لكني لا أعثر سوى على المزيد من الضوء، فأطبق جفني مختبئًا.

ـ أريد أن أعتذر لها. لقد ارتكبت في حقها جُرمًا لا أستطيع غفرانه. وليس لي الآن من أمل في الحياة سوى أن تغفره هي. أرجوك يا هالة إن كنت تسمعينني، سامحيني، وعودي إلى بيتنا.

فتحت عيني فوجدت مضيفي يهز رأسه تأثرًا.

ـ أنت تكن لها كل هذا الحب، برغم أنك لم ترها منذ أكثر من عشرين عامًا؟!

ـ لقد كنت أراها طوال الوقت. كانت تأتي في ثوب الفرسان لتنقذني من كوابيسي.

كانت كلماتي كإشارة له لكي يتعمق في المزيد من التفاصيل. تفاصيل

اللقاء الأول، واللقاء الأخير، تفاصيل عشق، وتفاصيل الجرم الذي أتحدث عنه. كان يحاصرني بابتسامة مصطنعة، وصوت يدعي التأثر، وإضاءته العالية ترهق عيني وأعصابي، فأتساءل عاجزًا عما أفعله هنا؟ وأشعر كسمكة ضعيفة مشبوكة في غزل الصياد دون أمل في الخلاص. لكني أفعل ما لم تستطع السمكة فعله. أنهض من مكاني غير عابئ بسلك الميكروفون الذي يقيدني إلى مقعدي. أندفع مبتعدًا فأمزق السلك الأسود. أصطدم بأكتاف العاملين، وأسقط معدات الإضاءة، وأجري هربًا إلى العراء. أواصل الجري في الليل والبرد والشارع الخالي. لماذا صار كل شيء خاليًا؟ بيتي، والشوارع، ووجوه الناس، وربما حتى قلوبهم. أم تراني أنا من صرت مختل الإدراك؟ أتوقف في مكاني. أتلفت حولي أنظر للميدان الشاغر. ربما الناس هنا لكني لا أراهم! ربما الميدان مزدحم كعادته، لكني ما عدت أدرك سوى نفسي ووحدتي! أنظر إلى ركن بعيد فأرى هالة واقفة تنظر بتجاهي. هي رؤيا وليست واقعًا. أنا لم أُجَنَّ بعدُ لكي أخلط بين الواقع والرُّؤَى. فمن أراها الآن هي هالة التي غادرتني منذ سبعة وعشرين عامًا، بذات الجمال، وأَلَق الشباب. أنا أعرف أنك مجرد تجسد لمحبوبتي، لكني لا أبالي. أنا لست مجنونًا لأحسبك واقعًا، لكني كذلك أتمنى قربك، ولا أبالي إن عشت مع محض خيال. لقد عشت أعوامًا في كوابيس لا تنتهي، فربما ما أريده الآن هو العيش في الأحلام. فربما الواقع لم يُخلق لمثلي. لذلك أركض إليها. تراوغني وتبتعد مسرعة. أطاردها في الشوارع الخالية حتى تختفي عن عيني وسط الظلام.

في البيت أراهم في كل قنوات التليفزيون يتحدثون عني. يقولون: إن الحب هو ما أنقذني مِن مصير مَن سبقوني في السجون. الحب هو ما

جعلني أصمد أمام كوابيسهم وتلاعبهم بعقلي. يتحدثون عني بتقدير. يلوكون سيرتي وهالة مع الابتسامات والتنهدات. هاتفي يرن مرة أخرى. أتردد في البدء، لكنَّ الرنين لحوح ومزعج. أجيب المكالمة، فتكشف لي السماعة عن صوت واهن معتل لرجل يحاول أن يصيح في مرح، لكن حشرجة الصوت تمنعه..

ـ حمدًا لله على سلامتك يا أكرم. كيف حالك يا صديقي؟

ـ مَن؟

يسعل بقوة ثم يجيب:

ـ أنا سمير. بالطبع لم تعرف صوتي، فقد تآكل بفعل المرض.

بذلت جهدًا استدعَى ثوانيَ عديدة من الصمت، حتى تذكرت سمير..

ـ كيف حالك يا سمير؟

ـ مريض كما تسمع. طريح الفراش أغلب الوقت. إنها دراما الزمن المعتادة. لقد منحنا الزمن شبابًا وعنفوانًا. والآن هو يطلب ـ قرب النهاية ـ الثمن. فكما منحنا، يجب أن يأخذ منا.

أبتسم وأقول:

ـ لكن الزمن جعلك كذلك فيلسوفًا.

ـ ربما. العجيب أن الزمن لم يغير بك شيئًا، لم تزل تحب زوجتك، ولم تزل مخلصًا، بعد كل تلك الأعوام. لقد بكيت عندما شاهدتك في التليفزيون تتحدث عنها.

مازحًا قلت له:

ـ أنت؟! تبكي؟!

ضحك فسعل مرة أخرى..

ـ رقة المشاعر في آخر العمر هي ضريبة أخرى ندفعها للزمن.

ـ وكيف حال زوجتك أنت؟

صمت لفترة لم يكن يصلني خلالها سوى صوت أنفاسه الثقيلة. ثم قال:

ـ هجرتني منذ فترة. تحديدًا منذ أن تمكن مني المرض. أليس هذا غريبًا؟ تقول في رسالة الطلاق: إني كنت أنتهك جسدها لأعوام وأُشعِرها بالعار والذل. فلماذا لم تأخذ تلك الخطوة إلا بعد أن تمكن مني المرض وأصبح من الصعب أن أجد لي زوجة أخرى؟ أحيانًا أفكر أنها هي مَن زرعت في بدني هذا المرض، وظلت تراقبه يكبر ويأكلني على مهل. وفي اللحظة المناسبة غادرت، لتتركني وحيدًا غير قادر على أي فعل. ربما هذا هو انتقامها مني.

كنت أرتجف مع كل حرف ينطق به. أهو يتحدث عنه أم عني؟ عن زوجته أم عن زوجتي؟ أيكون هذا انتقامك يا هالة؟ أتكون الآن في مخبأ بعيد تراقب عجزي ويأسي سعيدة منتشية بانتصارها؟ عند هذا الحد لم أعد قادرًا على سماع صوته. تحججت بأي شيء؛ لإنهاء المكالمة. وعدته بأن أبقى على تواصل معه، وربما أزوره في بيته في وقت قريب. لكني أعلم أني كاذب، وربما هو كذلك يعلم أني كاذب. أنهيت المكالمة وبقيت على جلستي لفترة أحاول طرد تلك الأفكار السوداء خارج عقلي. الهاتف لم يتوقف عن الرنين بعدها، لكني لم أَرُد مرة أخرى. أُطفئ التليفزيون وأهرب إلى النوم. في الصباح أستيقظ على صوت هالة..

ـ استيقظ الآن. استيقظ يا أكرم لقد تأخرت.

أفتح عيني وأنهض جالسًا. أنظر حولي؛ لا أحد في الحجرة سواي. لكن هالة كانت هنا. لقد سمعتُ صوتها بوضوح. هذا ليس حلمَ نومٍ، فقد توقفت الأحلام عن زيارة نومي. لقد كانت هنا بالفعل. يرن جرس الباب فأتوجس. هذا ليس موعدًا مناسبًا للزيارات. ناهيك عن أني لم أستقبل أي زائرين منذ عودتي. توقعت أن يكون الأمر متعلقًا بالضجة التي أحدثها حواري التليفزيوني بالأمس. ربما أجد المزيد من الضجيج واقفًا على عتبة بابي الآن. صحفيين أو مراسلين يريدون التعرف على خطيئتي التي رفضتُ الإفصاح عنها بالأمس. أو ربما عاشقين جاءا للتبرك بأيقونتي! فكرت في تجاهل الأمر ومواصلة النوم، لكن رنين الجرس كان لحوحًا، ولن أستطيع إسكاته سوى بفتح الباب.

نهضت مترنحًا غاضبًا إلى الباب، فتحته عازمًا أن أرتدي عباءة الصرامة والحدة مهما كانت شخصية الزائر. لكن مع انكشاف الباب عن وجه الضيف، لم أقو سوى على صمت المندهش. فقد كان ضيفًا غير متوقع، وحضوره غير مفهوم. كان ذلك الشاب القائد الذي أخرجنا من السجن. صرامة ملامحه لم تتغير، ونظراته في وجهي كانت حادة، ونبرات صوته كانت آمِرة أكثر منها متسائلة..

ـ هل يمكن أن أدخل؟

***

أشعل سيجارته دون استئذان. كان جالسًا أمامي يهز ساقيه بسرعة، فأدركت أنه مرتبك ومتوتر في مكان ما بأعماقه وراء هذا الوجه الجامد

الخالي من التعبير. وكنت جالسًا أمامه منتظرًا لحظة الإفصاح. بعد أن نفث دخان سيجارته قال:

ـ أنا اسمي نوح. من قادة الشباب في حركة المستيقظين، وواحد من أبطالها كذلك.

تعجبت من أن يصف نفسه بالبطل، لكني لم أجب سوى بهزة رأس ـ لا تفصح عما بداخلي ـ تدعو للمتابعة..

ـ لقد جئت إليك برسالة. رسالة قديمة أحملها معي بغرض تسليمها لك عندما نتقابل. في الحقيقة أنا لم أتوقع أبدًا أن نتقابل. فقد اعتدنا أن مَن يذهب إلى سجونهم لا يخرج منها. لذلك كانت دهشتي عظيمة عندما اكتشفت أنك موجود على قيد الحياة بعد كل هذه الأعوام في السجن. وربما تلك الدهشة هي التي منعتني من التواصل معك حين عثرت عليك. فكل تخيلاتي لاحتمالية حدوث لقائنا هذا لا تصف ذلك التوتر الذي أشعر به الآن. الأمر ثقيل حتى على شخص قوي مثلي.

اكتملت في ذهني لحظتها صورة عن هذا الشاب كشخص يحب التحدث عن نفسه كثيرًا، حتى عندما يكون مطلوبًا منه أن يتحدث عن أشياء أخرى أكثر أهمية. لذلك كان عليَّ أن أعيده إلى النقطة التي تهمني أكثر..

ـ رسالة مِمَّن؟

نفث المزيد من دخانه، قبل أن يجيب:

ـ من زوجتك.

نظرت إليه لفترة عاجزًا عن إيجاد كلمات تناسب ما أشعر به الآن.

كنت كمَنِ انتُزع من برد إلى نار، أو كمن انتزع من نار إلى برد؛ لا أعرف يقينًا. فقط أعرف أني لم أعد على ذات الحال بعد أن نطقها.

ـ زوجتك كانت أيقونة لجماعتنا. لقد كانت من أكبر المناضلين وأكثرهم شراسة. وكل المستيقظين يقدسونها.

لم أصغ جيدًا لما قاله بعد كلمة (كانت) فقد توقفت مداركي عند الصقيع المغلف لتلك الكلمة الشيطانية.

ـ كانت؟!!

هز رأسه في أسف..

ـ لقد تُوفيت دون أن ترى الحلم. ماتت قبل حتى أن نشنَّ حربنا. قضى عليها السرطان.

تأملت ملامح الأسف على وجهه وأنا أحاول استيعاب ما قاله. كانت يدي ترتجف بشكل بسيط، وخداي يستشعران دموعًا تنحدر ببطء حتى تبلغ ملوحتها فمي. حاولت السيطرة على مشاعري. رفعت كفًا مرتعشًا لأمسح عن وجهي الدموع الخرساء.

ـ هل تحبها إلى هذا الحد؟ أم أنه مجرد شعور بالذنب؟

نظرت إليه مستفهمًا.

ـ لقد رأيتك في التليفزيون بالأمس، وهذا هو ما دفعني للحضور، فربما ليس من حقي أن أمنع عنك آخر كلماتها.

أطفأ سيجارته على الأرض، ثم أخرج من جيبه مظروفًا مغلقًا.

ـ زوجتك كانت تمتلك يقينًا غير مفهوم من أننا سنجدك على قيد الحياة. بالطبع كان اقتحام السجون جزءًا أصيلًا من خطتنا، وكنت أنا المكلَّف

به. لذلك طلبت مني قبيل وفاتها أن أبحث عنك في كل السجون، وأعطيك هذه الرسالة.

تناولت المظروف بلهفة من يده. فضضته وأخرجت منه الأوراق المطوية على خط يدها الرقيق المنمق.

ـ سأنتظر هنا حتى تقرأها. فربما احتجت لبعض الإيضاحات بعد أن تنتهي.

***

عزيزي أكرم..

إن كنت تقرأ هذه الرسالة فهو يعني أني مت، وأنك لم تزل على قيد الحياة، وأننا لم يُكتب لنا اللقاء. أعتذر عن هذه البداية التقليدية السمجة، لكني لم أجد أفضل منها للأسف. فأنا لم أتميز يومًا بأية قدرات أدبية. لذلك دعني أحدثك من قلبي مباشرة دون اهتمام بصياغة.

دعني أبدأ من النهاية وأخبرك أني سامحتك. أنا أعرف كم أنت إنسان حساس!! وطوال الوقت أفكر أنك ربما تعيش في عذاب ضمير بسبب ما فعلته. لهذا وددت أن أعلن لك الغفران في بداية رسالتي، وذلك؛ لأننا ببساطة متعادلان بشكل ما، فكلٌّ منا أخطأ في حق الآخر. ولسبب آخر كذلك سأوضحه لك في نهاية الرسالة. فلا أخفي عليك أني في بداية الأمر لم أحب ما حدث، وقضيت وقتًا أكرهك، وأكره فعلتك، وأكره حتى أجمل ذكرياتنا معًا؛ وما أكثرها!! لكن ما فعلته لم يكن هو دافعي للرحيل، فقد كان الرحيل مخططًا له منذ زمن، فقط كنت أنتظر الإذن منهم.

فالحقيقة يا حب حياتي أني مثلك كافحت طويلا لأجلنا، لأجل أن

يجتمع شملنا من جديد. لكن فقط رؤانا كانت مختلفة، ولذلك اختلف طريق كلٍّ منا في السعي. ففي الوقت الذي كنت فيه أنت تسعى في أروقتهم، متخيلا أنك قادر على محاربة قوانينهم بقوانينهم. وقت أن كنت تضرب رأسك في الصخر دون أن تشعر بتصدعات رأسك وتناثر دمائك، كنت أنا أدرك أن لا خلاص سوى بخلاصنا منهم. كنت أؤمن بالحل الشامل والنهائي. لم أتوقع منهم أية رحمة، أو تعاطف. لا أعرف كيف كنت تصدق أنهم قد يتحركون من أجلك، أو يتراجعون عن قرار اتَّخذوه، حتى وإن لم يكلفهم التراجع سوى بضع قطرات زائدة من الحبر؟ أنا كنت أعلم أنهم سعداء بعذابك أنت وسواك، فكلما ضاقت حولنا دوائر المتاهات المفرغة التي يدفعونا لخوضها، كلما أحكموا سيطرتهم علينا. ألم تسأل نفسك: لماذا وهم مَن أنفقوا المليارات لزرع شرائح التحكم العصبي لشعب كامل، يرفضون إنفاق بضعة ملايين لحل مشكلة الفرقاء؟ لأنهم ببساطة لا يبالون. لقد أنفقوا بسخاء؛ لإنجاح مخططهم، والذي لا يتضمن الحرص على سعادة الناس وتلاحمهم الأسري. لهذا يا صغيري أدركت أنه ما من سبيل أمامي سوى الانضمام للمستيقظين.

في البدء حاولت التأقلم وتناسي ما يحدث. كنت ملتزمة باتفاقنا؛ أنام كل ليلة ووجهي تجاهك. أقبع في الفراش قبل موعد النوم بدقائق؛ لأنعم بالنظر إلى تفاصيل وجهك. كثيرًا ما كنت أُقَبِّلك وأتحسس ملامحك، وكلي ثقة أنك تشعر بي، وأنك ستفعل المثل عندما تستيقظ، حتى إني كنت أشعر بلمسات أصابعك على وجهي، وسخونة شفتيك على شفتي. لكني لم أقدر طويلا على الاحتمال. تخيل أن تعمل في وظيفة تتطلب منك أن تتناسى كل هذه المعاناة وأن تعلم الصغار الفوائد العظيمة لبروتوكول

تنظيم الوقت! حين كانت حياتي تنهار، كان مطلوبًا مني المدح والتمجيد، وحشو العقول الصغيرة لتلاميذي بكلمات إنشائية لا أؤمن بحرف منها. هؤلاء الصغار الذي منهم مَن حرمه البروتوكول من أب أو أم أو أخ. كان مطلوبًا مني أن أقوي من عزيمة صغاري، وأجعل إيمانهم بالبروتوكول أقوى من احتياجاتهم الأسرية الطبيعية. فكيف بالله عليك أفعل شيئًا كهذا؟ لقد كان الأمر أكبر من قدرتي على الاحتمال. حتى كان ذات يوم انهارت فيه مقاومتي فأطلقت العنان لتلك المشاعر والأفكار أمام بعض الزملاء. أغلبهم نصحوني بالصمت، لكنه كان أكثرهم حماسًا وإخلاصًا في نصيحته. كان يُدَرِّس التاريخ للصفوف الأكبر. رجل صامت دائمًا ولا اختلاط له بزملائه. كانت المرة الأولى التي يُبدي اهتمامًا بأي شخص خارج فصوله الدراسية، عندما جلس معي في الاستراحة ليقنعني بأن ما فعلته خاطئ، وبأن المجاهرة بتحدي قوانين الدولة فعل متهور حتى وإن كان نتاج لحظة انفجار عفوية. لم أهتم كثيرًا بكلماته ولم أحملها بأية معاني أكثر مما تحمله كل العبارات المشابهة التي انسكبت على رأسي من باقي الزملاء. لكن إلحاحه في الكلام كان أكبر، وبرغم ما تحمله كلماته من اعتراض على فعلي، لكن فيما بين السطور كان يدفعني للمزيد من الحكي الخاص بيني وبينه. لا أخفي عليك أني توجست منه وتوقعت أن ما يفعله ليس أكثر من محاولة اصطياد الزوجة البائسة المحرومة التي فقدت زوجها، لذلك صددته، وتعمدت الابتعاد عنه. حتى جاؤوا ذات نهار وأخذوه. حملوه فيما بينهم من داخل الفصل الدراسي، وسط النظرات المذعورة لطلابه، وبعض الصرخات الطفولية، والكثير من النشيج والبكاء. غادروا به المدرسة وتركوا لنا رائحتهم الوقحة، واختفى الرجل

إلى الأبد. هنا كانت المرة الأولى التي أسمع فيها عن المستيقظين. بدأت أتتبع أخبارهم في نشرات الجرائد والتلفاز والمذياع العام وأحاديث الناس الهامسة، فعرفت أنهم مجموعة من المعارضين الذين وجدوا طرقًا سرية لنزع الشريحة من رؤوسهم، وهربوا في أماكن بعيدة لا يعلمها أحد، وسط محاولات محمومة من الحكومة ومن رجال التحقيق للعثور عليهم. بالطبع الزميل لم يكن منهم؛ لأنهم لا يعيشون بيننا. لكن رجال التحقيق لا يتركون أي شخص يشتبه بارتباطه بهم دون أن يأخذوه. يقولون: إن هؤلاء الأشخاص أكثر خطورة من المستيقظين أنفسهم؛ لأنهم يعيشون بيننا مندسِّين بهدف تجنيد المزيد منا لإيقاظهم. وهؤلاء الأشخاص عندما يقعون في أياديهم، يكون مصيرهم العذاب الأليم في محاولة؛ لانتزاع أية معلومات عن المستيقظين ومخابئهم. بالتأكيد أنت تعرف ما أقوله، فقد وضعك انضمامي للمستيقظين تحت أيديهم. أعرف أنهم أذاقوك عذابًا لا يطاق، وربما تعيد لك كلماتي تلك ذكريات تحاول نسيانها. أنا يا صغيري مَن تسبب لك في هذا الألم، ولذلك أقول: إننا متعادلان. رغم أني في لحظات تأنيب الضمير أتساءل: إن كانت فعلتك معي تعادل فعلتي معك؟ في الحقيقة أنا مدينة لك بالذنب وليس العكس، فأرجوك اغفر لي كما غفرت لك.

المهم أني بدأت أشعر أن هذا بالتحديد ما كان يفعله معي ذاك الزميل؛ كان يسعى لتجنيدي. لا أعرف لماذا شعرت أني مدينة له بإنجاحه، فقررت أن أستجيب لما أراده لي إن جاءتني الفرصة. ربما كان هذا القرار وليد تلك اللحظة السحرية التي ضربَتْني وأنا في الفراش أتأملك؛ إن هذا المكان ليس مكاني. لقد انتهت حياتنا وانتهى ما بيننا، ولم يعد يمكن

أن يُعيدنا لبعضنا سوى أن أمضي في رحلة طويلة في اتجاه بعيد عنك، رحلة خطرة ومجنونة، لكن ربما في نهايتها أجد منعطف العودة. في هذه اللحظة قررت أني لا أريد الاستمرار فيما نفعله. لا أريد أن أخدع نفسي أكثر من هذا. فلن يفيدنا بقاؤنا هكذا في شيء، ولن يؤدي بنا طريقك سوى إلى المزيد من اليأس والألم.

حاولت أن أبحث عن المستيقظين، لكنه أمر عبثي تمامًا. تخيل صعوبة أن تسعى لإيجاد مَن فشلت الحكومة في إيجادهم. لكني لم أكن أبحث عن المستيقظين تحديدًا، وإنما عن أولئك الموكلين بالتجنيد. حتى إني بدأت أراقب الناس حولي باهتمام وشغف. أحاول أن أعثر في أحدهم على ذات النسق السلوكي الذي كان يبديه زميلي، فربما كلهم مثله انطوائيون، تجذبهم كلمات الهجوم ضد الحكومة وبروتوكولها. ربما كلهم يسيرون على نفس النهج من النصح المقنع، والكلمات الخفية التي تلقي مرادها الحقيقي بين السطور. حتى إني تعمدت أن أطلق كلمات الانتقاد بين الجموع في كل مناسبة، لعل أحدهم يعثر عليَّ من جديد. لكن الأمر كاد يصل بي إلى حدود اليأس عندما زارتني في المدرسة أُمٌّ لطالبة متغيبة منذ فترة. حدثتني السيدة بعينين باكيتين عن مرض ابنتها المفاجئ، وعن حاجتها لتلقي التعليم في البيت. أبديت استعدادي لإعطاء الطفلة دروسًا عن بعد عبر شاشات الاتصال، لكن الأم كانت ترى أن التواصل المباشر أفضل لحالة ابنتها. حاولت الاعتذار أو ترشيح غيري، لكن السيدة كانت لحوحة، وقطعت عني كل سبل الرفض، فاضطررت للموافقة. أخذت منها العنوان ومنحتها في المقابل وعدًا بزيارتها في موعد مسائي.

في هذا اليوم عندما عدت إلى البيت كنت في حالة من الحيرة لا أفهمها. أشعر بضغط كبير على خلايا عقلي وأعصابي ولا أدري له سببًا. ربما هو مجرد تجمع لكل الأفكار السوداء، والمشاعر اليائسة التي لا أجد لها تصريفًا. جلست طويلا أتطلع إليك في نومك. كنت أشعر نحوك بالحب والافتقاد، لكني كذلك كنت أشعر باللاجدوى؛ لمتى سأنتظرك؟ وأي أمل يقبع خافتًا في نهاية طريقنا؟ هذا إن كان أصلا لم يزل يجمعنا طريق واحد. لم أكن أريد التخلي عنك، ولكني لا أطيق هذا الوضع الذي لا يعني لي سوى الاستسلام لمشيئتهم. تحت ضغط هذه الحالة نهضت إلى لوح التواصل، مسحت رسالتك الأخيرة التي تحكي لي فيها عن تفاصيل لا تهمني، ليومك الذي لا أعيشه، وكتبت لك: (إلى متى سنبقى هكذا؟ ربما علينا أن نبحث عن نهاية ملائمة لقصة حبنا). ثم تركت القلم وارتديت ملابسي وخرجت إلى موعدي مع أم الطالبة تلك. خرجت للشارع قبل الموعد بساعتين. سرت لفترة طويلة على غير هدى في محاولة لتصفية ذهني، وتنقية أفكاري. وعند الموعد المحدد كنت أطرق بابها. فُتِح الباب كاشفًا عن ابتسامتها المشرقة. عبَّرت بكلمات كثيرة عن سعادتها بزيارتي. دعتني للدخول وهي تُسهب في وصف أهمية هذه الزيارة لها، وسعادتها لاستجابتي لدعوتها؛ لأن الأمر هام جدًا لمستقبل ابنتها. شكرتها وتمنيت أن أكون ذات عون لها. دعتني للجلوس في حجرة الاستقبال واستأذنت مغادرةً الحجرة. توقعت أنها ستستدعي طفلتها للقائي، لكن عندما عادت كان بصحبتها رجلٌ. ربما صرتَ تعرفه الآن إن كانت مغامرتنا قد نجحت، وإن بقي هو على قيد الحياة حينها. اسمه سراج، دكتور سراج فاخر. الرجل لم يترك متسعًا لدهشتي لِأَنْ تتمدد فكان حاسمًا وعمليًّا في كلماته؛

أخبرني على الفور أنه زعيم المستيقظين، وأنه هنا من أجلي، فهو يعرف أني أبحث عنهم. لقد فهموا الإشارات التي كنت أرسلها في كل مكان، ولكنهم لم يكتفوا بها، فقد بحثوا ورائي، ليعرفوا كل شيء عني؛ حياتي قبل البروتوكول، وحياتي بعده. الرجل كان يعرف كل شيء عنا؛ عن حكايتنا، وأزمتنا. سألني لماذا أتوقع أن أجد عندهم حلا لمشكلتي، فحدثته عن كل خواطري وهواجسي. حدثته عن يقيني أن قصتي معك قد انتهت، وأني ربما أريد السعي للثأر؛ أريد تدمير البروتوكول وكل من وراءه، كما دمر لي حياتي. في تلك الليلة جلس دكتور سراج معي لقرابة الساعتين.

حدثني عن كل شيء. أخبرني كيف بدأ الأمر. فهو رجل مريض، يعاني تحديدًا من مرض اسمه التغفيق. كان الاسم غريبًا على أذني، فلم يدَّخر الرجل جهدًا لشرح طبيعة مرضه لي. تناول أدق التفاصيل، واستخدم مصطلحات علمية كثيرة لا أتذكر منها حرفًا. لكن ما أتذكره هو تشبيه أطلقه بنفسه، عندما قال: إن مَرضَى التغفيق هم أشبه بالزومبي ولكن من نوع خاص. فهم ليسوا موتى أحياء، وإنما نائمون أحياء! فهو يعيش حياته كلها كما لو كان في حالة نوم دائم. فالأمر متعلق بخلل عصبي يسبب اختلال في فترات النوم واليقظة، فهو يمكن أن يغفو في أي وقت وفي أي مكان دون أن يقصد هذا، كمن يدخل في حالة إغماء وقتية. كما أنه لا ينام لفترات طويلة، ولا يدخل أبدًا في مرحلة النوم العميق. فكل فترات نومه تنتمي للمرحلة التي تسمى: مرحلة حركة العين السريعة. وهي مرحلة من النوم التي تحدث فيها الأحلام، ويكون الجسم في حالة جمود وشلل. قال لي الرجل: إن تلك الحالة جعلت الشريحة الحكومية غير قادرة على السيطرة عليه. هو نفسه لا يفهم تحديدًا طبيعة ما يحدث

من تفاعل بين جهازه العصبي وبين تلك الشريحة الصغيرة الموضوعة تحت جلد رقبته، فهو ما زال يدرس الأمر. لكن الواضح أن الشريحة مرتبكة، وترسل طوال الوقت بيانات خاطئة عنه. ولهذا فهو مستيقظ. ربما لا يمكن أن نصف حالته بالاستيقاظ، فالرجل نام مرتين خلال ساعتَيْ حوارِنا! استغرقت كل غفوة منهما قرابة عشر الدقائق. لكن لكونه لا ينام بأمر من الشريحة، ولا يبقى لأكثر من ثلاثين ساعة في حالة النوم، في حين تُبث الأحلام الحكومية السعيدة في عقله؛ فيمكن وصفه بالمستيقظ. قال لي: إنهم استدعوه مرتين لوزارة السكان لمعرفة حقيقة الخلل في شريحته. وإنهم أخضعوه لدراسات مطولة، قبل أن ييأسوا منه ويعتبروه خللا في المنظومة. الآن هو فعليًّا ـ وليس وصفًا مجازيًّا ـ خارج عن النظام. ليس تمردًا أو معارضة، وإنما بسبب خلل وظيفي في جهازه العصبي. لكنه اعتبر الأمر اختيارا إلهيًّا له لكي يبدأ المقاومة. فعندما تصبح شخصًا لا ينام في مجتمع كهذا، فأنت تصبح مثل البصير وسط جماعة من المكفوفين. لقد أصبح قادرًا على رؤية الصورة كاملة، في حين نرى كلنا نصف الصورة فقط. عمله الشخصي لفهم حالته، ومحاولة دراسة الشريحة وعلاقتها بجهازه العصبي، هو ما وضع في طريقه عدد من أطباء المخ والأعصاب الساخطين على البروتوكول، والموقنين بخطورته. وسرعان ما تطورت العلاقة بينه وبين عدد منهم لتصبح اتفاقًا على خطوات تمرد واضحة، سرعان ما تطورت إلى خطة محكمة، تحمل اسم: المستيقظون.

بدأ دكتور سراج في البحث عن جنود لجماعته من بين الفئة الأكثر سخطًا وكراهية للبروتوكول؛ الفرقاء. وبالفعل نجح في تجنيد عدد منهم ممن لديهم القوة وطاقة الغضب الكافية للدخول في هذا الرهان الصعب

ضد سلطة الحكومة. ومن خلال أطبائه كانوا يقومون بنزع شرائح التحكم العصبي عن هؤلاء المجندين، وشحنهم إلى مخبأ سري، مخفي تحت الأرض في مزرعة صحراوية مهجورة. هناك ـ ومع الوقت ـ نشأ مجتمع المستيقظين السري. لكن أفراد هذا المجتمع كانوا هم الفئة الأضعف من بين تلك الجماعة الكبيرة المتشعبة. فالأفراد الأقوى هم الذين لم يستيقظوا.

هم أولئك الذين بقوا يمارسون حياتهم بشكل طبيعي، وينامون ويستيقظون في مواعيدهم المحددة وفقًا للقرعة الحكومية. لكنهم سرًا يقومون بالعمل الأصعب للجماعة. فهم المسئولون عن التجنيد، والمراقبة، والتتبع، وإخفاء الأدلة. هم المعرَّضون طوال الوقت لخطر الاعتقال والتحقيق الوحشي من رجال وزارة السكان. لكن أغلبهم يفضلون الموت عن إفشاء أية أسرار. وإن كان معظمهم لا يعرفون بالفعل أية أسرار. فحتى من انهار منهم واعترف تحت التعذيب، ما كان ليرشد عن أية معلومة عن مكان اختفاء المستيقظين؛ لأنه لا يعلمه. تلك السيدة اللطيفة التي استقبلتني في بيتها تلك الليلة كانت واحدة من هؤلاء. أمام أنظار الحكومة هي سيدة تابعة راضية بحكم البروتوكول؛ لكنها سرًا تعتبر واحدة من أكبر قادة المستيقظين، وواحدة من ثلاثة فقط يعرفون حقيقة دكتور سراج وموضعه على رأس تلك الجماعة. في تلك الجلسة سألته صراحة عن مستقبل خططه، وكيف يرى أن التمرد سينجح. فأخبرني أن القتال هو الحل. ارتجفت خوفًا، فما كنت أظن أن يصل الأمر إلى هذا الحد، لكنه أقنعني أن هذا هو الحل الوحيد. هو فقط في انتظار لحظة محددة تتجمع فيها عدة عوامل. اللحظة التي يصل فيها عدد جنوده وعتادهم للحد اللازم، ستتلاقى ذات يوم مع اللحظة التي

يبلغ فيها الغرور بالحكومة حد الاستهتار، عندما يبلغ المنتهى اعتقادهم أن البروتوكول ساد العقول وأصبحت السيطرة على الناس تامة. في هذه اللحظة ستكون ساعة الصفر. وستكون الحكومة ومؤسساتها مفتوحة القلب، مستباحة كفريسة صيد مريضة. هذه اللحظة قد تأتي بعد عام، أو عشرة. لا أحد يستطيع الجزم، ولا سلطان في ذلك الصراع سوى للزمن، ولمن يملك القدرة الأكبر على الصبر. شعرت وقتها أن هذا ليس هو ما أردته. ليس هذا هو الانتقام الذي أسعى إليه. لكن لم أستطع أن أقاوم فكرة أن أستعيد من جديد السيطرة على حياتي. أن أنام وقتما أشاء، وأصحو وقتما أشاء. لقد صرت أفتقد حتى الكوابيس. لقد مللت الأحلام الجميلة المتكررة في كل ليلة. لذلك وافقت أن أصبح من الجنود، وأعيش في مجتمع الصحو. صافحني مرحبًا بانضمامي لهم. أوصاني بكتمان الأمر وعدم التحدث مع أي شخص، حتى تحين اللحظة التي سيأخذني فيها لحجرة الجراحة لنزع الشريحة، ومنها مباشرة إلى المخبأ. أخبرني أن التجهيز للعملية سيأخذ أيامًا، ربما هي فرصة لكي أودع حياتي القديمة؛ لأني لن أعود إليها أبدًا. طلب مني أن أحضر إلى هذا البيت مرتين أسبوعيًّا وأعطي الدروس للطفلة كما اتفقنا حتى لا أثير الشبهات. وعندما تصدر أية تعليمات جديدة بشأني فستخبرني بها صاحبة البيت. شكرته وصافحته وغادرت بعد نهاية الساعتين.

عندما عدت إلى البيت كنت قد أدركت أني لا أريد أن أودعك. لا أريد أن أعيش حالة عاطفية حزينة وأنا أعلم ألا طائل من ورائها. لا أريد أن أعذبك وأعذب نفسي بيقين النهايات. لذلك قررت أن أتجاهلك بَدْءًا من

هذه اللحظة، مثل الأم التي تفطم رضيعها بقسوة، حتى تحقق ما هو أفضل له. لذلك بمجرد أن بدلت ملابسي مسحت رسالتي من لوح التواصل وتركته فارغًا كحياتنا. وفي موعد النوم قررت أن أنام على جانبي الأيسر وأعطيك ظهري للمرة الأولى منذ عامين.

في يومي التالي استيقظت لأقرأ رسالتك التي تسألني فيها عن سبب إدارة ظهري لك، وسبب عدم الكتابة على اللوح. وكذلك كان سؤالك عن الأموال التي طلبتَها مني لشراء كاميرا الفيديو. لم أستطع أن أقاوم مشاعري فبكيت وأنا أقرأ رسالتك. لم تكن خطة الفطام الشعوري سهلة على نفسي. لكن كان عليَّ في كل لحظة أن أذكر نفسي أن ما أفعله هو الأفضل لكلينا. لذلك حاولت التماسك وتجاهل الأمر والمضي في مخططي دون تعديل.

يومي سار بشكل معتاد، لكن مع عودتي للبيت من المدرسة اكتشفت أني لا أطيق البقاء هنا. لم يكن الأمر سهلا، فأنا أعرف أني أعيش فترة وداع معك، فكيف تكون أمامي ولا أحتضنك وأقبلك؟ كيف يكون حبك وقلقك عليَّ متجسدين أمامي ككلمات على لوح التواصل، ولا أستطيع أن أجيبها؟ الأمر كان يعذبني أكثر مما أحتمل، حتى إني لم أعد أستطيع أن أنظر إلى ملامحك، أو أتواجد بالقرب منك. فلم أفكر مرتين وأنا أرتدي ملابس الخروج وأغادر المنزل. لا أعرف إلى أين سأذهب أو ماذا سأفعل. فقط كنت أهرب منك إلى اللاشيء واللاأحد، فأنا لم يكن لي من أصدقاء، ولا أعرف من الأسماء في هذا الكون غير اسمك. قررت أن أبحث عن مكان هادئ لتناول غداءٍ مبهجٍ يُخرجني من حالة الكآبة، فاخترت دون

أن أشعر مكاننا. نفس المطعم، ونفس الطاولة، فتذكرتك أكثر وبكيت. غادرت وكأنما أهرب. وجدت مقهى صغيرا منعزلا لم تَطَأْه أقدامُنا من قبل فدخلته. كانت الشمس قد غربت فجلست وحيدة، واخترت من القائمة مشروبًا لم أشربه من قبل، وجلست أتأمل عبر النافذة شوارع لم أرها من قبل، أريد أن أخلق لنفسي في هذه اللحظة عالمًا جديدًا. عالما خاليًا من أي ذكريات معك. أريد أن أشعر بالاغتراب الآن عن أي مكان وأي زمان؛ لأنك ببساطة أنت المكان وأنت الزمان. لكنه في هذه اللحظة ظهر؛ دكتور سراج. لا أعرف من أين أتى، ولا كيف وجدني. لا أعرف حتى إن كان يبحث عني أم أن في الأمر مصادفة. وقتها هو ادَّعى أن الأمر مصادفة، وأنا ادَّعيت أني أصدقه. محرجةً دعوتُه للجلوس، ففعل. كانت جلسة ودودة كصديقين قديمين. وهو كان رجلا طيبَ المعشر، مرحا، فلم أجد مشكلة في مجالسته، وقد قدَّرت أنه يمارس بعض الألاعيب للدخول في عقلي بشكل أعمق قبل أن أصير منهم. تحدثنا في كل شيء عدا المستيقظين بالطبع. وكانت هذه هي جلستنا الوحيدة طوال الأعوام التي عرفته فيها، التي لم تذكر فيها مصطلحات: المستيقظون، البروتوكول، الحكومة، ولا حتى لمرة واحدة. في النهاية نهضت متعجلة ـ وقد سرقنا الوقت ـ خشية ألا أدرك وقت النوم في فراشي. هرعت مسرعة إلى البيت. وصلت في الوقت المناسب. كانت لم تزل أمامي بضعة دقائق لتغيير ملابسي وممارسة الطقوس الروتينية لما قبل النوم. لكني لم أكن في مزاج يسمح. فبمجرد دخول البيت عاودتني الكآبة. فقررت أن أمارس بعض التمرد الصبياني، وتمددت على الفراش بملابس الخروج على ظهري، منتظرة انقضاء دقائق الصحو المتبقية.

عندما استيقظت وجدتني أرتدي ملابس البيت! وقرأت على اللوح

رسالتك التي تحمل دهشتك وخوفك. تأثرت مدركة كم العذاب الذي أسببه لك، والذي تخطى المثال التقليدي عن فطام الأم لرضيعها، وربما يجب أن أقلل من جرعته لمصلحة سلامك النفسي. أو هكذا أقنعت نفسي لكي أبرر التنازل عن بعض المسافات التي زرعتها بيننا. تحديدًا لكي أعود من جديد؛ لأنام ووجهي تجاهك. لكني في المقابل بقيت مخلصة لقرار التوقف عن التواصل معك عبر اللوح. وعلى هذا الحال استمر الأمر ليومين، حتى كان ذلك اليوم المتفق عليه أن أذهب لمنزل تلك السيدة من المستيقظين لكي أدرس لابنتها. كان كل شيء يسير بشكل طبيعي؛ لم أتحدث معها في أي شيء ولو بتلميح. مجرد مدرِّسة تمارس عملها بإتقان. لكن في منتصف الزمن المقرر للدرس داهمتنا طرقات عنيفة على الباب. لم أكن في موضع يخول لي رؤية القادم، لكني عرفتهم من الرائحة. كانوا رجال التحقيق. لم يستمر الأمر طويلا. لم تعترض السيدة أو تقاوم. فقط صرخت الطفلة وبكت طويلا، والتزمت أنا بالصمت عدا اللحظات التي احتجتها لإجابة تساؤلاتهم عن هويتي وعن طبيعة ما أفعله هنا. في النهاية حملوا السيدة ورحلوا، وتركوني وحيدة مع طفلة منهارة لا أعرفها حقًا، ومع ارتباك وخوف بلغا حد ارتجاف الأطراف. لم يكن بمقدوري أن أغادر البيت وأترك الطفلة وحيدة. حاولت تهدئتها وطمأنتها حتى استكانت وتمكنت من منحي معلومة مفيدة تضيء لي الطريق؛ وكانت تلك المعلومة هي رقم هاتف خالتها. اتصلت بها وأخبرتها ما حدث. برغم الصدمة البادية على صوتها لكنها تماسكت وطلبت مني أن أبق مع الطفلة حتى تجيء. حدث هذا بعد قرابة الساعتين. حكيت للسيدة باختصار ما حدث، منكرة معرفتي بأي سبب لاعتقال شقيقتها. في النهاية تحررت

من حمل الطفلة والموقف المخيف، وغادرت. لكن التوجس والارتباك غادرا معي. أسئلة كثيرة تعتصرني عن المصير المنتظر. هل ستعترف؟ هل سترشد عن دكتور سراج؟ والسؤال الأهم طبعًا؛ هل سترشد عني؟ سرعان ما تصاعد توجسي لمرتبة الهلع، حتى إني أصبحت أخشى العودة للبيت. كنت أدور في الشوارع بلا هدف، لا أعرف ماذا أفعل. كل ما كنت أرجوه وقتها أن أتمكن من التواصل مع دكتور سراج لعلي أجد عنده ما يطمئنني. بالطبع لم تكن ثمة وسيلة للتواصل بيننا، لكن في هذه اللحظة كنت أفكر أنهم ربما يراقبونني؛ لقد وجدوني من قبل، وحتى حين جلست وحيدة في مقهى لا أعرفه، وجدني الدكتور سراج. ربما سيجدني الآن إذا ما هيأت الظروف المناسبة للقاء. قطعت الشوارع المزدحمة أبحث عن مكان هادئ. مكان بعيد عن الأنظار يغريه بأن يظهر نفسه. كان الظلام قد حل عندما وجدت تلك البقعة الهادئة عند شاطئ النهر، حيث مقعد مخفي تحت شجرة عملاقة. اتخذته مجلسًا وأنا أراهن على الانتظار. لكن في فترة الانتظار داهمتني فكرة جديدة أكثر إخافة؛ ماذا لو ربط المستيقظون بيني وبين اعتقال زميلتهم؟ ماذا إن لم يقتنعوا أن الأمر مصادفة أن تعتقل السيدة بعد أن كشفت نفسها أمامي بيومين؟ أنا لم أكن لأقتنع إن كنت مكانهم. حاولت نفض المخاوف مذكرة نفسي أنهم يراقبونني بالتأكيد، وبالتأكيد يعلمون ألا علاقة لي بالأمر.

طال زمن الانتظار واقترب الوقت من حدوده الحمراء؛ فبعد ساعتين لن أتمكن من بلوغ فراشي في موعد النوم. كدت أنهض يائسة مغادرة لكني وجدته أمامي. لم يكن دكتور سراج وإنما شخص آخر. كان في مثل عمر دكتور سراج تقريبًا وكان متوترًا ويدخن بشراهة. أخبرني أنه جاء

للقائي، فهم يعرفون أني بالتأكيد خائفة الآن. أخذني لسيارته وانطلقنا لمكان لا أعلمه وهو لا يتوقف عن الحديث والتدخين. منه علمت أنه لم يسبق أن تم اعتقال عضو بهذه الأهمية في جماعتهم. فكما أعرف أن تلك السيدة كانت واحدة من قلائل يعرفون حقيقة دكتور سراج، وهو ما يضعه في دائرة الخطر. أخبرني أنهم واثقون في قوتها ويعلمون يقينًا أنها لن تعترف، ولكن هذا لا يمنع أن يختبئ دكتور سراج قليلا. ولهذا كلفه هو بالتواصل معي. عرفت أنه كذلك عضو هامٌّ في المستيقظين، فهو جراح المخ والأعصاب الذي يقوم بإيقاظنا. يعتبر الرجل الثاني في الجماعة، وهو من سيتواصل معي حتى يحين وقتي. كان يدخن بشراهة لا تناسب تصوراتنا الذهنية عن الأطباء. كان يشعل السيجارة الجديدة قبل أن يلقي بقايا سابقتها. أخبرني أن عليَّ أن أعيش حياتي بشكل طبيعي، فربما وضعني رجال التحقيق تحت المراقبة بسبب وجودي في بيت السيدة وقت اعتقالها. أو على الأقل سيجرون عني تحريات سرية. طلب مني أن أهدأ ووعدني بأنهم سيحددون موعد انضمامي لهم في أسرع وقت ممكن. ولهذا هو هنا، فقد قرر دكتور سراج أن تبدأ خطوات إيقاظي حالا. توقفت سيارته عند الباب الخلفي لمبنى ضخم. دعاني للترجل واتِّباعه.

كنت خائفة من تأخر الوقت، فوعدني أن ينتهي سريعًا؛ فهو يجب أن يقوم ببعض الفحوصات والتصوير الإشعاعي لشريحتي حتى يحدد إمكانية نزعها من عدمه. اتبعته صاغرةً، مقاوِمةً دقات القلب المدوية. استغرقت الفحوصات المطلوبة ما تجاوز نصف الساعة، قضيتها في عيادة طبية شبه مظلمة ليس بها سوانا، وكان هو يتحرك بسرعة ليفعل كل

شيء في زمن قياسي. مع الانتهاء كنت قد تخطيت حدود الوقت الحمراء بزمن. لكنه وعدني أن يُقِلَّني بسيارته إلى البيت، وأن يوصلني في الموعد مهما كان الثمن. لكني وصلت للبيت متأخرة وداهمني النوم في الصالة، وأظنك تعرف الباقي، فقد استيقظت في يومي التالي لأجد الضمادات تغطي رأسي، وأنت كنت تحتضنني وكأنما تحميني من الأخطار المنتظرة، ووجدت رسالتك المطولة على لوح التواصل، التي تحكي لي فيها ما فعلته، وتلقنني الرواية التي سيكون عليَّ سردها على آذان رجال التحقيق.

لا أعرف كيف تماسكت لكي أنهي طقوس يومي بشكل طبيعي. في البدء مسحت لوح التواصل كما طلبت مني، ثم تجهزت وغادرت البيت للمدرسة. كانت أعصابي مشدودة، وكل حواسي مشحوذة؛ أذناي تلتقطان أقل حركة خارج باب الفصل، تبحثان عن صوت دبيب أحذيتهم الثقيلة، وأنفي يبحث ـ في كل الروائح المتمازجة في الهواء ـ عن رائحتهم. ساعات من العذاب قضيتها منتظرة محاصرتهم لي بلونهم الأسود. لكن اليوم الدراسي انتهى دون أن يظهروا. عدت إلى البيت مسرعة وكأني أبغي الاختباء ممن أعلم يقينًا ألا مخبأ منهم! قبيل غروب الشمس كنت بلغت حد الاستسلام، وقررت المكوث أمام باب الشقة لا أفعل شيئًا سوى انتظار طرقاتهم. لم أشعر طوال ما فات من ساعات بأي أمل، أو احتمال مبهج في عدم قدومهم. على العكس؛ كان تأخرهم يزيدني توجسًا واشتعالا للخيالات المخيفة. في هذه اللحظة جاء. كان وحده. يرتدي بدلتهم وحذاءهم ويتمخض بعطرهم، لكنه كان مجرد رجل مترهل ملول يبدو أقرب لمحقق روتيني. ضايفته في صالة البيت وجاوبت أسئلته كما أوضحت لي في تدوينتك على لوح التواصل، لكني أضفت عليها من عندي

ما اعتقدت أنه ضروري لإكساب حكايتي مصداقية أكبر، فقلت له: إني تأخرت خارج البيت، وعندما عدت كانت قد تبقت دقائق قليلة على موعد النوم، فكنت أتحرك بسرعة متهورة، فلم أنتبه لطرف السجادة، فتعثرت به. بدا متشككًا وطلب مني رؤية الجرح. أعاد السؤال أكثر من مرة في بعض النقاط. الغريب أنه لم يتطرق أبدًا للسؤال البَدَهِي، والذي قمت بحفظ إجابته طوال النهار؛ أين كنتِ؟ ولماذا تأخرتِ؟ وفي النهاية أغلق صفحاته ونهض وشكرني. استدار نحو الباب نصف استدارة ثم عاد لي ليسألني السؤال المنتظر! السؤال الأهم، اختار أن يلقيه بهذا الشكل العابر المرتجل في نهاية اللقاء، وكأنما يظهر عدم أهميته، لكي يشعرني باطمئنان زائف يفقدني حذري. لكني أعرف تحديدًا ما عليَّ قوله. فأنا قررت مسبقًا أن أعترف في إفادتي أني تأخرت خارج البيت، وأن أقص عليه قصة الطفلة التي أدرسها منزليًّا، وقصة القبض على والدتها، واضطراري لأن أبقى معها حتى يحضر أحد من أهلها. فأنا أعلم أن وجود اسمي في تحقيق رسمي سوف يجعلهم يكشفون ماضي وسوابقي الإجرامية المفترضة. وسيكون من السهل أن يعرفوا أنه في نفس اليوم الذي ارتكبت فيه جريمة النوم خارج فراشي، كنت شاهدة على واقعة اعتقال أحد المستيقظين، وبالتأكيد سيربطون بين الأمرين. ولهذا قررت أن أربط لهما الأمرين بطريقتي، بدلا من أن أتركهم لأفكارهم وشكوكهم التي ستؤدي في النهاية لهلاكي، ولهذا اخترت ذلك المبرر للتأخر. شكرني المحقق وغادر، وترك معي علامة استفهام تبتلع الفراغ وتبتلعني؛ هل صدقني؟

عندما استيقظت في يومي التالي وجدت على اللوح رسالتك التي تمنحني فيها فرصة أخيرة للتواصل معك وتقديم دليل على أني لم أزل

أحبك وإلا فإنك ستتزوج بأخرى. مشاعري تمازجت واختلطت أمام تلك الكلمات. ربما على مستوى العقل هي تدل على مضي خطتي قدمًا بالشكل المطلوب، فها أنت تصل إلى منتهى مراحل الفطام بنجاح. ولكن على مستوى القلب كانت تثير عواصف من الشجن، والذكريات، وخيالات غير محتملة عن وجودك بين أحضان امرأة غيري. لم أعرف بماذا أشعر ولا فيم أفكر. بقيت متسمرة على طرف الفراش أنظر للوح وأعيد قراءة الكلمات مئات المرات حتى فاتني موعد الذهاب للعمل. هاتفت مدير المدرسة وطلبت منه إجازة بحجة المرض المفاجئ. ونهضت إلى اللوح لأمسح كلماتك وأمسك بالقلم وأكتب لك أول رسالة منذ وقت طويل. كتبت أقص عليك كل شيء. كتبت عن قناعاتي وإيماني بأن طريقينا لن يلتقيا حتى نهزم الشر في هذا العالم. أنا وأنت في حالة حرب، كُتِب علينا القتال، وأنا قَبِلْتُه حين اخترت أنت الاستسلام والسباحة في تيارهم. اعترفت لك بحبي، ولكن اعترفت كذلك بعجز الحب وحده عن إقامة الحياة بيننا. واختتمت رسالتي بدعاء صادق أن تجد السعادة مع غيري. وفي نهاية اللوح، وبخط مرتعش، وأحرف كبيرة مستفزة، كتبت لك: طلقني.

لم يكن من السهل أن أتعايش مع باقي اليوم وأنا أعلم أن تلك الكلمات مكتوبة على اللوح. تلك الكلمات هي جزء مني، وكأنها صورة إشعاعية لروحي تكشف لعيني تمزقاتها وانهياراتها. قضيت اليوم في حالة من الكآبة والعزلة عن كل شيء. حتى إني لم أبحث عن الطعام إلا حين صرخت بطني جوعًا قرب المساء. حينها نهضت أبحث في الثلاجة عما يؤكل، فوجدت وجبة طعام جاهز ومعها ورقة تحوي خطك مشكل في كلمتين: من أجلك. تناولت الوجبة باردة ـ وكأنما أعاقب نفسي ـ وأنا

أبكي. وكأن تلك الوجبة قد تصبح آخر ذكرى لنا معًا. لكن قبل أن أنهيها دق جرس الباب. نهضت لأفتح فوجدته جراح المخ والأعصاب جاء حاملا دخان سجائره الذي لا يتوقف.

دهشت لزيارته، لكنه سرعان ما أزاح دهشتي ليحل الخوف محلها. أخبرني أن مصادرهم أكدت لهم أن رجال التحقيق يقومون بأبحاث دقيقة عني. كما توقعت فقد قاموا بربط الواقعتين معًا ووضعوني كشخص محتمل تعاونه مع المستيقظين. أخبرت الطبيب أني تحسبت لهذا وقدمت لهم في إفادتي رابطًا بين الحدثين لعله يبعدهم عني، فأخبرني أن هذا ربما كان يجدي نفعًا، لكن هناك رابط آخر لم أتحسب له، فقد ربطوا بين الواقعتين وبين سلوك زوجي. لم أفهم ما يقصده بسلوك زوجي، فأخبرني أن زوجي تواصل مع محامية حقوقية للطعن باسمه على دستورية بروتوكول تنظيم الوقت. لحظتها ذهب الخوف وعادت الدهشة، لماذا لم تخبرني بتلك الخطوة وأنت تخط لي أدق التفاصيل على اللوح. الطبيب أخبرني أن الأمر بات مسألة وقت، وطلب مني أن أنام الليلة وحين أستيقظ بعد غد سأذهب فورًا لعنوان منحه لي مكتوبًا في ورقة، وطلب مني حفظه والخلاص من الورقة. كنت أرتجف وأنا أسأله لماذا لا أذهب معه الآن. فأجابني بأن العملية الجراحية تحتاج وقتا للإعداد لها ولن نستطيع إتمامها الليلة، وإن بت ليلتي بعيدًا عن فراشي في حين أن الشريحة لم تزل متصلة بجهازي العصبي، فإنها سترسل موقعي فورًا لإدارة التحقيق، وستكون نهايتي. وحتى إن اتصلت بوزارة السكان لطلب إذن بالمبيت خارج بيتي، فسيكون هذا مثيرًا للشكوك بشكل كافٍ. كان تبريره مقنعًا، فاضطررت للإذعان، وانتظار صباحي التالي، عسى أن تغفل عني أياديهم

حتى الوقت المنشود. بمجرد أن غادر عدت إلى حجرة النوم ووقفت أمام اللوح أفكر أن أخط لك تحذيرًا، لكني قدرت أنك ربما بعيد عن الخطر. لكن في هذه اللحظة وجدت رسالتي سخيفة، ولا تبدو كرسالة تحض على الفراق كما تمنيت، بقدر ما هي رسالة محبة وإعلان تمسك ضمني بين السطور. قدرت إنك إن قرأت رسالة تحمل هذه العاطفة فقد تزداد تعلقًا بي، وأنا على وشك الرحيل يا صغيري؛ لذلك مسحت الكلمات، ولم أكتف بهذا، وإنما محوت كل أثر لها، وغسلت اللوح بالماء حتى عاد أبيض فارغًا كما يفترض أن يكون الشعور الرابط بيننا.

في موعدي اندسست في الفراش ونمت. وحين صحوت عرفت ما فعلته. في البدء استنتجت الأمر من الألم، ثم أدركته من الآثار التي أغفلت محوها، ثم تيقنته من إحساس ثقيل بالتدنيس اجتاحني، وبلغ حتى أدق الخلايا المجهرية في جسدي. شعور وكأنما تمزقت لقطع غير مرئية، ثم أعيد تجميعي على عجل بشكل خاطئ! كرهتك وقتها، لكنها كانت الكراهية المفيدة التي أشعلت محركاتي لتنطلق نحو مغامرتي القادمة. الآن ما عاد من شيء يربطني بك، ولا حتى مشاعر الشفقة. أنت مزقت ـ مشكورًا ـ كل شيء حتى روابط الذكريات. الآن صار بمقدوري أن أنهض، وأغتسل من جريمتك، وأغادر البيت بلا عودة.

لا داعي لأن أقص عليك تفاصيل كل ما فات من أعوام، حتى بلغنا لحظتنا تلك. فلا أظن أن رحلتي في مخبأ المستيقظين تعنيك في شيء. ما يهمك معرفته هو أني بعد وقت اكتشفت كم كنت مخطئة حين ظننت أن كل الروابط بيننا قد قطعت في لحظة الرحيل. فالحقيقة عكس هذا

تمامًا. ففي تلك اللحظة وضع رابط بيننا أقوى من كل ما عهدناه منذ اللقاء الأول. الرابط الأقوى على الإطلاق الذي طالما تمنيناه دون أن ننعم به. لقد اكتشفت أنك في تلك الليلة زرعت بداخلي بذرة. نعم لقد حملت في طفلك. وهذا هو السبب الثاني الذي دفعني لمسامحتك كما أشرت في بداية تلك الرسالة الطويلة. فما فعلته وهبنا حياة جديدة تربطنا معًا. وإكرامًا لحبنا، وحكايتنا، قررت أن يكون طفلنا هو الثائر الأقوى، والمناضل الأشرس، والمقاتل الأشجع. وإن سارت الأمور كما تمنيتُها، فسيكون هو من يوصل لك هذه الرسالة.

توقف عن القراءة الآن، فقد انتهت الرسالة كما انتهت رحلتي. والآن ارفع رأسك واستقبل حياتك الجديدة. حياتنا معًا، فربما هي تجلس أمامك الآن.

زوجتك للأبد:

هالة

***

ارتجافة اليدين كانت أقوى، حتى إني مارست جهدًا للسيطرة عليها. وضعت الأوراق جانبًا ورفعت نظراتي نحوه. كان جالسًا يهز ساقيه كاشفًا عن توتر في أعماقه، أو ربما غضب، أو بركان على وشك الانفجار. كانت بعضًا من حمم البركان تطل من نظراته تجاهي. لا أعرف هل كان ما أراه حقيقة أم خيالًا. هذه ليست نظرات ابن لأبيه. هذه نظرات ابن لمغتصب أمه! فهل هذا كل ما يحمله من شعور تجاهي؟ ولكن السؤال الأهم الآن؛ ما هو طبيعة الشعور الذي أحمله أنا تجاهه؟ الآن أتأمله بنظرات

محايدة مرتبكة، لا أعرف إن كنت أحبه أم أكرهه أم أخشاه. ليس هذا ما أردته. وجوده لن يشكل لي تعويضًا عن غيابها. أي ابن هذا الذي لم أستشعر طرقاته الأولى على جدار بطنها؟ أي ابن هذا الذي لم أسمع أول كلماته، أو أتلقى على خدي تجاربه الأولى المرتبكة للتقبيل؟ لن أكذب على نفسي، فالمزروع بيننا الآن هو رباط ثقيل مفروض على كلينا. لكني سعيد؛ لأن نظراته النارية غير المفهومة تلك، وتوتره الظاهر على حركة ساقيه، وعلى عدد أعقاب السجائر الملقاة تحت قدميه، كلها أمور تؤكد ألا داعي لتقمص مشاعر أبوية لا أشعر بها حقًا.

ـ والآن؟

تساءل منتظرًا مني أن أرسم طبيعة القادم من علاقتنا، فلم أترك لنفسي مساحة للتفكير أو التدبر، وانحزت لاندفاع الصدق مع الكلمات..

ـ أنا فقدت للتو آخر أمل لي؛ فقدت هالة. ومن قبلها فقدت عملي، وفقدت حياتي. أنا لا أجد سببًا مُلِحًّا لوجودي على قيد الحياة. ولا أعرف لماذا اختارني الله دون المئات لِأَنْ أمرَّ بتلك التجربة وأخرج منها دون موت أو جنون. والآن تظهر أنت. ربما هي فرصة جديدة للحياة. طوق نجاة أُلْقِي لي. ولكني لا أعرف كيف أتشبث به. لا أعرف إن كان أصلا يحق لي التشبث به أم لا! أنا في حيرة عظيمة، ولا أعرف ماذا يفترض أن يكون.

أشعل سيجارة جديدة، وعلى عكس اندفاعي، بدا هو متمهلا، يبحث عن الكلمات بتدقيق واهتمام. حتى إنه انتظر لثلاثة أو أربعة أنفاس من سيجارته قبل أن يتحدث:

ـ أظن أننا في لحظة يصعب فيها التلاقي. أنت تعلن مغادرتك للحياة، في حين أبدأ أنا الخروج للحياة. لقد قضيت عمرًا كاملا لا أعرف من الحياة سوى المخابئ، ورفاق السلاح، وعالم تحت الأرض لا يرى الشمس. أنا إنسان مقطوع عن هذه الدنيا. عشت لهدف وحيد، وها قد بلغته، ولا أعرف إلى أين سيأخذني التيار بعدها.

مد يده في جيبه وأخرج مظروفا منتفخا وضعه أمامي..

ـ هذا مبلغ مالي سيعينك على الحياة حتى أعثر لك على وظيفة مناسبة.

هززت رأسي رافضًا..

ـ أنا لن آخذ من أموالك.

ابتسم تهكمًا..

ـ أنا لا مال لي. اعتبرها إعانة من الحكومة. رغم كل شيء أنت أحد أبطالنا الآن. فنحن نعتبرك رمزًا استثنائيًّا للصمود.

مد يده في جيبه مرة أخرى وأخرج ورقة مطوية وضعها أمامي بجوار ظرف النقود..

ـ في هذه الورقة أرقام هواتفي. أرجو أن تتواصل معي فقط في حالات الضرورة القصوى. لا أريد اتصالات عاطفية، أو اتصالات في سبيل واجبات أبوة غير مرغوب فيها. يمكن أن تعتبرني صديقًا لك، ولكن ليس ابنًا.

لم أتوقع منه هذا المستوى المرتفع من الصراحة، لكنه أراحني كثيرًا.

ـ هذا منطقي.

نهض مستعدًا للرحيل..

ـ لا تأخذ الأمر بشكل شخصي. فأنا ابن المستيقظين، وهو ما يكفيني. انتمائي الوحيد للبلد ولجماعتي. ولا حاجة بي لأسرة أو أبوين. لقد نبذت العلاقات الإنسانية منذ وفاة أمي، ووجدت في هذا راحة عظيمة.

أنهى جملته ثم اتجه بخطوات مسرعة ثقيلة نحو الباب. لم يهتم بإلقاء كلمة وداع. فقط انصرف، وترك من ورائه دَوِيَّ انغلاق الباب يلقي كلمة النهاية.

***

بعد يومين وردتني مكالمة هاتفية من مسئول شاب في وزارة العمل، يخبرني أنهم عثروا لي على عمل ملائم، ويطلب مني التوجه صباح اليوم التالي إلى أحد المصانع في المنطقة الصناعية خارج المدينة. عندما صمتُّ كنت أفكر في بُعد المسافة وطول المشوار ومشقته، لكنه أجاب أفكاري موضحًا أن ثمة سيارة تابعة للوزارة ستمر عليَّ صباح الغد لتقلني إلى الموعد المنتظر مع مدير شئون التوظيف في المصنع. شكرت الشاب وأنهيت المكالمة بمشاعر متراقصة بين الفرحة والتوجس. فرحة استعادة قدر من الحياة، والتوجس من الخروج من شرنقتي الحبيبة ومعاودة التعامل مع البشر. بشر حقيقيون هذه المرة ـ كما يفترض ـ وليسوا مجرد كومبارس في كوابيس مخيفة.

قضيت الليلة في الاستعداد. كويت ملابسي، ولمعت حذائي، وحلقت ذقني. دخلت فراشي مبكرًا؛ خوفًا أن يضيع عليَّ أي قدر من النشاط الصباحي، فأفشل في اجتياز اللقاء المرتقب. لكن النوم تسرب من بين

خلايا عقلي هاربًا حتى ساعات الصباح. فقد كنت أتأهب للقائه، حين تقلبت في فراشي فسقطت نظراتي على اللوح لأجد الجملة المكتوبة عليه قد تقلصت أكثر، وأصبحت: (لا تبحث)! واختفت في ظروف غامضة كلمة: (عني)، كما اختفت قبلها كلمة: (أبدًا)! نهضت جالسًا أتوثق مما رأته عيناي. الأمر مثير وغامض. هناك من يتلاعب بي هنا. نهضت إلى اللوح ومسحت الكلمات من فوقه. أخيرًا مُسحت كلمات هالة من فوق اللوح بعد سبعة وعشرين عامًا! لكني شعرت لحظتها أني ما عدت بحاجة إليها بعد أن بلغت اليقين بمصيرها المؤلم، وما عاد في قلبي من بقايا للأمل المحترق بعودتها. عدت إلى الفراش مناديًا النوم، لكنه ـ كما قلت سابقًا ـ تَمَنَّع حتى شروق الشمس.

في الصباح ناوشني بعض النوم وأنا مُسترخٍ في المقعد الخلفي للسيارة الحكومية الفارهة. ولكن هذه الغفوات القصيرة الإجبارية أصابت عقلي بالمزيد من التشويش، فلم أكن في كامل تركيزي خلال مقابلة العمل مع مدير شئون التوظيف الأنيق المبتسم دومًا. لكن مع توالي الأسئلة وكلمات المجاملة أدركت أن تركيزي لا علاقة له بالأمر، فإجراءات تعييني في المصنع كانت قد تمت بالفعل، وأدركت أن المعاملة التي أتلقاها ليست طبيعية، وإنما وليدة توصية من قيادات مهمة بالحكومة الجديدة. حتى إن الرجل عرض عليَّ اختيار الوظيفة المناسبة في إدارة المصنع، لكني أخبرته أني عامل، ولا أعرف أن أكون أي شيء سوى هذا. فوعدني بأن يضعني على أحد خطوط التصنيع طالما أنها رغبتي. كذلك رفضت أن تُخصص سيارة لي للذهاب والعودة، وفضلت أن أستقل حافلة الشركة وسط زملائي المستقبليين. شكر الرجل تواضعي وأثنى عليه كثيرًا. ووعدني

بأن أتسلم عملي بداية من صباح الغد. صحبني في جولة سريعة داخل المصنع، ثم أوصلني حتى باب السيارة وظل واقفًا يلوح لي مودعًا حتى غابت السيارة عن نظره.

في رحلة العودة لم تعاودني نوبات الوسن، وبقيت مستيقظًا، مستشعرًا بعض الضيق بسبب غرابة ما يحدث. طوال حياتي لم أَعْتَدْ تلك المعاملة المميزة من أحد. أنا لست شخصًا مهمًّا أو ذا شأن. أنا هو أنا، كما كنت طوال حياتي. عندما دخلتِ السيارة لحدود المدينة زاد إحساسي بالضيق والاغتراب. صار البيت قريبًا فطلبت من السائق أن يتركني هنا لكي أتمشى قليلا. تردد الرجل في إجابة طلبي، وكأن في الأمر مسئولية على عاتقه. ذكَّرته مبتسمًا بكلمات مختبئة وراء ظهر المزاح، أني لست معتقلا هنا. فابتسم الرجل محرجًا وهو يوضح لي أن اليوم ليس مناسبًا للتمشية، بسبب بعض التوترات المتوقعة في الشوارع. لم أفهم ما يقصده، لكنه واصل مؤكدًا على أن الأوامر التي حصل عليها تقتضي بألا يتركني سوى أمام باب بيتي مع التأكيد على سلامتي.

كنا على بعد عدة شوارع من البيت عندما توقف طريق السيارات تمامًا. زحام وتلاصق وأصوات أبواق السيارات تتطاير في الفضاء بشكل عبثي. لم أفهم سببًا لما يحدث لكني خمنت أن هذه هي التوترات التي قصدها. بدا السائق مرتبكًا وهو يعتذر لي، ويدعو الله ألا يطول أمد الأزمة. لم أنتظر منه أي توضيح عن طبيعة تلك الأزمة، شكرته بكلمة سريعة مقتضبة وفتحت باب السيارة وترجلت. لم أبال بندائه عليَّ وأنا أسرع خطواتي نحو البيت هاربًا منه. لكن مع التقدم كانت الخطوات

تتباطأ بفعل احتكاك أجساد البشر في ازدحام متزايد. لم أفهم ما يحدث سوى بعد فترة، عندما لاحظت أن توتر الحركة ينتظم شيئًا فشيئًا كلما ازداد الازدحام. والصيحات المتفرقة تتناغم في هتافات متحدة. فأدركت أني أسير في قلب تظاهرة احتجاجية صغيرة. شعرت ببعض التوتر وحاولت إسراع خطواتي، مع استخدام قدرٍ من الدفع بالكتف والمرفقين للانسلاخ من الزحام. لكن تيار الأجساد كان قويًّا، قادرًا على أن يجرفني بعيدًا عن مساري. هنا شعرت بوجودها. شعرت به قبل أن أراها. وأنا أتلفت حولي وأشرئب بعنقي محاولا تمديد البصر فوق الرؤوس وبين الأكتاف، كنت أبحث عنها، مدركًا ـ بيقين غير مفهوم ـ قربها. وبالفعل رأيتها هناك. كانت واقفة على جانب الطريق خارج حدود المظاهرة، تنظر لما يحدث بعينين حزينتين. رؤيتها مدت جسدي بكثير من الطاقة، فزادت قوة دفعي للأجساد، وصار البدن أكثر مرونة وقدرة على الانفلات من بين المتلاحمين. في حين لم أتركها تغب عن نظري. برغم قيام البعض برد الدفعات لجسدي، وبرغم الحصار الذي يزداد خِناقُه حولي وكأنما بشكل متعمد، لكني قاومت مصممًا على الوصول إليها. لن أتركك تغيبين عني مرة أخرى يا هالة. أعلم أنك مجرد وهم. لكني أعشق الأوهام طالما أنك في قلبها. كدت أجتاز نهر الأجساد، وكانت الضفة قريبة حيث تنتظرني هالة. لكن قبل تمام العبور جذبتني يد قوية من كتفي. كان ذلك الشاب يدفعني لمواجهته قاصدًا تفحص ملامحي. عندما اكتملت له الرؤية تهلل وجهه وصاح فيمن حوله ـ بصوت تجاوز ضجيج الهتاف ـ ليبشرهم أن بطل الصمود بينهم، يشاركهم غضبهم ومطالبهم. قبل أن أدرك ما يحدث كنت مرفوعًا فوق الأعناق، والهتافات حولي تزداد حماسة وجنونًا، وصرت

ـ دون أدنى أمل في مقاومة ـ أسيرًا عاجزًا للتيار الجارف، يأخذني بعيدًا عنها. كنت أرمي نظراتي للوراء تجاهها، وكانت هي تبتعد عني، وتذوب في الغياب شيئًا فشيئًا. وحين غابت توقفت المسيرة ـ وكأنما أدت غرضها بالتفرقة بيننا ـ أمام هجوم من رجال الأمن. كلٌّ فَرَّ من طريق، وتركوني أسقط. بمجرد أن لامست قدمي الطريق، أطلقت لهما العنان لِيقوداني نحو الخلاص.

***

قضيت ساعات في البيت بملابس الخروج أحاول التماسك واستيعاب ما حدث. لم يزل البدن يعاني الآلام تحت ضغط أي جهد مفاجئ بعد اعتياده قضاء سبعة وعشرين عامًا في نوم شبه متواصل. احتجت وقتًا لأتمالك أنفاسي ولتهدأ صرخات العضلات والمفاصل. وأمام التليفزيون حاولت أن أفك شفرة ما حدث. لم تنقل الشاشات أي شيء عن تلك الأحداث المفاجئة في الشوارع. لكن بعد فترة جاء البيان من المذياع العام. صوت انطلاق الصافرة المعتادة زرع في قلبي مشاعر بين الدهشة والاشتياق. حالة من الحنين أثارها ذلك الصوت الذي أسمعه بعد غياب. أعقب الصافرة صوت بيان مسجل يحمل نبرات دكتور سراج، يخبر الشعب أن قرار الحكومة الجديدة بالإبقاء على شرائح التحكم العصبي لا يضمر أي شر، ولا داعي لهذه الموجة الاحتجاجية التي يبدو واضحًا أنها مدبرة من رجال الحكومة السابقة. فالأمر وما فيه أن حكومة المستيقظين في حالة ترتيب أولوياتها في هذه اللحظة. وإننا لم نزل في مرحلة سداد فواتير الفساد الذي أغرق الشعب لعقود، وليس لدينا القدرة حاليًا لتحمل التكلفة المادية العالية

لنزع الشريحة من كل أفراد الشعب. الأمر ـ كما يعد دكتور سراج ـ مجرد إجراء مؤقت حتى تستقر الأحوال.

تكرر البيان مرتين أُخريين في أوقات مختلفة من اليوم، وكنت أنا قد استعدت الهدوء وشيئًا من سكينة الاعتياد وقد عاد يومي لوتيرته الروتينية. بدلت ملابسي وطهوت شيئًا من الطعام وتناولت الغداء. جهزت ملابس الصباح واعتزمت النوم مبكرًا حتى لا أتأخر عن الحافلة في أول أيام العمل. لكن هاتفي رن قبيل ملامسة الفراش ليفسد مخططي. متوجسًا أجبت رنينه، فكان الصوت المنهك المتحشرج يأتيني من الطرف الآخر حاملا نحيب بكاء..

ـ سمير؟

سألت متيقنًا مما استنتجته، فأجابني بكلمات مغتصبة من انفجارات البكاء:

ـ إنه أنا يا أكرم. أنا لا الزمن. أنا من أفسدت كل شيء.

ـ ماذا تقصد؟

لم تأت إجابته إلا بعد ثوان عديدة من النشيج..

ـ كنت أظن الزمن هو الوحش هنا. ولكن في الحقيقة إني أنا من أفسدت حياتي. لقد اكتشفت الآن أني أحبها، وأريدها هي.

لم أشعر بذرة تعاطف معه، وربما كنت قاسيًا وأنا أقول:

ـ كلا يا سمير. أنت لا تحبها، ولا تريدها، أنت فقط وحيد. قبلا كنت تريدها كوعاء للجنس، والآن أنت تريدها لتؤنس وحدتك. وربما تريدها لتخدمك. لكنك لم تحبها يومًا.

هدأ صوت البكاء، وبقيت الأنفاس الثقيلة المريضة تستحوذ على أذني. كان مصدومًا من صراحتي ربما، وكان كذلك عاجزًا عن النطق، فقط ردد دون هدف:

ـ أنا... أنا...

فعزمت أن أطلق كلمة النهاية..

ـ لقد ماتت هالة يا سمير. انتهت حياتي وصرت أشعر براحة الموتى. وغدًا ربما أذهب لحياة جديدة وميلاد جديد. ربما هو أمر أشبه بتناسخ الأرواح، لا أدري. ما أعرفه أن أكرم الذي تعرفه أنت مات بالأمس. وغدًا سيولد أكرم جديد لا تعرفه، وربما لن تعرفه أبدًا.

قلتها وأغلقت السماعة دون تحية، وذهبت للنوم.

***

العمل في المصنع الجديد لم يختلف كثيرًا عن عملي السابق. الفارق الأكبر أني أعرف الآن تحديدًا ما أصنعه. كنت أتولى خطًا لإنتاج بطاريات أجهزة العرض الصغيرة. العمل ليس صعبًا، ولم أحتج لوقت طويل لأتعرف على خباياه وتفاصيله الدقيقة. لكن حركتي لم تعد بذات السرعة المعتادة، وقد أصاب مفاصلي قدر من تيبس العمر الذي تضاعف عشرات المرات مع طول السبات. لكني عوضت بطء الحركة بصب كامل تركيز العقل فيما أفعله. حتى في وقت استراحة الغداء، لم أشعر بجوع، فواصلت العمل على الماكينة دون أن أشعر بمرور الوقت حتى انطلاق صافرة نهاية الدوام. عدت إلى البيت نحو المزيد من الروتين. في الصباح أمارس روتين العمل، وعند نهاية اليوم أقضي الساعات في روتين المنزل. الروتين يتوالى.

تتغير طبيعته حسب ساعات اليوم، بين روتين الربط والدق والتقطيع والتركيب، وبين روتين الطعام والتلفاز والنوم منزوع الأحلام. لم ينقطع الروتين سوى في ليلة جاءت بعد فترة من الركود لم أحصها. كنت أتناول العشاء أمام التلفاز كما يقتضي روتين المساءات المنزلية، وكان التلفاز يعرض كالمعتاد أحدث جهود حكومة المستيقظين في ملاحقة بقايا أعوان الحكومة السابقة. وفي وسط التقرير وجدت صورتها، وحديث هجومي عنيف يصفها بواحدة من أفاعي الحكومة السابقة، التي تبث سمومها متشحة برداء الوطنية! احتجت وقتًا للتحقق من ملامحها، فقد كانت ملامح قادمة من بعيد؛ من أعمق نقطة في الذاكرة، مكسوة بآثار سبعة وعشرين عامًا. لكن في النهاية نجحت في استدعائها لأطراف الذاكرة؛ صفاء الراعي، المحامية المشاغبة.

كنت في حالة من الغضب والثورة، أروح وأجيء في المنزل بلا هدف خارقًا كل خطوات الروتين الليلي. أنا لم أغضب هكذا عندما تم اعتقالي أنا شخصيًّا، فما بالي أبدو الآن على وشك الانهيار؟! الخبر بالنسبة لي كان محزنًا. ورؤية هذه السيدة ذليلة في أصفادها بين شابين مسلحين، وكأنما يتضمن إهانة لي أنا، إهانة لحكايتي، إهانة لذكرى هالة. لا أعرف لماذا أثار الخبر في نفسي هذه المشاعر المعقدة. لكن هذا ما حدث، وهذا ما جعلني أريد أن أفعل أي شيء. فاستخرجت الورقة المكتوب فيها أرقام هواتف نوح من بين أطلال مهملاتي، واتصلت به. جربت الاتصال مرارًا، على كل الأرقام المدونة في الورقة، دون أن أصل إلى أية نتيجة. حتى أصابني اليأس، ووضعني تحت طائلة النوم، فنمت كمدًا.

في الصباح حاولت وضع الغضب في ركن منعزل حتى لا يكبل قدرتي على أداء مهام عملي، لكن الأمر لم يكن هينًا، والغضب كان كطفل لعوب كثير الحركة، يتقافز هنا وهناك بجنون، فلا أقوَى على كبته أو السيطرة عليه. والنتيجة رعشة في اليدين وأنفاس غير منتظمة وأداء سيئ بشكل ملحوظ. عزائي أن محاولات ترويض النفس تلك لم تدم طويلا، فبعد ما يقل عن الساعتين من انطلاق صافرة بدء العمل، نودي اسمي في المذياع الداخلي باستدعاء عاجل لمكتب الإدارة. وهناك وجدت من يخبرني أني مطلوب حالا في وزارة السكان. استعدت لحظتها الكثير مما فات. استعدت صورًا، ومشاعر، ومشاهد كاملة مقطوعة من أحداث دارت في هذا المكان وأحالت حياتي جحيمًا. ارتجف جسدي مع تخيلات بشعة لما قد ينتظرني هناك من جديد. حتى إن الرجل وضع يده على كتفي بحركة ظاهرها الود، لكن بدا واضحًا أنها تهدف لمنعي من السقوط، وهو يقودني إلى خارج المصنع حيث تنتظرني ذات السيارة التي قادتني إلى هنا في يومي الأول، وأمام بابها الخلفي ينتظرني نفس السائق. فتح لي الباب ودعاني للركوب باحترام وتوقير أذهب عني قدرًا من التوجس، فركبت محاولا الاسترخاء.

بعد دقائق كان السائق يفتح لي الباب مرة أخرى ويدعوني للترجل أمام الباب الرئيس للوزارة. ومن ورائه يتقدم شاب أنيق ليستقبلني بابتسامة واسعة مرحبة. كان الشاب يتحدث بسرعة وبكلمات موجزة محددة ولكنها كثيرة، وكأنما يلقي ما حفظه وتدرب على إلقائه عشرات المرات. كلمات بدأت بالترحاب، ثم بالكثير من المعلومات عن عمل الوزارة ومنهجها الجديد في ظل حكومة المستيقظين، وهو يقودني في رحلة طويلة

بين مكاتب وقاعات وأوراق؛ كلماته كانت تحكي عن كم المعاناة التي يبذلها رجال الحكومة الجديدة لاستخراج المعلومات وتنظيمها ومعرفة كل شيء عن أدق تفاصيل ما كان يصاغ في هذا المكان من مؤامرات ضد الشعب. كنت أتنقل وراء الشاب من حجرة لحجرة، ومن كلمة لكلمة، دون أن أنطق حرفًا، أو حتى أتساءل عن جدوى كل هذا، أو عن سبب وجودي هنا. في النهاية وضعني على مقعد مريح في حجرة انتظار صغيرة، وغادرني وهو يبشرني بأن الرائد نوح سوف يأتي حالا للقائي. عندها نطقت لأول مرة ملقيًا على أذنيه كلمة شكر مبهمة. غادر وتركني وحيدًا لدقائق، قطعها دخول فتاة جميلة تحمل كوب قهوة وضعته أمامي وانصرفت. وقبل أن أنهي منه الرشفة الأولى كان الباب يُفتح ويدخل نوح. ألقى جسده على المقعد المواجه مُطلِقًا آهةَ ألمٍ وارتياحٍ، معلنًا حاجة بدنه لتلك اللحظات من الراحة. لم يُلقِ السلام حتى. تأملني بملامح لا تخبر بأي شيء، ثم ـ كعادته ـ أشعل سيجارة..

ـ والآن؛ ما رأيك فيما شاهدته هنا؟

نظرت له باستفهام، فأضاف موضحًا:

ـ أنت دخلت هذا المكان من قبل. فبالتأكيد لاحظت ما نبذله هنا من جهد لتسيير الأمور.

هززت رأسي بموافقة كاذبة، وأيدتها بكلمة:

ـ بالطبع.

وضع ساقًا فوق الأخرى، وانشغل لفترة بتأملي من وراء دفقات دخان سيجارته. شعرت بقدر من التوتر، فقلت محاولا بدء الحديث:

ـ رائد؟

أتبعتها بابتسامة فخر أفلتت مني مراوغة إرادتي..

ـ لم أعرف أن لك رتبة عسكرية؟

ابتسم لثانية ثم تجهم..

ـ كل الأبطال كذلك.

هززت رأسي متفهمًا..

ـ لقد حاولت مهاتفتك بالأمس.

ـ أعرف؛ ولهذا أحضرتك إلى هنا.

انتبهت مستشعرًا أن الحوار يتجه أخيرًا لمدخله الرئيس، بعد دقائق من مراوغات لا داعي لها..

ـ لقد أردتك أن ترى كل هذا. أنت في النهاية أحد رموز حركتنا كما قلت لك من قبل، حتى وإن لم تقصد ذلك. وعليك أن تعرف حقيقة ما يجري. لقد ورثنا تركة ثقيلة. بلدا ممزقة ومشوهة. كل هذا المبنى أمامك. كل تلك الحجرات. كل الأرفف. وكل ورقة هنا تحمل لنا عبئًا علينا إزالته عن كاهل هذا الشعب. ولكن كيف نرفع عن الناس عبئًا نحن لا نفهم أبعاده بعد. نحن لدينا طريق طويل وشاق، ونحتاج لدعم وتكاتف كل الشعب. لقد نفذنا وعدنا وأوقفنا العمل ببروتوكول تنظيم الوقت. والآن الناس سعداء فقد التأم شملهم من جديد. ونحن سعداء بسعادتهم برغم ما يكلفنا هذا من جهد واستهلاك للموارد فوق طاقتنا. الأمر وكأن سكان الدولة تضاعفوا دفعة واحدة. لدينا الآن ضعف العدد من الناس علينا تقديم الطعام

والعلاج والتعليم لهم. هل تتخيل هذا؟ ماذا كنت ستفعل إن كنت مكاننا؟

صمت معلقًا محاضرته الطويلة لحين تلقي جواب مني، فلم أدر ما أقول. كنت أنصت له صادقًا لكن ما كنت أتبع كلماته بعقلي، وإنما كان حديثه يدفعني لمسارات من خيالات وتوجسات غير وردية اللون تمامًا.

ـ لا أعرف.

ـ أنا أعرف؛ كنت سترتب أولوياتك. وهذا ما فعلناه. فكان من البَدَهِي أن يأتي موضوع نزع الشريحة في مرتبة متأخرة. في النهاية هي مجرد شيء لا جدوى منه، بلا أي استخدام الآن. فهل من المنطقي أن ننفق المليارات لنزعها على حساب إطعام الناس وتوفير العلاج والأمن والتعليم لأبنائهم؟

هززت رأسي موافقًا..

ـ أنا أتفهَّم هذا، ولكن...

قاطعني:

ـ صفاء الراعي لم تتفهم الأمر كما تفهمتَه أنت الآن. برغم أننا حاولنا معها كثيراً. نحن كنا نتمنى أن تنضم لنا وتصبح عضوًا فاعلا في حكومتنا الجديدة. لكنها أصرت على اتخاذ موقف عدائي غير مبرر.

قلت بسرعة وكأنما أخشى منه مقاطعة جديدة..

ـ أعتقد أنه مبرَّر؛ الإبقاء على هذه الشريحة غير مضمون العواقب.

بذات السرعة قال:

ـ الأمر مؤقت. وهذا ما أكده دكتور سراج مرارًا. فلا أجد أي داعي لإثارة هذا القدر من البلبلة.

صمت لفترة هذه المرة محاولا العثور على صياغة مناسبة للكلمات المتزاحمة في رأسي. وكانت سيجارته قد انتهت وانهمك في إشعال أخرى، عندما قلت:

ـ كل ما أرجوه أن تتركوها دون عقاب. هذه المرأة لعبت دورًا هامًّا قبل الثورة. وكانت نصيرًا حقيقيًّا للفرقاء المظلومين. أنا لا أطالب بتكريمها، ولكن على الأقل لا تؤذوها.

هز رأسه وقال:

ـ الأمر ليس بيدي. هي الآن في يد القضاء، ونحن لا سلطة لنا على القضاء.

تمسكت بالأمل الأخير.

ـ هذه المرأة أنقذت حياة أمك في يوم من الأيام. لولاها لسجنت أمك بدلا مني.

نهض واقفًا معلنًا ألا جدوى من الاستمرار في التشفع..

ـ كما قلت؛ الأمر ليس بيدي. وكل ما أرجوه ألا تتحدث مع أحد في هذا الأمر مرة أخرى. نحن نواجه الكثير من الأعداء، وهو ما يجعل صبرنا ينفد سريعًا. فلا تتكئ على العلاقة الشخصية التي تجمعنا، أو تعتمد على كونك رمزا وطنيا. ففي النهاية الدولة أقوى من أي شيء. وستسحق كل من يحاول الوقوف في طريقها.

كان يتحرك نحو الباب تاركًا تهديده الصريح عالقًا في المكان، حين

أدركت حقيقة بسيطة، تاهت عن عقلي تحت وطأة سخونة الحوار..

ـ كيف عرفت أني كنت أتصل بك من أجل صفاء الراعي؟!!

توقف عند الباب واستدار ليواجه نظراتي المتسائلة..

ـ أنت قضيت من عمرك سبعة وعشرين عامًا في كابوس طويل. والآن تحصل على فرصتك للراحة. فأرجوك استغل الفرصة. أرح عقلك من التفكير. استمتع بأعوام من التقاعد. تزوج. عش حياة ملائمة، واترك كل ما فات وراء ظهرك. والأهم، ألا تزعجني مرة أخرى لأي شأن تافه.

خرج من الباب وتركه مفتوحًا، وترك سحابة دخان صغيرة يبددها الهواء الكسول على مهل.

***

في اليوم التالي لم أذهب إلى العمل. في البدء لم أتلمس سوى شعور بالخمول والتكاسل هو ما دفعني للبقاء في الفراش وعدم الاستجابة لصرخات أجراس التنبيه الصباحية. لكن مع طول الرقاد، ومع صعود الشمس إلى منتصف السماء، ومع رشفات فنجان القهوة السادة، أدركت أن الأمر لم يكن عفويًّا تمامًا، وأنني ربما في مستوى ما من عقلي كنت أتعمد التمرد والسخط على الحياة التي رسموها لي. أنا لا أريد العمل الذي وفروه لي، ولا أريد النقود التي منحوها لي. لكن السؤال الذي جمَّد حافة الفنجان فوق طرف شفتي السفلى؛ هو: وماذا أريد إذن؟ الإجابة السهلة الوقتية كانت أني أريد المزيد من النوم. لعل النوم يزيح عن عيني غشاوة الحياة، ويوصلني بشكل أفضل بأعماقي، فأرى طريقي بشكل أكثر وضوحًا. عدت إلى الفراش، ورحت في الغياب لفترة طويلة.

نهضت من النوم الآخر وقد أظلم العالم، وخواء البطن يصرخ طالبًا رحمتي. اتجهت مترنحًا نحو الثلاجة أبحث في أحشائها عما يرضي الجوع، لكنها كانت خاوية تمامًا. ذاكرتي تخبرني أن شيئًا ما خاطئًا يحدث هنا. لقد كان بالثلاجة طعام وزجاجات ماء وعصير؛ أين ذهب كل شيء؟! أغلقت الثلاجة على خوائها ويأسي، وقطعت الخطوات المندهشة نحو صالة الشقة. كان الضوء هناك ساطعًا، وعلى طاولة الطعام أطباق عامرة متراصة تحوي أصنافا من ألوان وطعوم وروائح. تسمرت في مكاني أتأمل مأدبتي القادمة من المجهول. وعلى رأس المائدة المتخمة كان يجلس هو. تمامًا كما رأيته مرارًا في التليفزيون؛ ذات الهيئة والفخامة والمهابة، وكان يبتسم في وجهي ذات الابتسامة الودودة المحببة التي يرسمها دائمًا في مواجهة المايكروفونات. قال بين تساؤل وتقرير واقع:

ـ لا أظن أننا بحاجة لإجراء تعارف روتيني؛ أليس كذلك؟

سألته:

ـ كيف دخلت إلى هنا؟

اتسعت ابتسامته وقال:

ـ لقد ظننتك أذكى من هذا. فليس هذا هو السؤال الصحيح.

ـ وما هو السؤال الصحيح؟

صمت للحظات مفكرًا..

ـ سؤال ودود بسيط ربما. شيء مثل: كيف حالك؟ أو: ماذا تحب أن تشرب؟

لم أفهم كيف يتوقع مني أن أتلقى ما يحدث بهذا القدر من البساطة

والاعتيادية. ظننته يراوغني، لكني فضلت المضي في طريق واضح. فقلت شارحًا ما يجول في خاطري:

ـ لقد كنت نائمًا وأيقظني الجوع. فنهضت لأجد ثلاجتي خاوية، وأجد طاولة عامرة بالطعام، وعلى رأسها يجلس رئيس الدولة...

قاطعني بهدوء:

ـ أنا لست الرئيس بعد.

هززت رأسي متجاهلا تعليقه، وأضفت بعصبية..

ـ هذا لا يُحدث فارقًا، ولا يجيب تساؤلاتي؛ كيف دخلت إلى هنا؟ وماذا تريد مني؟

تنهد وكأنما يعلن يأسه من غبائي! وبصبر ودود قال:

ـ لقد أتيتك معتذرًا. أعتقد أن نوح قد تجاوز بعض الخطوط الحمراء في حواره معك بالأمس. أنا لم أحب ما قاله لك، ولم أحب تهديداته المستترة. هذه ليست طريقتنا. وليست فلسفتي في حكم هذا الشعب العظيم.

فرد ذراعيه مشيرًا للطعام بطريقة استعراضية، وكأنه ساحر يبهر أعين متابعيه..

ـ أعرف أنك جائع. وقد جئتك بعربون للصلح. يمكن أن تعتبرها محاولة لإنشاء علاقة (العيش والملح) فيما بيننا. فهل تقبلها؟

لم يترك فراغ بطني مزيدًا من براح لأفكاري لكي تتمدد في مساراتها الصحيحة. فقد كان صوت الجوع أكثر صخبًا من صوت العقل، فجلست في مواجهة الرجل المهيب، وبدأت أُعمِل النَّهَمَ في أطباق الطعام. والغريب

أنه كان يشاركني ذات النهم، وكأنما لم يأكل منذ أيام. قدرت أن هذه هي طريقته لإبداء المودة والتباسط. لكنني لم أعط الأمر اهتمامًا أكبر، فقد كان الطعام شهيًّا، وسرعان ما ذابت في حلاوته كل المخاوف والتوجسات والأفكار. وحين بلغت حد الامتلاء والاكتفاء، بادلته ابتسامة، فقال:

ـ هلا أعددت لنا كوبين من الشاي؟

كان التليفزيون مفتوحًا على فيلم كوميدي قديم. ومع سخونة كوبي الشاي، جلسنا متجاورين نضحك على أحداث الفيلم وكأنما نشاهده للمرة الأولى. كانت جلسة دافئة وحميمية. ربما؛ لأننا لم نتحدث كثيرًا؛ وكأنها جلسة بين صديقين قديمين ليسا بحاجة لادعاءات اجتماعية، أو تواصل زائف لتقوية الروابط بينهما؛ فهما يكتفيان بلحظة وجودهما معًا، كاجتماع روحين مترابطتين. في النهاية أبعد الرجل عنه كوب الشاي الفارغ، ثم تنهد، واعتدل ليواجهني، فاضطررت لسحب تركيزي من عالم الفيلم ومنحه إياه كاملًا. بعد تنهيدتين إضافيتين، وثلاث نظرات متفحصة، قال:

ـ نحن لن نؤذيك أبدًا يا أكرم. وتأكد أنه لن يحدث لك أي مكروه طالما أني لم أزل أتنفس. وأنا لا أقول هذا تقديرًا لدورك الوطني، وإنما لمجرد أنك مواطن في هذا الوطن الذي أهيم به حبًّا.

مد يده في جيب سترته وأخرج جهاز عرض صغير. عبث بشاشته، فربط الجهاز بشاشة التليفزيون. ثم واصل العبث ليعرض أمامي على الشاشة الكبيرة تصوير فيديو بدا واضحًا أنه مأخوذ من كاميرا مراقبة.

ـ أنت رجل صاحب تاريخ ناصع البياض يا أكرم. لا شائبة تشوبه سوى تلك الزلة البسيطة.

من نقطة بعيدة جدًا في الذاكرة ـ بعيدة لدرجة تثير الشكوك في حقيقة وجودها ـ استعدت تلك اللقطة فجأة. في زمن ما، أو في كابوس ما، عرض عليَّ رجل التحقيق ذات المقطع المصور؛ وفيه كنت في حمام السجن، أذبح السجين المجنون بسكين صغير. ارتجفت عندما شاهدت هذا، وارتجفت أكثر عندما تذكرت.

ـ أنا أعرف أنك كنت تمر بظروف نفسية لا يتحملها بشر. وانفجار صغير كهذا أمر متوقع.

هززت رأسي رافضًا..

ـ ولكن هذا لم يحدث. لقد كان حلمًا.

ابتسم مشفقًا، وقال:

ـ أنت فقط لم تكن في حال يسمح لك بالحفاظ على الحاجز بين الحلم والواقع. لكن هذا لن يكذب أو يعرض أحلامًا.

قالها ملوحًا بجهاز العرض الصغير، قبل أن يعبث بشاشته لتختفي الصور المعروضة على تلفازي، ثم يمد يده ليضع جهاز العرض فوق فخذي الأيسر..

ـ على هذا الجهاز النسخة الوحيدة من المقطع الذي شاهدناه للتو. دليل إدانتك الآن بين يديك لتدمره بنفسك.

قالها ومد يده في جيب سترته مرة أخرى، لتخرج قابضة على أطراف كيس بلاستيكي صغير محكم الغلق، وبداخله ينام السكين الصغير ذو المقبض الأحمر. مد يده تجاهي بحرص بهذا الحمل الثمين، فأخذته كالمسحور. تأملته فكان الدم الجاف على حد السكين يداعب نظراتي بوقاحة هازئة.

ـ وهذا الدليل الآخر. سلاح الجريمة الذي لم تزل بصمات أصابعك مطبوعة على مقبضه.

ربَّت عَلَى فخذي اليمنى خلال استراحة صمت قصيرة، ثم أكمل:

ـ هكذا تُمحى جريمتك رسميًّا. يمكنك أن تعتبر هذا عربونًا للصلح بيننا، وتأكيدًا على مكانتك في قلبي. وأرجوك أن تسامح نوح، فهو في النهاية شاب مندفع قليل الخبرة.

كنت أنصت لكلماته عاجزًا عن تحديد موضع لحظتنا تلك بين قطبي الواقع والوهم. اكتفيت بهزة رأس وتمتمة للأحد:

ـ هذا لم يحدث.. لم يحدث...

ابتسم..

ـ الآن يمكننا اعتباره كذلك. فقط عليك أن تدمر تلك الأدلة.

قالها ونهض. عدَّل من وضع ملابسه، ثم بسط نحوي كفه اليمنى في دعوى للمصافحة. تأملت الكف الممدودة لثوانٍ والعقل لم يزل يطارد مخاوفه. نفضت عن رأسي أفكارها السوداء، ومددت كفي إلى كفه في عناق بارد. ملمس كفه كان أكثر حرارة، وكلماته كانت مغموسة في الحماس..

ـ إذا احتجت أي شيء ستجدني في خدمتك. وتأكد أنه مهما كان ما ستطلبه مني، فإنه أقل بكثير مما قدمته زوجتُك الراحلة من تضحيات من أجل الوطن.

قالها وترك يدي، وسار بهدوء نحو باب الشقة. لم أوقفه، ولم أجرؤ على العودة لإطلاق التساؤلات. بعد مغادرته بقيت أتأمل السكين وأتذكر

لمحات من ذلك الزمان البعيد. أتذكر زنزانة، وقاعة طعام، وبابًا فولاذيًّا مغلقًا على المجهول، وجارًا نحيلًا بعينين مجنونتين، يتحدث عن خطة للخلاص تتضمن موته. كل هذا موجود وباق في نقطة ما في نهاية ذاكرتي؛ لكن لا شيء عن قتل. كل ذكرياتي عن ذاتي نظيفة نقية بلا نقطة دم واحدة. ذاكرة طبيعية لإنسان طبيعي، مسالم وجبان. فمن أين أتى الدم على السكين؟!

حملت الغنيمة الصغيرة إلى حجرة النوم. وضعت السكين والجهاز الصغير في أحشاء الدولاب، آمنين تحت أثقال من ملابس الصيف القديمة. أغلقت الدولاب واستدرت لتقع نظراتي على لوح التواصل، وهناك كانت تلك الجملة مكتوبة بخط أنيق ومنمق، تحمل سؤالًا أعاد لي ذكرى ما من حلم ما..

ـ ماذا فعلوا بك يا صغيري؟

لم أتوقف كثيرًا عند تساؤل عن هوية من خط تلك الكلمات على اللوح. تحركت بلهفة وكأن جواب كل الأسرار قد اقترب. أمسكت القلم وكتبت تحت السؤال سؤالًا..

ـ من أنت؟ ومن هم؟

وقفت أتأمل اللوح لثوانٍ، وكانت الأحرف تتشكل من الفراغ أمام عيني، لترسم على اللوح كلمات يخطها اللاأحد..

ـ لا تستسلم.

لحظتها دارت الدنيا من حولي، وسقط كل شيء في غشاوة سوداء.

***

في الصباح استيقظت على الأرض تحت لوح التواصل. نهضت مترنحًا، أقاوم صداع الرأس. كان صوت الرنين لحوحًا، مددت يدي نحو جهاز التنبيه لأطفئه، لكن العقل انتبه متأخرًا أن الرنين للهاتف وليس لتنبيه الاستيقاظ. احتجت فترة لأتوازن وأدرك طبيعة الاتجاهات بعد الإغماءة العميقة التي يبدو أنها استغرقت الليل بأكمله. ثم قطعت رحلتي الطويلة نحو الهاتف. أجبت المكالمة فكان المتصل هو مدير المصنع شخصيًّا، يطلب مني ضرورة الحضور اليوم؛ لأن الإنتاج تعطل بسبب غيابي بالأمس. لم أكن أدرك أني بمثل هذه الأهمية، خاصة عندما أكد الرجل أنه أرسل سيارته الخاصة لتقلني إلى المصنع!

أنهيت المكالمة وحاولت إنهاء طقوس الصباح بأسرع ما استطعت. تناولت قطعة من شطيرة وجدتها في الثلاجة، حتى لا أتناول دواءً مُسكِّنًا على معدة خالية. كنت قد قطعت نصف طريق البحث عن موضع الدواء المسكن عندما انتبهت لتلك الحقيقة التي فاتتني بسبب تشوش الإدراك. عدت مرة أخرى نحو الثلاجة أبغي التحقق. فتحتها فكانت عامرة بالطعام، تمامًا كما عهدتها. دارت في عقلي تساؤلات عما جرى ليلة أمس، فدار عقلي ذاته وراء التساؤلات، ودارت الدنيا من حولي. تمسكت بباب الثلاجة حتى استعاد الكون ثباته. ثم اتجهت متلهفًا إلى حجرة النوم. نظرت إلى لوح التواصل فكان الحوار المختزل لم يزل هناك. إذن أين الحقيقة وأين الوهم؟ كنت لم أزل متسمِّرًا أمام دهشتي، عندما رن جرس الباب معلنًا قدوم السائق الخاص لمدير المصنع. فلم يعد أمامي سوى استباق الزمن لإنهاء مهامي المعلقة.

جرفني تيار العمل سريعًا، فطرح عن رأسي كل التساؤلات مؤقتًا. كان العمل قد تكدس في خط الإنتاج، ولم أسأل المدير ـ تأدبًا ـ لماذا لم يَحُلَّ أيُّ زميل محلي بالأمس؟! كالعادة كنت صامتًا، متوحدًا، تركيزي بالكامل مكبل بما أفعله. وعندما دق جرس الاستراحة ـ مثل كل يوم ـ لم أبال، ولم أغادر مكاني. خَلَتْ قاعة المصنع، وصمتت كل الآلات. وحدها ماكينتي بقيت تطلق عزفها المنفرد، وأنا أروح وأجيء في مسار خطواتي المدروسة والروتينية، أواصل عملي وحيدًا؛ تمامًا كما أفعل كل يوم، لكن لماذا اليوم ـ وفي هذه اللحظة تحديدًا ـ شعرت بالوحدة؟ لثوان توقفت عن ممارسة الملل، وتأملت الفراغ حولي، حيث لا شيء سوى الخواء والصمت. قاعة فسيحة كخلية نحل مهجورة، وأنا وحدي كنملة نشيطة تحاول أن تشق طريقها في الصخر في مغامرة مجنونة. للحظات أصابني يأس غير مفهوم، وتردد في عقلي سؤال متجدد: ماذا أفعل هنا؟ وهناك عند باب صغير بعيد للقاعة رأيتها. كانت هالة واقفة هناك تبتسم في وجهي؛ هالة الشابة الجميلة، التي أدرك جيدًا أنها محض وهم. لكن برغم هذا ابتسمت لها. لوحت لي، فبادلتها التحية. أشارت لي بأن أتبعها، ثم فتحت الباب وراءها وغادرت. تركت كل شيء غير مبال، وقررت أن أتبعها. قطعت الخطوات سريعًا، أراوغ الزحام المعدني للماكينات العملاقة. لكن قبل بلوغ الباب المفتوح ظهر أمامي من فراغ رجل الأمن في المصنع يخبرني بأن المدير أصدر تعليمات صارمة بضرورة إطفاء كل الماكينات في وقت الاستراحة، وضرورة وجود كل العاملين في المطعم خلال هذا الوقت. لم أستطع أن أتملص منه، فاضطررت لاتباعه إلى قاعة المطعم.

***

المطعم كان هادئًا تمامًا برغم الزحام. عشرات العمال كل منهم يحرك فمه فقط لمضغ الطعام. لا صوت يصدر ولا حتى صوت الأنفاس. وكأنَّ هناك أسوارًا وأبوابًا فولاذية تفصل بينهم. ولسبب ما وجدتني أفتقد صخبًا معتادًا منذ أزمان، حيث كان هذا الوقت للمزاح البذيء والضحكات الخشنة والمراهنات البائسة. لحظات كنت قد نسيتها وبدت لي كصور مموَّهة من حياة أخرى. أدركت لحظتها كم الضرر الذي أصاب ذاكرتي في محبسي. لكن برغم هذا أنا واثق أني لم أفقد بعد القدرة على تمييز الواقع عن الخيال، فأنا قادر تمامًا على إدراك أن هالة تلك ـ التي أراها للمرة الثالثة ـ ليست حقيقية. ولكن ماذا عن دكتور سراج، وليلتنا معًا؟ تذكرت السكين وجهاز العرض، هما بالتأكيد دليل لا يُدحَض. فقط عليَّ أن أبحث عنهما عندما أعود إلى البيت، فإن وجدتهما نائمين بأمان في مخبئهما، فإذن لا مجال للتشكيك في حقيقة ما حدث ليلة أمس.

انطلقت صافرة انتهاء الاستراحة. تحركت بخطوات بطيئة وسط صف الوجوه الصامتة. نتجه نحو باب قاعة المطعم. هذه الأجواء كان من الضروري أن تذكرني بسمير، وتذكرني بتصرفي ـ القريب من الوقاحة ـ معه في المكالمة الأخيرة، فعزمت أن أهاتفه معتذرًا عندما أعود إلى البيت. اجتزت الباب إلى الردهة الرئيسة في مبنى المصنع، فوجدت يدًا تقبض على ذراعي وتسحبني برفق إلى خارج الصف. اليد كانت متصلة بذراع رفيعة، والذراع كانت متصلة بجسد ممشوق فاتن، والجسد يرفع فوق كتفيه وجهًا جميلًا دقيق الملامح، لامرأة قدرت أنها في مقتبل أعوامها الخمسينية، كانت تتحدث بسرعة وبصوت منخفض:

ـ لماذا لم تلحقني عندما أشرت لك؟ لقد انتظرتك طويلا. جيد أني استطعت الانفراد بك هنا، فكما تعلم نحن الموظفين غير مسموح لنا بالتواجد في قاعة المطعم المخصصة للعمال. على كل حال أنا سأنتظرك عند باب المصنع بعد انتهاء الوردية. سنتمشى قليلا ونتحدث بحرية أكبر.

قالتها وتركت يدي مبتعدة بخطوات مسرعة. احتجت لثانيتين قبل أن أعود إلى صف الرجال الصامتين. كنت أمارس المزيد من الصمت وأنا أتساءل عمن تكون هذه السيدة. وأفتش في النقاط البعيدة المنصهرة من ذاكرتي، علها كانت هناك وضاعت مع من ضاعوا.

***

حين عبرت بوابة المصنع مغادرًا، وجدتها. كانت واقفة تنتظرني تحت شجرة وحيدة تخرج من صلابة الرصيف. عندما رأتني لوحت لي وابتسمت بترحاب كصديق قديم طال الاشتياق للقائه. تقدمت منها، فمدت يدها تختطف يدي في مصافحة حارة. نسيت كفها مشبوكة في كفي لبضع وقت وهي تقول:

ـ أنت لا تعرفني بالتأكيد. أنا سلمى موظفة في إدارة الحسابات.

قالتها وصمتت وهي تواصل القبض على كفي، وكأنما أفصحت عن كل شيء، وأطفأت نيران الدهشة، ووضعت حدًّا حاسمًا لغرابة الموقف. لكني ـ على كل حال ـ لم أكن أسعى في هذه اللحظة سوى للتحقق من معلومة واحدة ذكرت سريعًا في حديثها الهامس المرتبك معي منذ وقت، وكانت سببًا في إفساد تركيزي لباقي ساعات العمل..

ـ تقولين إنك أشرت لي أن ألحق بك؟ متى حدث هذا؟

بدا عليها بعض الدهشة، لكن ابتسامتها الواسعة هزمتها سريعًا، واستعادة السيطرة..

ـ أثناء الاستراحة. عندما كنت تعمل وحيدًا على ماكينتك.

هززت رأسي بين ذهول ورفض غير بات..

ـ لكن هالة هي من كانت هناك.

هذه المرة فقدت ابتسامتُها عددا ملحوظا من النقاط الاستراتيجية، وتراجعت منسحبة أمام ملمح الدهشة..

ـ هالة؟ أتقصد زوجتك؟ هل عادت إليك؟!

بادرتها بتساؤل سريع:

ـ كيف عرفت اسم زوجتي؟!

أجابت ببساطة:

ـ أنت ذكرته في هذا البرنامج التليفزيوني.

هززت رأسي متفهمًا.

ـ زوجتي لم تعد. فقد اكتشفت أنها توفيت منذ فترة.

عادت ابتسامتها تتسع دون سيطرة منها، وانفلت لسانها بما بدا كقول عفوي غير متزن:

ـ هذا أفضل.

ماذا أفعل هنا؟!

كانت طاولة معدنية باردة تجمعنا. عند طرفيها جلس كلٌّ منا وبين يديه شطيرة شيء ما. كنت أداعب شطيرتي بخجل، وهي كانت تلتهم

شطيرتها بنهم. وكان الموقف كله وليد عدم قدرتي على مقاومة تيار إلحاحها الجارف، فقبِلت دعوتها لتناول الغداء معًا..

ـ أنا وزوجي كنا كذلك من الفرقاء. لكنه لم يكن مثلك مخلصًا. كان مجرد رجل تقليدي يجري وراء شهوته. لم يكن قد انقضى على تطبيق البروتوكول أكثر من شهر واحد عندما طلقني وتزوج من أخرى. المفارقة أن ابني الرضيع ـ وقتها ـ كانت مواعيد صحوه توافق موعدي، لذلك بقي معي، في حين ارتاح هو منه، ومن أي مسئوليات تجاه أسرته. ببساطة؛ كأنما ولد من جديد. رجل جديد تمامًا، أعزب تمامًا، قادر على الحب، على الزواج، أو حتى الدخول في علاقات متعددة. إنه الحلم السري لكل رجل متزوج. أن يستيقظ من النوم فلا يجد أسرته، وكأنما يبدأ من جديد. تجسيد بشري لنظام (استعادة ضبط المصنع) كما في الآلات.

قالتها وضحكت معجبة بتشبيهها. وكنت أنا صامتًا، وكانت هي لا تبالي بصمتي..

ـ أما أنا فقد قررت ألا أتزوج، مكتفية بطفلي وبعملي. برغم أني كنت صغيرة وجميلة. لكن ما فعله جعلني أقرر ألا أضع ثقتي في رجل أبدًا. والآن، وبعد سقوط البروتوكول، صار يطاردني في كل مكان. هل تعلم لماذا؟ لأنه يريد العودة. هكذا ببساطة. أتدري ما حجته؟ يقول: إنه لم يتوقف يومًا عن حبي، وإنما فعل ما فعله؛ لأن هذه هي طبيعة البشر، وأنه كان يريد أن يقضي شهوته في الحلال! تصور؟! يفترض مني أن أتأثر بكلماته، وأعود إليه، وهو يحدثني عن حب تهزمه

الشهوة. مجرد شهوة! الغريب أن كل من حولي يعتبرني مجنونة؛ لأني أرفض عرضه. يتحدثون عن لَمِّ الشمل، وعن تربية ابني تحت جناح أبيه! أي ابن؟ وأي جناح؟! ابني صار رجلًا على أعتاب الثلاثين من العمر. أنا ربيته وصنعته دون حاجتي لجناح رجل! كيف يفكرون؟! وبأي منطق؟ هل تريد شطيرة أخرى؟ أنا سآخذ واحدة أخرى.

احتجت لثوانٍ لأفهم أن الحديث عن الشطيرة موجه لي. فهززت رأسي شاكرًا..

ـ أنا لا أستطيع حتى إنهاء هذه الشطيرة.

ـ أنت حقًّا غير أكول، وهذا محرج؛ فأنت تجعلني أبدو كوحش بجوارك.

ابتسمت، ونادت النادل وطلبت شطيرة أخرى..

ـ كان هذا عندما شاهدتك في التليفزيون وعرفت حكايتك. وبالطبع شعرت بالغيرة ـ مثل آلاف النساء ـ من زوجتك رحمها الله. فقد أسقط البروتوكول الكثير من أقنعتنا الاجتماعية، وبات زيف المشاعر والعلاقات مفضوحًا للجميع. والكثير من النساء عانين منه. ولهذا بدت لنا حكايتك مبهرة بشكل يخالف المألوف. يخالف قوانين البشر، والعادات الذكورية. لحظتها قلت لنفسي: إني أحتاج لرجل كهذا في حياتي. ولم أصدق نفسي عندما علمت أنك تعمل معي في ذات المصنع.

كنت قد توقفت عن مضغ الطعام المحشور في فمي منذ بضع كلمات مضت. ويبدو من جلجلة ضحكتها أن هذا جعل مظهري سخيفًا..

ـ لا تخف. أنا لم أحضرك إلى هنا لكي أعرض عليك حبي، أو أطلب يدك للزواج، فأنا لم أفعلها وأنا شابة جميلة، فكيف سأفعلها وأنا عجوز

شمطاء. الأمر فقط أني أحتاجك كصديق. أحتاج أن أشكو لك تصرفات طليقي. أحتاج أن أسمع آراءك؛ لأنها بالتأكيد ستختلف عن الآراء الانهزامية المنبطحة التي يمطرني بها كل من أعرفهم.

صمتتْ هذه المرة صمتًا حقيقيًّا! لم تكن تلتقط الأنفاس، أو تتناول قضمة من الشطيرة؛ وإنما صمتت وكأنما فرغ الكلام من جعبتها، وهو شيء كنت أظنه مستحيل الحدوث. واستبدلت بالكلمات نظرات متطلعة تخترق عيني حاملةً ترقُّبًا، فأدركت أنها تنتظر مني جوابًا ما.

ـ أنا لا أعرف ماذا أقول.

ـ يمكنك أن تبدأ بانطباعك عما سمعته.

وضعت الشطيرة في الطبق أمامي، ومسحت أصابعي مما علق بها من سائل ملون ـ لا أعرف اسمه ـ يسيل من أطراف الشطيرة، ثم قلت:

ـ أعتقد أن حياتك ملكك وحدك. فإن لم ترغبي في العودة لطليقك، فهذا شأنك، وليس لأحد أن يلومك.

جلجل صوتها حماسة حتى لامس حد الصراخ:

ـ بالضبط.. هذا هو ما كنت أتوقع سماعه منك. فأنت رجل تقدس الحب والإخلاص، ومن البَدَهِي أن تعتبر طليقي نذلا وضيعا بلا قلب!

اتسعت ابتسامتها، وتنهدت..

ـ لقد أراحتني كلماتك كثيرًا. أنا لا أستطيع أن أصفَ لك سعادتي بالحديث معك. أتمنى أن نكرر هذا كثيرًا. فأنا أريد أن أسمع منك كما سمعت أنت مني.

بسرعة قُلت:

ـ أنا ليس عندي ما أحكيه؟

حافظت على وسع ابتسامتها وهي تشير للنادل أن يحضر لها فاتورة الحساب، ثم قالت:

ـ أنت كاذب فاشل. أنا واثقة أن لديك الكثير لتحكيه. أنت فقط لم تقرر بعد أن تضع ثقتك بي، لكنك ستفعل لاحقًا، فليست جلستنا تلك سوى مقدمة لصداقة طويلة ومتينة.

لا أعرف من قرر هذا، ولكنني أجبتها بهزة رأس لا تعني شيئًا محددًا، وابتسامة خجولة. في النهاية تبادلنا أرقام الهواتف، ومضى كل منا في طريقه.

***

عدت إلى المنزل والسماء تميل نحو احمرار الغروب. كنت منهكًا من يومي الطويل. تجردت من ملابسي وتوجهت للحمَّام. فتحت الماء الساخن ووقفت أراقب انهماره من الدش في انتظار أن تصل حرارته لدرجة مناسبة. وضعت يدي تحت الماء المنهمر أقيس سخونته، فعادت لي ذكريات بعيدة مقتحمة، عن ماء بارد، وطابور من الأجساد العارية المتهالكة، وصابون قاس عفن الرائحة. تذكرت لحظة اختلاط الماء بدماء رجل حالم أفقدته الأحلام عقله، فتذكرت بالضرورة العزم المنسي للبحث عن السكين الصغير وجهاز العرض بمجرد عودتي للبيت. غادرت الحمَّام مسرعًا، تحسست لسعة برد فضولية لجسدي العاري لكني لم أهتم. في حجرة النوم فتحت الدولاب، ورفعت ثقل الملابس الصيفية القديمة، فوجدت تحتهما كنزي الصغير راقدًا بسلام. مددت يدي وتحسست

السكين والجهاز وكأنما أتأكد من مادية وجودهما؛ الأمر يبدو حقيقيًّا لا خيال فيه! أغلقت الدولاب واستدرت ليواجهني لوح التواصل، حيث كانت جملة وحيدة تسكن أعلاه:

ـ إياك والخيانة.

لم أفهم المقصود من هذا التحذير. هذه المرة كنت بدأت أقيم اعتبارًا لشعور البرد الذي بلغ مفاصلي، فحملت الدِّثار من فوق الفراش ولففت به جسدي وأنا أتقدم من لوح التواصل. أمسكت القلم وكتبت:

ـ عن أية خيانة تتحدثين؟

انتظرت متوقعًا تواصلًا من الطرف الآخر كما حدث من قبل، لكن الانتظار طال واللوح باق على حاله. تركت القلم، وألقيت عن كتفي الدثار، وهرعت إلى سخونة الماء. أنهيت الاستحمام وخرجت منتعشًا في ملابس نظيفة وثقيلة. فتحت التليفزيون بحثًا عن بعض الونس، ورفعت درجة الصوت، ليبقى مسموعًا أثناء حركتي في الشقة؛ وضعت ملابسي المتسخة في الغسالة، وأعددت لنفسي كوبًا من الشاي. توجهت إلى حجرة النوم لأعد ملابس الصباح، فوجدت جواب سؤالي حاضرًا على اللوح:

ـ سلمى.

أمسكت القلم وأسرعت لأنفي عني الاتهام. لكن فجأة توقفت قبل أن أضع على اللوح أول الحروف؛ ماذا أفعل؟ لماذا أدعم تلك الأوهام؟ هذه المحادثة لا تحدث، وهالة لم تعد موجودة في هذا العالم. أنا أعلم هذا جيدًا، فلماذا أتصرف بهذا الجنون؟ تركت القلم وأمسكت الممحاة ومحوت الكلمات من على اللوح. وحين انتهيت وقفت أتأمل اللوح الفارغ

متأهبًا، والممحاة مُشرعة في يدي في تهديد، متوقعًا أن تظهر على اللوح كلمات احتجاج أو ثورة. لكن في هذه اللحظة تعالَى صوت رنين الهاتف المنزلي. تركت الممحاة واتجهت إلى صالة البيت. التقطت سماعة الهاتف، فجاءني من الطرف الآخر صوت ودود منطلق دون قيود..

ـ لقد افتقدتك كثيرًا فيما مضى من ساعات قليلة، فأنا لم أتوقف عن التفكير في كلماتك. ومع كل ثانية أدرك كم أنك مُحِقٌّ في رأيك...

قاطعت الاندفاع الأنثوي بسؤال بارد:

ـ من أنتِ؟

صوتها كان مألوفًا، لكنه لم يكن قد اتخذ مكانه بعد فوق أرفف الذاكرة القريبة.

ـ أنا سلمى.

إجابتها ـ المحمولة على نبرات الدهشة ـ كانت بَدَهِية، وتعجبت؛ لأني لم أستنتجها وحدي.

ـ هل نسيتني؟

ـ فقط أنا لم أسمع صوتك من قبل عبر الهاتف.

ضحكت بمرح..

ـ حسنًا، سأعتبر هذا تفسيرًا مقبولًا.

واصلت ضحكتها لفترة، فسألتها متوجسًا:

ـ لماذا تتصلين؟

لم أبال بوقاحة التساؤل، ولا بانقطاع ضحكها المفاجئ، ولا بحزن لامس مخارج كلماتها..

ـ لقد أردت فقط أن أشكرك على إنصاتك لي.

فجأة عاودها المرح بذات القوة والحماس!

ـ وأردت أن أدعوك للفطور غدًا معي في مكتبي. فأنا لا أستطيع مجالستك في صالة المطعم، لكن يمكنك أنت أن تزورني في مكتبي. فربما إن...

انقطع صوتها فجأة. الانقطاع كان مصاحبًا لصوت تكة بلاستيكية غاضبة، صدرت عن سبابة حاسمة ضربت زر قطع الخط في هاتفي. رفعت النظر نحو صاحب تلك السبابة المفاجئة، فكانت هالة واقفة بجواري تنظر لي بغضب..

ـ لقد حذرتك منها للتو.

سقطت السماعة من يدي، وابتعدت لخطوتين محاولا تقييم الموقف. هذا وهم، مجرد وهم، ربما حلم يقظة، أو ربما حلم نوم، ولكن هل أنا نائم؟ هل أنا في فراشي في انتظار موعد الصحو الروتيني؟ هل أنا في زنزانتي في انتظار موعد الطعام؟ بحركة لا إرادية لطمتُ خدي بيدي لأفيق. تقدمتْ نحوي مسرعة وقبضتْ على كفي لتمنعها من التكرار. تحولت قسوة نظراتها لحنان وهي تقول:

ـ ماذا تفعل؟

هززت رأسي:

ـ هذا ليس حقيقيًّا، مستحيل أن يكون ما يحدث حقيقيًّا.

هزت رأسها موافقة وأشارت إلى الهاتف..

ـ بالطبع هذا ليس حقيقيًّا. تلك الأفعى هي مجرد وهم. فخ منصوب لك.

سألتها:

ـ وماذا عنك؟

رسمت دهشة فوق ملامحها، وقالت:

ـ ماذا تقصد؟

ـ هل أنت حقيقية؟

تراجعت للخلف خطوتين وكأنما تعطيني مساحتي لأهدأ وأتداول الأفكار..

ـ أنا الحقيقة الوحيدة في عالمك. ماذا دهاك؟ لقد بدوت سعيدًا برؤيتي من قبل؟ عندما ظهرت لكن في الميدان الفسيح بعد خروجك من مبنى التليفزيون. وعندما ظهرت لك في المسيرة الاحتجاجية. وحتى اليوم عندما لوحت لك في وحدتك بصالة المصنع. في كل مرة رأيتني كنت تبدو سعيدًا. ولكن الآن أنت خائف ومرتبك؛ وهذا بسبب تلاعبهم بعقلك.

ـ أنا الآن خائف ومرتبك؛ لأني مللت الأوهام. مللت الوقوف على أرض تتموج بي للأبد بغير ثبات.

سالت من عينيها دمعة صامتة. لكنها تماسكت بكبرياء، وقالت بحماس وشيء من غضب مكتوم:

ـ أنا لست وهمًا يا أكرم. أنا فقط ما عدت أحيا في هذا العالم؛ أنا أحيا هناك، في العالم الذي صنعتُه من أجلنا. هل تذكره؟ عالمي الذي اصطحبتك إليه على صهوة جوادي الطائر.

قلت عنادًا:

ـ غير صحيح. أنت وجوادك الطائر، وأرضك العشبية بزهورها البيضاء الدقيقة، مجرد حلم. كل هذا كان مجرد حلم.

صرختْ في وجهي:

ـ قلت لك: أنا الحقيقة الوحيدة في حياتك. أنا من حملتك على صهوة جوادي وطرنا. أنا من أنقذتك من الغيلان، وحاربت الحرس والكلاب السوداء إلى جوارك.

كان الغضبُ يدفع عبر فمها صوتَ اللِّهاث عاليًا، ويُطلق من عينيها شراراتٍ ناريةً مع النظرات. اتجهت نحو النافذة، فتحتها بعنف فاقتحمتنا دفقة من برودة الليل. تدلت خارج النافذة وأطلقت من فمها صفيرًا، سرعان ما أجابه صوت صهيل قصير، وبان أمام عيني الحصان المجنح معلقًا في هواء المدينة خلف النافذة. استدارت ونظرت إلي، وبلهجة آمِرة قالت:

ـ ستأتي معي الآن. سنحلق لمرة ثانية وأخيرة. ستصحبني إلى عالمنا ولن تكون لك عودة إلى هنا.

قبل أن أجيبها تعالى صوت رنين الهاتف. نظرت نحوه مفكرًا. ربما قرأت هالة الحيرة في نظراتي، فقالت بلهجة لينة مستبقة أي قرارات:

ـ أنت لن تجيب الهاتف. ستترك تلك الحياة بكوابيسها وأحلامها وحقائقها المائعة، وتأتي معي.

كان الهاتف يواصل إلحاحه، ونظراتي لم تزل معلقة به. ربما تضاعفت الحيرة على ملامحي، فلانت لهجتها أكثر حتى بلغت حد الرجاء..

ـ أرجوك يا أكرم. أرجوك.

الهاتف يرن، والحصان خارج النافذة يلوح بجناحيه، ويد هالة تمتد نحوي، والرجاء في عينيها يكاد أن يصير يأسًا، وأنا أرتجف كورقة شجر عاجزة في ريح شتاء بارد. في النهاية كان القرار هو الهرب؛ هرعت إلى باب الشقة، فتحته وغادرت مسرعًا. خرجت إلى الشارع بملابس البيت. قطعت مسافات على الرصيف بسرعة المطارد. كنت ألهث حين أبطأت الخطى واستدرت لألقي نظرة نحو نافذة بيتي. هناك حيث كان يحلق الحصان الأسطوري، لم أجد سوى الفراغ. واصلت قطع مسافات الهرب في طرقات أخلاها الليل والبرد من البشر، حتى بلغت بعدًا كافيًا لكي أنشغل بأسئلة العودة؛ هل أعود إلى بيتي الآن؟ أم أواصل السعي نحو المزيد من المجهول؟ ماذا أفعل هنا؟ ولماذا غادرت من الأساس؟ منذ أزمان بعيدة لم أغادر بيتي في الليل؛ الأمر صار غريبًا، وكأنما أستكشف عالمًا مجهولا، أو أقف على كوكب لم تطأه قدما إنسان من قبل. حتى تنفُّس الهواء البارد كان غريبًا على رئتي فسعلت عدة مرات، وشعرت برجفة برد في نقطة ما داخل صدري. هنا اكتشفت أن ملابسي المنزلية لا تليق ببرد الخواء، ولا الخف المنزلي يستطيع أن يباري صقيع الأرصفة، فقررت العودة، حتى وإن بدا لي المشوار المنتظر طويلًا ومرهقًا. هنا وجدت تلك السيارة الفارهة توازيني ثم تتوقف بعد استباق خطواتي بأمتار قليلة. توقفتُ متوجسًا، أنظر لسائق السيارة وهو يهبط ويدور حول مقدمتها بخطوات رشيقة، ثم يفتح بابها الخلفي وهو يواجهني بابتسامة لطيفة وانحناءة احترام، ويقول موقِّرًا:

ـ تفضل يا سيدي.

تراجعت خطوتين، ونظراتي تواجه محدثي بأفكاري القلقة ومخاوفي. كنت أكثر ميلا للهرب، وربما كدت أحول الأفكار إلى خطوات تحملني مبتعدًا، لولا أن أطل عليَّ وجهه المبتسم من باب السيارة الخلفي المفتوح. لوح لي وقال:

ـ هيا اركب، سنعيدك إلى بيتك.

للمرة الثانية يفاجئني بظهوره غير المنتظر. هززت رأس الرفض هذه المرة، وصارحت بمخاوفي..

ـ ماذا تريد مني؟

ابتسم دكتور سراج، وأشار لسائقه بأن يعود لمكانه. فانطلق السائق ينفذ الأمر الصامت..

ـ لقد قلت لك للتو. أريد أن أعيدك إلى بيتك.

سألته بإصرار على الرفض:

ـ وما الذي جاء بك إلى هنا؟

ـ قانون الصدفة يا عزيزي. لقد كنت مارًّا بالصدفة فشاهدتك في طريق خال، في ليل بارد، ترتدي منامة وخُفًّا منزليا. فقلت لنفسي: إن الأمر وراءه حكاية مثيرة بالتأكيد. وأنا أحب الحكايات المثيرة، فدعنا نتقايض؛ أنا سأُقِلُّك لبيتك، وأنت ستحكي لي حكايتك.

كانت رجفات البرد في هذه اللحظة أقوى من التوجسات والمخاوف، فتوقفت عن المقاومة، واندسست بجواره في دفء المقعد الخلفي. رَبَّت هو على كتف سائقه فانطلق بالسيارة، ثم استدار ليواجهني..

ـ تكلم.

تمسَّكت بالصمت، ونظراتي تخترق الزجاج لتتأمل خواء الشوارع، وأتساءل عن طول المسافة التي قطعتها. لما طال أمد التجاهل، مد يده وربَّت عَلَى فخذي وقال بهدوء:

ـ كثيرًا ما أتوق لفرار مسائي كهذا. الوحدة باردة كجبال الجليد. وأنا وحيد منذ أزمان بعيدة. وحيد مثلك. ولهذا ربما أفهم ما تمر به الآن.

فارقت نظراتي الطريق، وارتكنت إلى ملامحه المرسومة بالأسى..

ـ لقد كنت تحيا لأعوام في مخبأ محاطًا بدفء آلاف الأنفاس؟

ابتسم منكسرًا، وبيده أشار إلى موضع قلبه..

ـ الوحدة الحقيقية هنا. إنه نفس ما تشعر به، أليس كذلك؟ في رأيك، كم إنسان تحتاجه حولك لكي يملأ الفراغ الذي تركته هالة؟

لم أجد ما أرد به، فقد كان سؤاله غير قابل للصياغة كمسألة حسابية قابلة للحل. وهو لم ينتظر مني ردًا، فقط واصل:

ـ هذا بالضبط هو ما أشعر به؛ خواء في القلب، برودة. بمجرد أن أنهي أعباء السياسة والسلطة وأعود إلى بيتي، تسقط الحياة كلها عن كتفي، وأتحول إلى طائر صغير في فراغ بارد بلا نهاية.

سألته:

ـ هل فقدت حبيبة كذلك؟

ابتسم:

ـ بل فقدت القدرة على الحب، وهذا أخطر. لا أعرف كيف حدث هذا. ربما الأمر بدأ كعناد، أو اعتقاد صادق أن القلب ما عاد يتسع للحب، حتى ضاق القلب فعلا، وبات الاعتقاد هو الحقيقة الصامدة.

وَجَّه نظراته للخارج قليلا على سبيل الاستراحة. ثم عاد ليسددها نحوي وهو يقول:

ـ لا ترتكب ذات الخطأ، وافتح قلبك للحياة. لا تغلق روحك أمام فرصة حب جديد.

بدت لي كلماته وكأنما تتعمد توجيه رسالة محددة. وتساءلت إن كان يعلم بأمر سلمى وظهروها المفاجئ واللحوح في حياتي. للحظة طافت في عقلي فكرة مفاجئة: هل أنا مراقب؟ عندها لمحتُ بجانب عيني عبر الزجاج الخلفي للسيارة حركة شاذة في السماء. التفت مستكشفًا فوجدت الحصان المجنح يطير تحت السحب المتكدسة يتبعنا. دكتور سراج انتبه لنظراتي، وتساءل:

ـ إلى ماذا تنظر؟

استدار بدوره متتبعًا مسار نظراتي، لكن بدا لي أنه لم يَرَ ما يثير ريبته..

ـ لا شيء.

أجبته وأنا أعتدل في جلستي. لحظتها انتبهت للسيارة تتوقف أمام باب بيتي. لعنت كل قواعد الذوق واللياقة، وفتحت ذراعي مرحبًا بالوقاحة كصديق قديم، وأنا أفتح باب السيارة وأترجل منها مسرعًا، وأقطع الخطوات نحو باب البيت فيما يشبه الركض، دون حتى أن ألقي ورائي كلمة شكر مختزلة.

دخلت شقتي ورتجت الباب خلفي. أوصدت كل النوافذ، وأطفأت كل الأنوار، واندسست في فراشي تحت أغطية ثقيلة، محاولا استدعاء الدفء والنوم. أتاني الأول طائعًا بعد وقت ليس بالطويل. أما الثاني فقد عاندني واستعصى، حتى سلَّمني لأول أضواء الفجر.

***

اليوم التالي كان هو أسوأ يوم عمل في كامل حياتي المهنية. أنا أمتلك مقدرة على النقد الذاتي كافية لكي أتأمل نفسي من الخارج وأجري لها تقييمًا موضوعيًّا، ولهذا أعلم أني في هذا اليوم لم أقدم أي قدر من الجهد أو التركيز في العمل، بل إني كنت أفقد ـ لبعض الفترات ـ الإحساس بالمكان والزمان، فكنت أقف أمام ماكينتي تائهًا، وأتساءل عما أفعله هنا. الأمر كان ملحوظًا لكل مَن حولي من زملاء أو مشرفي العمل. لم يتحدث أحدهم معي بكلمة، لكني كنت أرى التساؤل في أعينهم: ماذا دهى ذاك العجوز؟!

في وقت استراحة الغداء لاحظت انتشارًا لرجال أمن المصنع في الصالة وسط الماكينات للتأكد من خروج جميع العمال. لم أكن من الأساس أنوي في حالة كتلك أن أضيع وقت الراحة في العمل، لكني كذلك لم أكن أريد الانغماس في ضيق تلاصق الأجساد الصامتة في صالة المطعم. كنت أغادر الباب الكبير ـ وسط تيار الرجال المتعرقين ـ إلى الردهة الخارجية؛ أمامنا مباشرة الامتداد الذي يقود إلى باب المطعم، وفي هذا الركن القريب قابلت بالأمس سلمى للمرة الأولى ـ هل حقًّا كان هذا بالأمس؟! ـ وعند النهاية البعيدة للردهة سلم يقود إلى مكاتب الإدارة في الطابق العلوي. تباطأت خطواتي حتى توقفت تمامًا. الغريب أني لم أحتج وقتًا طويلا للتدبر أو قياس منطقية القرارات، الاندفاع كان أسرع من دورة جريان الأفكار، فوجدتني أنطلق نحو الدرجات وأصعد للأعلى.

كنت كطفل تائه في مدينة بعيدة مهجورة، أو كمسافر ضال يبحث في الوجوه الغريبة عن ملامح يألفها؛ أتحرك بخطوات بطيئة وسط أبواب

المكاتب المفتوحة على سكون شاغليها فوق مكاتبهم العامرة بالأوراق وأجهزة معقدة توحي بالأهمية والانشغال. عبر كل باب مفتوح تسأل نظراتي عنها فلا تجد لها وجودًا. حتى وجدت بابًا مغلقًا عليه لافتة صغيرة مكتوب عليها (الحسابات). منطقية الأفكار ترشدني لتلك الحجرة، لكن الباب المغلق يقطع عني طريق اليقين. رفعت يدًا مضمومة الأصابع لأطرق الباب، لكن اليد تجمدت في الهواء حيرة لثوانٍ، قبل أن ترتد لمستقرها خائبة وقد هزمها الخوف. كاد الجسد يستسلم كذلك ويستدير عائدًا ذات الطريق لكن الباب فُتح فجأة وظهرت سلمى على عتبته. واجهتني في البدء بدهشة، سرعان ما تبددت تحت ثقل ابتسامة سعيدة واسعة..

ـ يا إلهي، لقد جئت! يا لها من مفاجأة غير متوقعة! فبعد أن أغلقت خط الهاتف في وجهي لم أتوقع أبدًا أن تلبي دعوتي.

ـ أنا هنا للاعتذار، فأنا لم أقصد أن أتصرف بفظاظة.

هزت رأسها..

ـ لا داعي للاعتذار. أنا مَن يجب أن أعتذر؛ لأني تطفلت على حياتك بهذا الشكل. ربما أنا أحمل مقدارًا زائدًا من العاطفة، وهو ما يضعني دائمًا في مواقف محرجة مع الأشخاص الذين أهتم بهم، فأبدو أمامهم كسيدة شديدة التعلق. وأنت تحديدًا ربما لم تتعافَ بعدُ من مأساة أعوام السجن، ومأساة فقدان الزوجة والحبيبة، ولم يكن يصح أن...

اضطررت لمقاطعتها قبل أن أفقد ترتيب الأفكار، وتضيع الكلمات من رأسي:

ـ لقد جئت فقط لكي أتأكد أنك لست غاضبة مني. ولكي أضع أمامك الحقيقة في صورتها المجردة.

ـ لا تقل هذا، أنا لم أغضب على الإطلاق، كل ما في الأمر....

قاطعتها مجددًا، فأنا لم أكن لأسمح لأي شيء بإخراجي عن مسار البوح الذي رسمته أمامي حتى أبلغ منتهاه..

ـ الحقيقة يا أستاذة سلمى أني لست كما تظنين. أنا لست الرجل المثالي الذي تتمنينه في حياتك صديقًا وناصحًا. في الحقيقة أني لا أَقِلُّ نذالةً وقذارةً عن زوجك السابق.

رسمت ملامحها دهشة، وابتسامة مبتورة تتأرجح بين التعاطف والرفض..

ـ هذا ليس صحيحًا، فأنت...

قاطعتها للمرة الثالثة..

ـ ما فعلته مع زوجتي يفوق ما فعله معك زوجك حقارة. لذلك أنا أعتذر لك وأتمنى ألا تحاولي محادثتي مرة أخرى. فأنا لست بالشخص الذي تُسعدكِ معرفته.

قلتها واستدرت عازمًا الرحيل، لكنها قبضت على كفي لتوقفني. لمستُها دافئة ناعمة بشكل أعاد إلى قلبي بعضًا من لونه الأخضر الزاهي لأزمان ما قبل التيبس والجفاف. للحظة اشتعلت داخلي نارٌ، وضرب أحشائي برقٌ، ونبت للقلب جناحان. التفت إلى ملامحها، فكانت عيناها تتأملان بؤس عيني..

ـ مهما كان ما فعلته، فهو لا يقلل من حبك لها، وأنا واثقة أنها كانت لتسامحك إن أطال الله بقاءها.

أطلق فمي تنهيدة، وأطلق جسدي رعشة عابرة، في محاولة لإيقاف العينين عن إطلاق الدموع..

ـ لقد سامحتني بالفعل.

ـ هذا رائع.

ـ لكني لم أسامح نفسي بعد، ولا أظنني سأفعل.

أحكمتْ إطباق كفها الدافئة على كفي..

ـ بل ستفعل؛ لأنك إنسان عظيم، وتستحق أن تسامح نفسك.

اندفعت الكلمات لتقطع كل الطرق، وتحرق كل الغابات، وتطلق كل وحوش البراكين..

ـ لقد اغتصبتها في نومها.

اتسعت عيناها، وانفرجت أصابعها لتتخلى عن يدي. تراقصت شفتاها بحثًا عن كلمات، فبدا كجَهد مُضْنٍ. أشفقت عليها من مواصلة الجهد، فألقيت قول الختام:

ـ أنا آسف.

ثم انطلقت مبتعدًا بخطوات واسعة.

***

كانت الحافلة ملعونة بالصمت طوال طريق العودة. كل الوجوه متخاصمة. لا أحاديث ولا نظرات ولا أي شيء يتم تداوله هنا سوى الصمت. لعنة الصمت كذلك كانت هناك في الشوارع؛ أجساد تسعى في صمت، وخطوات تتقاطع في صمت. حتى اليدان اللتان تتشابكان في مسار مشترك لا يحمل صاحباهما لبعضهما سوى الصمت. عندما غادرت الحافلة كنت كمن يخرج من بئر صمت صغير ليقع في بحر الصمت الأعظم. المدينة بدت خرساء. بالأمس فقدت ابتسامتها، واليوم فقدت

صوتها. صعدت إلى بيتي؛ واحترامًا للصمت قررت ألا أفتح التلفاز اليوم، مكتفيًا بالجلوس على طرف فراشي في مواجهة لوح التواصل، في انتظار كلماتها. لكن الوقت مر ولوح التواصل بدوره صامت. قررت أن أبدأ بالحديث، فنهضت لأكتب (سامحيني) وسقطتُ تحت اللوح باكيًا.

تمددت الدقائق لساعات أو أيام أو حتى أعوام. توقف العقل عن إحصاء الزمن، أو توقف الزمن فعليًّا عن الجريان؛ وأنا أغوص أكثر فأكثر داخل رثائي لحالي، وصراعي مع أصداء جريمتي، ولم يخرجني منه سوى رنين جرس الباب الذي بدا لي قادمًا من بعيد، من عالم آخر. تعمدت تجاهله مرات، لكنه بدا لحوحًا، مدعمًا بطرقات على خشب الباب، في إعلان صريح لإصرار المجهول القادم على اقتحام حياتي، دون أن يمنحني منفذًا للرفض أو المقاومة. نهضت مترنحًا وأنا أمسح بأطراف أصابعي ما لم يزل عالقًا على وجهي من ماء العين. كنت أتمنى أن يكون القادم يحمل من أجلي قدرًا ولو ضئيلًا من الاستفزاز لتكون فرصة لإفراغ كل غضبي وجنوني في وجهه. لكن القادم كان يحمل لي ابتسامة جميلة، ووجهًا يزينه احمرار الخجل. كانت سلمى هي ذلك القادم المجهول، تقف أمامي عند عتبة بابي، ووجهها المحتقن بمشاعرها يبدو كأجمل ما يكون. لم أنطق، ولم تنطق هي لثوانٍ، ثم انجرفت كعادتها مع تيار أفكارها..

ـ ما قلته لم يغير نظرتي لك. أنا لم أعرفك حقًّا سوى منذ الأمس. ربما أكون مندفعة في مشاعري، ولكني أثق بها. وهي تخبرني أنك بالفعل إنسان رائع وعظيم. فالإنسان العظيم هو الذي يعذب نفسه على خطأ واحد بعد كل هذه الأعوام. أنت لا تستطيع مسامحة نفسك؛ لأنك إنسان

نقي وصادق. أنا أؤمن بك، وأرجوك أن تؤمن بنفسك. ربما عليك فقط أن تدع الماضي يغادرك بسلام، وأن تبني عالمًا جديدًا. ربما تكون كبرت في العمر، لكننا لم نحيا ما كان يفترض أن نحياه، لقد عشنا نصف حياتنا فقط، ولهذا نحن لم نزل شبابًا برغم الأعوام، لم نزل نسعى وراء التجارب، ونتعلق بوهج البدايات. اِنس الماضي يا أكرم، وابدأ من جديد.

اختتمت كلماتها باندفاع مفاجئ نحو وجهي، لامست خدي بشفتيها بسرعة وَرِقَّةٍ، قبل أن ترتد وقد ازداد احمرار وجهها، فازدادت أَلَقًا وشبابًا..

ـ آسفة للتطفل عليك مرة أخرى.

قالتها واستدارت مبتعدة بخطوات سريعة، وتركتني كما أنا، مع المزيد من رعشة الجسد، وجنون ضربات القلب. بعد أزمان استعدت القدرة على الخروج من تلك الحالة المربكة والمنعشة، فأغلقت الباب مستعيدًا حقيقة وجودي. كانت كلماتها تسري في عقلي، وتنطلق منه لتحتل كامل الروح. كنت أشعر في هذه اللحظة بشفافية صافية، وكأنما أصبح كل شيء واضحًا جليًّا أمامي، حتى إني أستطيع أن أرى المستقبل بوضوح، فلا أدري لماذا كانت تعتصرني الحيرة وتعذبني قيود المجهول. كل شيء واضح الآن. الآن أعرف من أنا، وأين أقف، وإلى أين يجب أن أمضي.

اندفعت نحو حجرة النوم. نظرت إلى لوح التواصل وعليه مرسوم رجائي في حروف تشكل كلمة: (سامحيني). نزعت اللوح عن الحائط، وحملته إلى المطبخ، ودسسته وسط كراكيب لا نفع لوجودها تملأ دولاب التخزين الصغير.

الجزء الرابع حلم جديد

كنا جالسين على طاولة هادئة في ركن ذلك المطعم العائم، نتأرجح بنعومة فوق تيار ماء النهر. قبل أن نأتي إلى هنا أخبرني أنه يحب هذا المكان، وأنه طالما افتقده. حدثني عن عدم قدرته على الظهور علنًا بكثافة بسبب مسئولياته ووضعه في البلاد، وبسبب وجود الكثير من الأعداء المتخفين بين جموع الشعب والذين يعتبرون أن تصفيته هي هزيمة مؤكدة للمستيقظين. كانت كلماته مغلفة بمرارة شخص ضحى بالكثير من أجل مسئولياته تجاه بلده، وكنت أتعاطف معه، فلم أستطع أن أرفض دعوته بأن أشاركه تلك التجربة المميزة؛ أول عشاء علني يتناوله في مكان عام منذ أن تأسست جماعة المستيقظين قبل قرابة الثلاثين عامًا. برغم أن المكان لم يكن كما اعتاده بسبب إصرار حرسه على إخلائه من الرواد، وفرض سوار أمني محكم حول المكان، لكنه كان سعيدًا، وكالعادة كان يتناول طعامه بشهية كبيرة. وكذلك كنت أنا؛ سعيدًا، مرتاح البال كصفحة بيضاء تحمل الكثير من الآمال للمستقبل.

عندما انتهينا من طعامنا تراجع في مقعده مسترخيًا. تأمل وجهي بابتسامة راحة، ثم قال:

ـ تبدو مختلفًا.

سألته:

ـ كيف؟

ـ تبدو أصغر عمرًا. هل حصلت على علاج ما؟

أدهشتني كلماته..

ـ كلا، أنا لم أفعل شيئًا.

اتسعت ابتسامته لتصبح شبحًا لضحكة استمتاع..

ـ إنه الحب إذن.

لم أندهش لتعليقه، فهو الآن بات يعرف كل شيء عما أفكر أو أشعر به. ربما مع بداية ظهوره في حياتي لم أتوقع أن ننتهي إلى هذه الحالة. لكن الآن يمكن أن أقول: إن سراج فاخر بات صديقي المقرب. أعترف أن لقاءاتنا الأولى كانت دائمًا تُفرض عليَّ فرضًا، لكني بعد فترة أصبحت أستمتع بصحبته، ثم أصبحت أرتاح للحديث معه عن نفسي. ربما نقطة الانطلاق الحقيقية في علاقتنا حدثت يوم أن اعترف لي أنه يحب صُحبتي؛ لأني أذكره بهالة. كانت ليلة دافئة نتناول فيها الشاي في شرفة منزلي عندما جرفنا تيار ذكرياتنا عن هالة. كان أمرًا غريبًا ومخيفًا أن أكتشف أن هذا الرجل الغريب يعرف هالة أكثر مني، وعاشرها لفترة أطول مني. حدثني عن ذكرياته معها في مخابئ المستيقظين. ربما الحنين والشجن المنسابان من كلماته عنها كانا يحملان شيئًا من رائحة الحب، لكنه أكد لي أن الأمر كان أقرب لرفقة سلاح. اثنان تعاهدا على حلم واحد، وهدف واحد، فارتبطت حياتاهما ومصيراهما معًا. كان يفتقدها تمامًا كما أفعل، وكان يجد قدرًا من حضورها في صحبتي. رغم هذا كان مؤيدًا تمامًا لمحاولتي لتخطي الماضي والبدء من جديد مع سلمى. ولهذا كانت

دعوته تلك للعشاء في المطعم العائم، والتي انتهت ـ بعد أن رفعت من أمامنا الأطباق الخالية ـ بإخراجه تلك العلبة المخملية الصغيرة من جيبه ووضعها أمامي مع ابتسامة عريضة..

ـ ما هذا؟

سألته فأجاب:

ـ افتحها.

فتحت العلبة فوجدت خاتمًا ذهبيًّا أنيقًا يسكنها. واجهته بنظرات تحمل دهشتي، فأجاب:

ـ من أجل الخطبة. لكي تقدمه لعروسك.

أغلقت العلبة مرة أخرى، وتناولت كوب ماء كبيرًا، لا لشيء سوى لمنح نفسي فرصة للسيطرة على مشاعري، ومحاولة العثور على الرد المناسب. تناولت الماء على رشفات قصيرة، حتى خلا الكوب، فأعدته لسابق موضعه..

ـ أنا لم أتخذ هذا القرار بعد. الأمر لم يزل صعبًا على نفسي.

تراجع في مقعده، مُتيحًا المساحة لبطنه للتمدد، بحثًا عن بعض الراحة بعد وجبتنا الثقيلة..

ـ أنا أعرف أنك تحبها. وأنت تعرف أنك تحبها. وهي كذلك تعرف أنك تحبها. وعلاقتكما ممتدة الآن منذ بضعة أشهر. حتى إنك التقيت بابنها وقلت لي: إنه شاب لطيف ومتفهم تمامًا لحبكما. فما المانع من بلوغ المنتهى بالزواج؟

كانت إجابتي مختصرة وتلخص بدقة ما أشعر به:

ـ هالة.

هز رأسه رافضًا..

ـ ألم تقرر أن تتجاوز الماضي؟

دون حاجة للبحث عن كلمات، قلت:

ـ هالة ليست من الماضي. هالة هي الحياة ذاتها؟

مد يده يمسك العلبة ويمدها تجاهي حتى لا أجد مفرًّا من أخذها. وبالفعل أخذتُها مُحْرَجًا من يده الممدودة.

ـ دع هالة تعش بداخلك، وعش أنت داخل تيار الحياة.

نهض واقفًا وهو يتأمل ملامح الحيرة على وجهي..

ـ يمكنك أن تحتفظ بذكرى هالة وأن تعيش سعيدًا في ذات الوقت.

تأهب الحرس من حولنا للرحيل. رفضتُ عرضه بتوصيلي إلى البيت. كنت راغبًا في التمشية قليلا في دفء الليلة الصافية، لعل أفكاري تأخذ من صفائها، وأصل إلى القرار المنشود.

***

كنت أحب زحام الحديقة في النهارات الدافئة. أحب السير وتأمل لهو الأطفال، ودفء الجلسات العائلية، ولمسات المحبين المختلسة. أحب حالة الصخب وتداخل الأصوات بغير إزعاج؛ وكأنما الضحكات، والصرخات، والنداءات، وحتى نُباح الكلاب، كل شيء يؤدي دورًا في نوتة موسيقية موضوعة سلفًا لتعزف لحنًا مغموسًا في الحياة. كنت أفتقد هذا بعد فترات من اعتياد الصمت؛ ولكن الآن أعيش فيما يشبه تقديس الحياة. وفي هذه اللحظة تحديدًا حين تجاورني سلمى، وتتحد إيقاعات خطواتنا

المتمهلة لتمتزج مع السيمفونية المحيطة بنا، يصبح القلب في أقصى درجات انتشائه. الآن أعتقد أن الوقت قد حان. كل هذه رسائل من الكون تدفعني للاستمرار وللبقاء. جذبتها من كفها المتشابكة في كفي نحو مقعد خال. تجاورنا متلاصقين فيما يشبه الخجل. كانت صامتة على غير العادة، وكأنها تنتظر مني مبادرة ما، وهو ما تلقيته كإشارة جديدة وختامية أني أسير في طريقي القدَري، وهو طريق ممهد ومرسوم بمواضع الخطوات اللاحقة، فلا داعيَ للتأني أو تحسس مواضع القدم؛ لا مجال لترددٍ، عليَّ فقط أن أقولها بوضوح وبأكثر الطرق مباشرة..

ـ هل تقبلين الزواج مني؟

قلتها وأنا أتحسس علبة الخاتم الراقدة في جيب بنطالي، وكلي ثقة أن الخاتم سيعانق إصبعها عما قريب. حتى الارتباك والتردد اللذان ارتسما على ملامحها لم يزعزعا من قوة يقيني، ولا حتى كلماتها حين قالت:

ـ أنا أعرف مقدار تعلقك بهالة وذكرياتها، ولا أعتقد أني أستطيع أن أملأ هذا الفراغ في روحك، فأنا لن أكون أبدًا نسخة منها.

قلت لها بسرعة:

ـ أنا لا أطلب منك أن تكوني نسخة منها. أنا أطلب منك أن تكوني أنت؛ بعفويتك، وانطلاقك، وصدقك، وثرثرتك التي لا تنقطع.

ابتسمتْ فاحمرَّ وجهُها بين خجل وسعادة تخشى أن تطفو طاغية على ملامحها فتفسد عليها حالة التدلل..

ـ هل تعدني أنكَ لن تطلب مني في أي يوم أن أتغير، أو أتحول لشخص آخر؟

ـ أعدكِ.

اتسعت ابتسامتها، وانفلتت السعادة من قيدها فمحت الابتسامة بضحكة صامتة يخترقها قول:

ـ وأنا موافقة.

حررت الخاتم من محبسه أخيرًا فاستقر في إصبعها وأمام نظرات إعجابها وذهولها..

ـ هذا يبدو غاليَ الثمن. كيف تحملت نفقته؟

فتحت فمي لأجيب، ولكنها بادرتني مبتسمة:

ـ وقبل أن تكذب لا تنس أني محاسبة في الشركة التي تعمل بها وأعرف كل تفاصيل دخلك المادي.

ابتسمت بدوري:

ـ لن أكذب. هو هدية من صديق يعرف مقدار حبي لك.

ـ ومن هذا الصديق؟

طوال الأشهر الماضية لم أكن أعرف إن كان مسموحًا لي بإخبار سلمى عن علاقتي بدكتور سراج أم لا. والغريب أني لم أسأله عن هذا الأمر، أو أطلب منه الإذن بإخبارها. لكن الآن وبحكم التطور الجديد في علاقتي بسلمى فربما لن أستطيع أن أخفي عليها الأمر أكثر من هذا. ربما فقط سأؤجل الإفصاح حتى أستأذن الرجل..

ـ سأخبرك بكل شيء في حينه.

كانت تتحسس الخاتم في يدها سعيدة، قبل أن تفاجئها تقطيبة جبين معلنة أنها تذكرتْ أمرًا طارئًا..

ـ هل أخبرتَ ابنكَ؟

فاجأني سؤالها، فبالنسبة لي نوح يقع خارج أي حسابات مرتبطة بحياتي..

ـ أنت تعرفين طبيعة علاقتنا. لا أظن أنه سيهتم بخبر كهذا.

ـ ولكنك يجب أن تخبره. إنه ابنك في نهاية الأمر.

بدا لي كلامها منطقيًا. ربما مكالمة تليفون مقتضبة، أو رسالة نصية. أو ربما أرسل له الخبر مع دكتور سراج. ارتحت أكثر للاختيار الثالث، واعتزمت تنفيذه..

ـ سأفعل.

عادت ابتسامتها تملأ وجهها، وهي تتساءل:

ـ هل سنقيم في شقتك؟

أجبتها:

ـ بالطبع.

كنت قد تخيلت الكثير من تفاصيل حياتنا في المكان، لكني كنت دائمًا ما أضع سلمى في ذات الأماكن وذات الأركان التي ألفتها من منزلي. أتخيلها نائمة على ذات الفراش، أو منكمشة على نفسها فوق ذات الأريكة أمام ذات التلفاز، أو تقف لتعد الطعام أمام ذات الموقد. لم أتخيل أن يتغير شيء من حياتي؛ كل التفاصيل عليها أن تبقى، فقط سأضيف إليها مكوِّنًا جديدًا يهبُها حياة جديدة. ولهذا أصابتني كلماتها التالية بقدر من الارتباك..

ـ حسنًا، سنغير كل شيء. الأثاث بالطبع، وربما بعض الديكورات، وربما

نعيد طلاء حجرة النوم تحديدًا. ولا تقلق من التكلفة، إنها حياتنا معًا، ويجب أن نتشارك في كل شيء، وأنا معي الأموال اللازمة لتجديد البيت وتهيئته لحياتنا...

لوقت طويل استرسلتْ في ثرثرتها عن تخيلاتها للبيت الجديد، والصورة التي تتمنى أن يصبح عليها. وكنت أتابعها بأذنين شبه ميِّتتين، وعقل شارد في براح من ذكريات تتآكل، وعينين متعلقتين بنقطة بعيدة في السماء، تحاولان أن تستكشفا إن كانت تلك النقطة هي طائر ما في رحلة هجرة روتينية، أم أنه حقًّا حصان مجنح يسعى بعيدًا قرب السحب المتفرقة!

***

عندما عدت إلى البيت ذهب عني الارتباك الذي أصابني لرؤية ما ظننت أنه حصان هالة المجنح في السماء، فقد مرت شهور دون أن تزورني تلك الرؤى الوهمية. وبدلا من الارتباك تلبَّسني حنين وشجن مفاجآن، وعيناي تدوران في كل تفاصيل البيت وكأنما هو طَوَاف للوداع. جلست قرب باب الشقة أتأمل كل شبر، كل قطعة خشب، وكل بقعة لون في الجدران. هل يعقل ألا تبنى الحياة الجديدة سوى على أنقاض القديمة؟ ليس هذا ما خططتُ له. أنا لا أريد تدمير كل ما فات. رغمًا عني سالت دمعة مَحَوْتُها سريعًا، ربما طغيان العاطفة هذا هو ما سيدمرني. عليَّ أن أتماسك، وأقنع نفسي أن الإنسان مجبر على المضي قدمًا، فليس في تيار الزمن اتجاه معاكس؛ للأمام دائمًا، فقط للأمام. لحظتها تذكرت تساؤل سمير عن الوحش الحقيقي: هل هو نحن أم الزمن؟ فتذكرت عزمًا قديمًا على معاودة الاتصال به للاعتذار. عزمًا بقى معلقًا في رقبتي لشهور دون

أن يجد الفرصة ليتجسد في فعل واقعي، بسبب الانجراف في جريان الزمن. قررت أن أتصل بسمير الآن دون لحظة تأجيل. طلبت رقمه وانتظرت طويلا حتى أجابني صوت أنثوي يخبرني ببرود أن سمير توفاه الله منذ شهرين. وضعت السماعة دون أن أسأل محدثتي عن هويتها، ودون أن أبالي بلياقة أو ذوق. رحمك الله يا سمير. أتمنى أن تجد روحك خلاصها، وأن تجد جوابًا لحيرتك. عساكَ أن تُبَرِّئ نفسَك، وتوقنَ أن الزمن هو الشرير في الحكاية.

نهضت مترنحًا ـ مثقلا بحزن ـ قاصدًا حجرة نومي لتبديل ملابسي. أتأمل أركان المنزل مرة تلو الأخرى، أستشعر بها حزنًا، فأقول لها: لا تلوميني فالزمن هو الجاني هنا. الزمن لن يترك شيئًا دون أن يدفع ضريبته، والضريبة هي التغيير. بشكل لا إرادي قادتني قدماي إلى المطبخ، وأمام دولاب التخزين الصغير توقفت آملا ربما في نظرة أخيرة على ذلك الشيء الذي سيحمل للأبد بقايا تشابك روحي بروح هالة؛ لوح التواصل. فتحت الدولاب وأخرجته، وقفت أتأمل الكلمة المرسومة عليه بخط جميل: سامحتُكَ. ارتجفت يداي فسقط اللوح من يدي. لماذا الآن؟ أنا أبدأ أخيرًا من جديد. فلماذا تعاودني تلك الهلاوس مرة أخرى؟ ربما سلمى محقة؛ البداية الجديدة لن تكتمل سوى بإحراق كل ما فات. سأتخلص من كل شيء. سأهدم الجدران وأعيد تشكيلها إن لزم الأمر. بل إنني لن أبقى في هذا المكان أكثر من هذا. سأغادر إلى أي فندق، وأطلب من سلمى أن تبدأ من الغد في إجراء كل التغييرات التي تشاء. تركت اللوح على الأرض وانطلقت إلى حجرة النوم عازمًا على جمع أغراضي. لكن قبل أن أبلغ دولاب ملابسي تسمرت قدماي في مكانهما. فقد كان هو هناك. واقف

أمام الدولاب يفتش في جوفه وقد أولاني ظهره. لم أميزه في البدء، فأنا لا أذكر من ملامحه سوى شذرات متطايرة عبر مسافات بعيدة، فكيف يمكن أن أميزه من ظهره؟ فقط حين صرخت:

ـ من أنت؟

فاستدار تجاهي، لحظتها عرفته. أنا أعرف أن هذا وهم، ولكن من قال: إن الأوهام ليست خطرة. خاصة عندما يقبض الوهم على سكين صغير ذي مقبض أحمر، ويبتسم في وجهك بجنون..

ـ لقد كنت أبحث عن هذا. أنا كنت واثقًا أنه لم يزل معك. أعرف أنك أخذته بعد تحرري. لكنك لم تجرؤ على استخدامه؛ لأنك غبي أو جبان، أو كلاهما. لقد طلبتُ منك أن تلحقني نحو الحرية ولكنك أبيت.

قلت بصوت تمنيت أن يخرج من فمي حاسمًا، ولكنه خرج متوترًا متآكل الأطراف..

ـ أنت وهم.. مجرد وهم.

اتسعت ابتسامته أكثر..

ـ ستدرك حالًا أني حقيقة. بل أنا الحقيقة الوحيدة في حياتك. لقد جئت لآخذك معي.

قالها وانقضَّ عليَّ عازمًا غرز سكينه في رقبتي، لكني قبضت على يديه في الهواء في حركة أنقذتني من موت وشيك، لكنها لم تكن سريعة لتنقذني من جرح أصابني في خدي حين انحرفت يده بالسكين. لم يكن أمامي من وقت للتألم، فقد كان يتأهب لتجربة طعنة جديدة. هذه المرة سبقته

منقضًّا محاولا شَلَّ حركته، فاشتبكنا في رقصة عنيفة متوترة. كان نحيلا، وكان فارق القوة لصالحي، ولكن فارق الجنون كان لصالحه. وكان يردد وهو يحاول أن يبلغ بسكينه شرياني:

ـ ستسعى بين المروج، ستنام على الأغصان، ستمتطي غيمات الصيف، سـ...

بركبتي ضربته أسفل البطن، فقطع صَلاته بصرخة ألم. أفلتُّ من قبضته وانطلقتُ هاربًا من الحجرة. أدرك من صوت أنفاسه الثقيلة أنه أفاق من صدمته وانطلق خلفي، لكني لم أكن أملك الوقت للنظر ورائي. كان عليَّ أن أربح هذا السباق نحو باب الشقة. فقط إن فتحت الباب سأستطيع أن أصرخ طالبًا العون من الجيران. لكن بمجرد خروجي للصالة أدركت أن مخططي ليس مقدرًا له دخول مجال التنفيذ. فهناك كانت هالة واقفة تسد الباب بجسدها، مرتدية دروعها الفضية اللامعة وكأنما تعلن حالة الحرب. تسمَّرت في مكاني أرتجف. ووراءي توقف الرجل المجنون متحفزًا، فأصبحت محاصرًا بين الوهمين. نظرات مجنونة من خلفي، وأخرى غاضبة من أمامي. لكني أعلم أن الغضب في عينَيْ هالة يخفي وراءه حبًّا، ولهذا كان هو الاختيار الأفضل والأقل مخاطرة، فاقتربت منها خطوتين..

ـ لماذا عدتِ الآن؟

قالت:

ـ أنت تسقط في أوهامك دون مقاومة، ولم يعد أمامي سوى انتزاعك منها عنوة.

صرخت فيها:

ـ أنتما وَهْمَايَ. وحان الوقت أن تغادرا بلا عودة.

فصرختْ بدورها:

ـ أنت لا تفهم. لا تصدق كل ما تراه مثل الأطفال. لا تصدق كل كلمة حانية أو ابتسامة لطيفة. عليك أن تكبر وتتعلم التمييز بين الواقع والوهم.

لم أشعر لحظتها أني أبكي، ولكنني أدركت هذا لاحقًا. لكن في لحظتي تلك كنت مشغولًا بارتجافة انفعال، وكلمات تنساب متهدجة من فمي:

ـ لقد قضيتُ عمرًا معلقًا بين الواقع والوهم، في حين تخليتِ أنتِ عني وهجرتِني. فلا تطالبيني الآن بالتمييز بينهما، فكل هذا من صنعك.

لم أتوقع أن أهاجم هالة يومًا بهذا الشكل، لم أتوقع أن أنفجر بكل ما طال كَبْتُه. ولكنها الحقيقة؛ لقد انشغلتْ كثيرًا بخطيئتي في حقها، ونسيتْ خطيئتها في حقي. فلولاها لما ذقت كل هذا العذاب، وقد حان الوقت لنتكاشف يا هالة..

ـ هذا ليس وقت المصارحة. ستغادر هذا العالم الوهمي الآن. إما على طريقتي وفوق صهوة جوادي. وإما على طريقته.

قالتها وهي تشير للرجل المجنون ورائي.

ـ أنا في العالم الواقعي بالفعل. وأنت وهو مجرد وهمين.

صرختْ غيظا:

ـ لماذا أنت متأكد هكذا؟

ـ لأنكما ميتان. أعتقد أن هذا سبب وجيه. بل إني قتلت هذا الرجل بنفسي.

تفاجأ الرجل المجنون بقولي، وبدا الضيق على ملامحه..

ـ مَن أخبرك بهذا؟!

ـ لقد شاهدتُه بعيني.

أسرع لينفي الأمر:

ـ إنهم يخدعونك أيها الأحمق. أنت لم تقتلني. أنا أصلا لم أمت، أنا تحررت. وقد آن الوقت لتتبعني.

قالها وهو يتقدم نحوي بخطوات حذرة مادًّا سكينه الصغير أمامه. توقفتُ متصنعًا الحيرة والتردد. شجعه هذا فتقدم أكثر وهو يقول:

ـ سترى كل شيء بنفسك الآن. فقط اهدأ ودعني أحررك.

تصنَّعت الاستسلام لينسى حذره ويظن أنه بالغٌ مرادَه لا محالة. انتظرت حتى اقتحم مجال حركتي، فانقضضت بسرعة مباغتة أضرب يده بيمناي ليسقط منها السكين فألتقطه بيسراي. الآن صار السلاح في يدي، لوحت به في وجهه فرسمت على خده جرحًا مطابقًا لجرحي، فصرخ.

ـ اهدأ يا أكرم وكفاك جنونًا.

ابتسمت في وجهيهما لأبدو مخيفًا وأنا أقول:

ـ بالضبط. كفاني جنونًا. اِرحلا. أنا لا أريدكما في حياتي.

حاولت هالة أن تقطع خطوة نحوي، فلوحت بسكيني في وجهها مهددا، فتوقفت..

ـ أنت لا تفهم..

قاطعتها صارخًا:

ـ بل أنت لا تفهمين. أنا أكرهك يا هالة. أكرهك بقدر كل لحظات الألم التي عشتها.

اتسعت عيناها ذهولا، وفتحت فمها لتقول شيئًا ما، لكني لم أسمعه. ففي اللحظة التالية كنت أصحو من نومي.

كنت فوق فراشي بذات ملابس الخروج وقد حلَّ ظلام المساء، ألهث بفعل ثقل الكابوس. نظرت حولي فكانت الحجرة خالية. نهضت مسرعًا نحو الصالة، فكانت خالية بدورها. تذكرت أمر لوح التواصل فهرعت إلى المطبخ. لم يكن اللوح مُلقًى على الأرض كما يفترض به. بل كان آمنًا في مخبئه، وهو لم يزل محتفظًا برسالتي الأخيرة (سامحيني). عدت إلى حجرة النوم، وفتشت بين ملابسي فوجدت السكين وجهاز العرض قابعين في مكانهما، لكن السكين لم يكن كما يفترض به أن يكون في نومته الأبدية، وإنما كان ثمة دم طازج يلوث نصله، دم يُفترض ـ بحسب الحلم ـ أنه سال من جرح في خدي. وضعت يدي على خدي لحظتها فاستشعرت سائلا لَزِجًا يغطي ما بدا لي كجرح سكين.

***

كنت أرتجف وكان دكتور سراج جالسًا أمامي يضع اللاصق الطبي بعناية فوق جرح خدي، بعد أن قام بتنظيفه، ومعالجته بأدوية مطهرة. في حين تقدم منا واحد من حرسه ليمد نحونا صينية عليها كوبا شاي صُنِعا في مطبخي. كانت لحظة انهيار تلك التي عشتها حين اكتشفت الجرح، فلم أشعر بنفسي وأنا أهاتف دكتور سراج وأطلب منه النجدة. وبرغم كل مشاغله هرع الرجل لنجدتي بالفعل. بدوره كان متوترًا، يحاول

إفراغ انفعالاته في شكل ابتسامة هادئة وهو يتأمل ما تحول إليه جرحي على يديه، ويهز رأسه في رضا:

ـ ليس سيئًا.

بعدها تناول رشفة من الشاي، وأغمض عينيه لثوان وكأنما يقوم بتصفية ذهنه. كنت قد حكيت له كل شيء فيما مضى من دقائق. اعترفت له لأول مرة بهلاوسي عن هالة وحصانها المجنَّح، منذ أن خرجت من سجني، وحتى هاجمتني في بيتي هي وشريكها المجنون. والآن أنا أتأمل الرجل الحكيم منتظرًا منه تعليقًا. وهو ما منحني إياه بعد رشفة الشاي الثانية:

ـ أعتقد أنه أمر طبيعي ولا يستدعي أي قلق. فبالتأكيد بعد كل ما عانيته طوال سبعة وعشرين عامًا، لابد وأن تمر بحالة خلل في الإدراك. ربما يحتاج الأمر لمساعدة طبية بسيطة.

أشرت إلى جرحي:

ـ وماذا عن هذا؟

قال بعد رشفة الشاي الثالثة:

ـ هذه ربما هي أخطر نقطة في الموضوع. فكما يبدو أنك فعلت هذا بنفسك. وهو ما يجبرنا على المضي في طريق العلاج في أسرع وقت ممكن.

أشعرتني كلماته بخوف طفا على ملامحي، فمد يده يربِّت على كتفي تعاطفًا..

ـ لا تقلق. صدقني الأمر طبيعي جدًا. وربما يكون مؤشر خير أنك واجهت أشباح ماضيك، وقاتلتهم، وانتصرت عليهم.

نهض واقفًا، وقال وهو يغلق أزرار سترته:

ـ هيا، رافقني. سآخذك لشخص بمقدوره مساعدتك.

سألته:

ـ من تقصد؟

قال:

ـ طبيب نفسي بالطبع.

كنت أتمنى الرفض، ربما خوفًا من خوض تجربة جديدة مع ألاعيب العقل. لكنه كان متحمِّسًا، كاسحًا، كتيار نهر جارف، وكانت المقاومة شاقة، ومجرد التفكير فيها يصيب عقلي بالخدَر، فنهضت مستسلمًا وتبعته. في سيارته أجرى مكالمة هاتفية بمستشاره العلمي والذي رشح له اسم طبيب نفسي شهير، وقبل أن نقطع نصف الطريق لعيادته، كان الموعد قد تم حجزه، وتم إخبارنا هاتفيًّا أن الطبيب في انتظارنا. بدت الراحة على وجه دكتور سراج، وكأنما حط عن كتفيه حملا ثقيلا. أخبرني أنه سيترك معي واحدة من سياراته، معها سائق وحارس. وطلب مني أن أهاتفه بمجرد أن تنتهي جلستي مع الطبيب لأخبره بما جرى. شكرته وعقلي لم يزل ملفوفًا بتوجساته مما هو قادم، إضافة لفكرةٍ سيطرت عليه فقررت أن أبوح بها:

ـ ماذا إن كانت الشريحة هي السبب؟

رفع حاجبَيِ الدهشة..

ـ كيف؟

ـ هالة وهذا الرجل المجنون كانا جزءًا أساسيًا من الكوابيس التي كانوا

يبثونها في عقلي في السجن عبر الشريحة. ربما استمرار ظهورهما مرتبط باستمرار وجود الشريحة.

هز رأسه مستنكرًا..

ـ لا أظن. فالشريحة لم تعد أكثر من قطعة صماء ميتة.

برغم أن الفكرة كانت تخيفني، لكني قررت أن ألقي بسرعة، مستبقًا فرص التردد:

ـ اِنزعوها مني إذن.

ابتسم الرجل وربَّت على فخذي..

ـ سنفعل.. فقط دعنا ننتظر رأي الطبيب.

***

في العيادة الفاخرة كان الأمر مطابقًا للتصورات الكلاسيكية؛ الشيزلونج المريح، والرجل الوقور يدون ملاحظاته عما أقول، وأنا مسترخٍ أثرثر عن كل شيء. ربما منذ ميلادي لم أتحدث بكل هذا القدر في جلسة واحدة مع أي شخص. وفي النهاية مَنَحَنِي علبة دواء من خزانته، وطلب مني الانتقال لمحل سكن جديد، وتَرْكَ كلِّ ما يذكرني بهالة وبحياتي الماضية. أخبرته أن هذا ما كنت أنتويه بالفعل، فاستحسن قراري، وطلب مني الإسراع في التنفيذ. وهذا ما فعلته؛ كنت لم أزل على السلم في رحلة الهبوط حين هاتفت دكتور سراج وأخبرته بكلمات الطبيب، فأخبرني أن سائقه سيأخذني إلى فندق فاخر، وسأقضي فيه أيامي التالية حتى يتم الانتهاء من تغيير ديكورات الشقة. انتهزت الفرصة وسألته إن كان بمقدوري إخبار سلمى عن شخصية صديقي السري الهام، فضحك، وطلب مني أن أؤجل هذا الأمر حتى يتم الزواج.

بعد دقائق كنت أدخل حجرتي الرحبة في الفندق الفاخر. وقفت لدقيقة مبهور الأنفاس أتأمل تفاصيل المكان. أنا لم يسبق لي الاحتكاك بكل هذا القدر من النعومة والثراء. كل التفاصيل كانت منعشة ومريحة؛ الألوان، والرائحة، والمفروشات. أَلقيت فوق الفراش جسدًا أنهكته الليلة الطويلة. مع الحركة سمعت صوت ارتطام شيء معدني بالأرض، لكني لم أبال، فقد غاب عقلي في النوم سريعًا. استيقظت بعد فترة على صوت طرقات على باب الحجرة. نهضت مترنحًا أفتح الباب، فوجدتُه حارس دكتور سراج الذي أوصلني إلى هنا وقد أحضر لي حقيبة ملابس جديدة. شكرته مستشعرًا الحرج من كرم الهدية. وبعد مغادرته هاتفت دكتور سراج لأخبره أنه لم يكن من داعي لهذه التكلفة، لكن الرجل أخبرني أن كل هدايا الدنيا لا تكفي مقدار بطولتي. أنهيت المكالمة وفتحت الحقيبة مخرجًا منامة جديدة، ارتديتها مستشعرًا الراحة ومُمَنِّيًا نفسي بنوم هانئ، لكن في لحظة الصعود للفراش وطئت قدمي شيئًا معدنيًّا. رفعت القدم لأجد السكين الصغير قابعًا هناك! لا أذكر متى وضعته في جيبي، لكني لم أكن لأتوقف طويلا عند تفصيلة كتلك بعد كل ما مررت به من جنون. حملت السكين ووضعته فوق الكومود، وتناولت قرصًا من دواء الطبيب، واندسست في الفراش، لعل السكين يختفي حين أستيقظ في الصباح.

***

في العمل كنت نشيطًا، متحمسًا لدرجة أثارت دهشتي. ربما بفعل النوم المريح فوق الفراش الفاخر، أو ربما بفعل دواء الطبيب. المهم أني شعرت بانفتاح القلب على الحياة، وصفاء يغلف كل شيء، وكأن ما مررت

به من جنون كان منذ أزمان بعيدة، وليس منذ ساعات معدودة. انتظرت بشوق انتهاء فترة العمل الأولى، ومع إعلان وقت الغداء انطلقت ألتهم درجات السلم الصاعد إلى سلمى. دخلت مكتبها فقابلتني بابتسامة، بقت لثانية واحدة قبل أن تنهزم أمام القلق والاهتمام وهي تشير بإصبعها نحو خدها هي، متمثلة ذات موضع جرحي..

ـ ما هذا؟

وضعت يدي متحسسًا اللاصق الطبي وقد كنت نسيت أمره..

ـ هذا.. مجرد...

توقف لساني عند حدود الكذب. سحبت مقعدًا لأقرب نقطة ممكنة من جلستها. واستبدلت بالكذب تنهيدة انفعال، وقلت:

ـ سأحكي لك كل شيء.

وكما فعلتُ بالأمس مع دكتور سراج كررت أمامها ذات الاعترافات، وكشفت كل أسراري المتعلقة برؤى هالة. وهي أنصتت باهتمام وتعاطف. وحين انتهيت من سرد الذكريات، حدثتها عما يقلقني أن تكون الشريحة لها دخل بهذا، ربما شريحتي لم تزل نشطة بشكل ما. ربما تعمل بصورة تلقائية لتبث لعقلي كوابيس من ماضي. لكن حين جاء دور سلمى للكلام حاولت إقناعي بصعوبة هذا الأمر. كان رأيها مؤيدًا لرأي دكتور سراج أن الشريحة لا تعمل من تلقاء نفسها، وبالتالي هي مجرد غرض لا قيمة له. ولكنها أضافت:

ـ إن كان يريحك هذا فيمكننا أن نطلب رأي جراح أعصاب. ربما وجدنا واحدًا لديه القدرة على نزعها، ولا تقلق من التكلفة، فأنا سأتحمل كل شيء.

هززت رأسي وابتسمت شاكرًا..

ـ لا داعي، دعينا فقط نجرب طريق العلاج النفسي. فأنا بالفعل أشعر بالراحة والهدوء بعد أن تناولت هذا الدواء. فقط أريد منك أن تبدئي حالا في عملية تجديد المنزل.

أخبرتها أني مقيم في فندق حتى تنتهي، وعندما منحتها اسم الفندق، رفعت حاجبيها انبهارًا..

ـ هذا فندق غالٍ جدًا يا صغيري.

رفعت أمام عيني إصبعها الذي يسكنه خاتمي..

ـ بالأمس هذا. واليوم ذاك الفندق. ما الأمر؟ هل سأكتشف في النهاية أنك مليونير؟ ربما!

قالتها وابتسمت، ثم رسمت على وجهها ملامح خطورة مضحكة..

ـ هل سأكتشف بعد الزواج أنك رجل عصابات مثلا؟!

ضحكت وأخبرتها أن الفندق كذلك هدية من ذات الصديق السري الذي لم يسمح لي بعد بالبوح باسمه، فابتسمت قائلة:

ـ تقصد أنك لست رجل عصابات، ولكن صديقك هذا هو رجل العصابات؟

دوت صافرة نهاية استراحة الغداء، فنهضت واقفًا وأخرجت من جيبي مفتاح الشقة ووضعته أمامها..

ـ أرجوك أن تنتهي من أمر الشقة في أسرع وقت ممكن. والتكلفة سنتحملها سويًّا كما اتفقنا.

استدرت مغادرًا وأنا أعدها أن نتقابل كالمعتاد بعد انتهاء الدوام. لكنها استوقفتني عند الباب مقترحة..

ـ لماذا لا نضاعف حجم التغيير المنتظر، ونسكن في شقتي؟ فمهما فعلنا في شقتك من أعاجيب فنحن لن نكشط عنها الذكريات مع دهان الحوائط. ولن نخرج منها أنفاس هالة مع الأثاث القديم.

لن أعترف لها الآن أني فكرت في هذا الأمر، وأني كنت محرجًا من طرحه عليها. سأتمهل قليلا وأدَّعي صعوبة التقبل..

ـ لا أعرف. دعيني أفكر ولنتحدث في هذا الأمر بعد العمل.

هزت رأسها ومنحتني ابتسامة جميلة، فحملتها في روحي وغادرت المكتب. هبطت درجات السلم إلى حيث يملأ العمال الردهة بين باب المطعم وباب صالة المصنع. قطعت الخطوات عكس تيار الزملاء الصاخبين، ودخلت المطعم. كان قد خلا إلا من الطهاة يجمعون بواقي الطعام من القدور الكبيرة. توجهت إلى كبيرهم وألقيت عليه التحية، وطلبت منه شطيرة أي شيء؛ لأن وقت الغداء قد فاتني. بالطبع لم يكن الطاهي ليلبي طلبًا كهذا لأي عامل سواي. فأنا بالتأكيد رجل ذو وضع مميز في المكان، فأنا البطل القومي الذي جاء تعيينه هنا بأمر مباشر من وزارة العمل. انصرف الرجل عني ليعد الشطيرة، فالتفت أطالع شاشة التلفاز التي تعرض الأخبار دائمًا. هناك كان المذيع الوقور يؤكد أن ما سينقله الآن هو خبر عاجل؛ خبر متعلق بانتهاء محاكمة واحدة من أهم مناهضي حكومة المستيقظين، المحامية السابقة صفاء الراعي، والتي حكم عليها منذ ساعة واحدة فقط بالإعدام.

نظراتي بقت معلقة بالتلفاز دون قدرة على إبعادها. نداءات الطاهي باسمي تحولت إلى لمسات ثم وكزات في كتفي لكي ينبهني ليده الممدودة

نحوي بالشطيرة. وعندما انتبهت له، لم أفهم ما يريده مني، ولا ما هذه الشطيرة. فقط قلت له وأنا أشير إلى التلفاز:

ـ هذا كذب. هذه السيدة لا تستحق هذا.

مط شفتيه..

ـ لا تُبالِ.

صرختُ في وجهه:

ـ بلى أبالي. هذه السيدة لا تستحق هذا.

خرجت من مجال نظرات الرجل المذهولة إلى الردهة المزدحمة. خطواتي السريعة الغاضبة لم تمنحني فرصة تفادي الأجساد، فاصطدمت ببعضها، ودفعت بعضها متعمدًا لأفسح المجال لانطلاقتي المغادِرة. طالتني بعض أصوات الاعتراض، فالتفتُّ إليهم صارخًا:

ـ صفاء الراعي سيدة عظيمة. أنا واثق من هذا. هي ليست خائنة أو مجرمة.

استدرت مواصلا الانطلاقة التي تجاوزت حدود الخطوات الواسعة لأجد نفسي أركض نحو باب المصنع. خرجت إلى الشارع متجاهلا نداءات رجال الأمن المتسائلة عن تصريح الخروج. الأرض كانت تميد بي، ورأسي تدور وسط زحام الشوارع. زحام شديد لكنه ـ عاد كما اعتدته لفترة طويلة بعد خروجي من السجن ـ صامتًا متجهمًا. صمت أحمق مستفز، فصرخت في الناس وفي الصمت:

ـ هناك شيء خاطئ يحدث. هناك شيء خاطئ بالتأكيد. من يوافقني؟

لم أتلق أي ردود ولا حتى بالتفات النظرات. التيار يجرف الجميع، ولا أحد يبالي بصرخاتي ولا بوجودي، فرفعت الصوت أكثر..

ـ ماذا دهاكم؟! سيقتلون السيدة العظيمة. سيقتلونها.

كذلك لم يُبَالِ بي أحد، أو يلتفت نحوي أحد، سوى جنديين رأيتهما يتقدمان نحوي عبر الزحام من بعيد.

***

كنت جالسًا على ذات المقعد، في ذات حجرة الانتظار. ذات الفتاة الجميلة دخلت ووضعت أمامي كوب القهوة، ثم غادرت دون كلمة أو إشارة. هذه المرة طالت فترة الانتظار حتى أنهيت كوبي كله. وامتد الانتظار لما بعد الكوب لِأَمَدٍ كافٍ لإثارة الملل. في النهاية فتح الباب ذاته ودخل منه نوح. هذه المرة لم يكن متعبًا، ولم يسع لإراحة جسده على المقعد المواجه لي. وإنما كان نشطًا متعجلًا، وكأنما بإحضاري إلى هنا قاطع أمرًا هامًّا كان يشغله، ويتعجل العودة لإتمامه. وأيد هذا الإحساس ذلك العجوز البدين الذي دخل وراءه حاملا مجموعة من الأوراق. وقف نوح أمامي يتأملني بنظرات بين الغضب ونفاد الصبر، ووقف العجوز البدين وراءه يتأملني بابتسامةٍ ودود، وكنت أنا أبادله التأمل وأنا أحاول استدعاء لقطة قديمة من ذاكرتي كان هو بطلها، وكانت ابتسامته تتسع كلما طال تأملي له وكأنما يشجعني على تذكره. في النهاية قرر أن يمنحني مفتاحًا للذكرى، ففرد ذراعيه بطريقة استعراضية وقال:

ـ ترقية.

ثم ضحك فتذكرته. التفت له نوح بنظرات اللوم، فتجهم العجوز وقال مدافعًا:

ـ أنا فقط كنت أعرف البطل منذ زمن طويل. فأردت أن أذكره بنفسي.

لم يعلق نوح وإنما أطلق من عينيه نارًا أخرست العجوز، وعاد يلتفت إليَّ..

ـ ما فعلتَه يمكن أن يدمرني. ولو اقتربتْ تصرفاتك ولو بقدر غير ملحوظ من تدمير سُمعتي، فسوف أدمرك أولا قبل أن تفعل.

تقدم مني أكثر وقد بات غير قادر على كبح جماح غضبه..

ـ لا تعتمد على أنك أبي. فأنا كما قلت لك من قبل؛ لا أب لي.

برغم تهديده لكني لم أكن لأترك فرصة وجودي هنا تضيع دون استغلال، فأنا هنا في معقلهم، وأمام أحدهم، فلابد وأن أجاهر بما يفور في صدري..

ـ صفاء الراعي مظلومة.

صرخ في وجهي:

ـ صفاء الراعي ملعونة. وإن بقيتَ على تعاطفك معها، فسيسعدني أن أسهل لك اللحاق بها.

ارتجفت أمامه هذه المرة. ليس خوفًا من تهديده، وإنما خوفًا من فكرة أن هذا الوحش هو ابن هالة. أم ترى أن فِعلتي الشنعاء التي أنجبته، هي ما صاغته على هذا الشكل؟

ـ سأمنحك فرصة أخيرة. اخرج من هنا وعد إلى أحضان امرأتك. تزوجها، وانتقل إلى بيتها، وواصل تناول دوائك. أنت الآن تقف على أعتاب عالم جديد. اخرج إليه، وعش حياتك، ولا تشغل عقلك بأي شيء آخر. ودعني أصيغ الأمر بشكل صريح؛ أي خطأ آخر يقع منك، ستكون عقوبته الإعدام دون محاكمة.

قالها واستدار مغادرًا يتبعه العجوز البدين. وبقيت في الحجرة الخالية لا أعرف ماذا يجب أن أفعل. دقيقتان قضيتهما ألملم بقايا نفسي، ثم نهضت قاطعًا المسافة الصغيرة نحو الباب، لكن دون أن أبلغه انفتح الباب ودخل عبره دكتور سراج وعلى وجهه لهفة وتساؤل..

ـ هل أنت بخير؟

هززت رأسي..

ـ أنا بخير لا تقلق.

ابتسم في وجهي، وأحاط كتفي بذراعه، وقاد خطواتي عائدين إلى قلب الحجرة..

ـ عندما أبلغوني بما حدث، وعلمت أنهم اقتادوك إلى هنا، خشيت أن تتعرض لأية مضايقة، فهرعت إليك على الفور.

هززت رأسي متخفيًا وراء رغبة في عدم الإفصاح..

ـ لا تقلق؛ لم يضايقني أحد.

برفق دفعني لأجلس، واتخذ هو مجلسًا مقابلا.

ـ أخبرني إذن، ماذا حدث؟ لقد أخبروني أنك كنت ثائرًا في الشارع، وتتلفظ بكلمات غير مفهومة. هل ساءت حالتك مرة أخرى؟ هل تناولت دواءك؟

رفعت كفي أمام وجهه موقفًا اندفاع استنتاجاته..

ـ أنا بخير. أنا فقط كنت غاضبًا.

ـ لماذا؟

بالتأكيد هو يعرف. وبالتأكيد أبلغَ بالكلمات ـ غير المفهومة! ـ التي

كنت أتلفظ بها في الشارع. ربما هو فقط يحثني على الاعتراف، أو يريد أن يسمعها مني.

ـ لقد حكم على صفاء الراعي بالإعدام.

تنهد مفرغًا انفعالاته. وشرد مطاردًا أفكاره. وابتسم مستدعيًا قدراته على ضبط النفس. ثم قال:

ـ أنا أعرف أن لك تاريخًا معها. وأنها قدمت لك عونًا كبيرًا في وقت من الأوقات...

اندفعت أقاطعه:

ـ لقد كانت تعمل ضد بروتوكول تنظيم الوقت. وكانت دائمًا في مرمى اتهامات الحكومة السابقة. فكيف تريد مني أن أصدق أنها خائنة وتعمل ضد مصلحة البلاد؟

ـ أنا لا أريدك أن تصدق، وأعرف أنك لن تصدق، فأنت محق في كل ما قلته. صفاء الراعي ليست خائنة. والخلاف بيننا وبينها هو مجرد اختلاف في وجهة نظر كل منا للأولويات.

صدمتني كلماته، وأغضبتني بذات القدر..

ـ وهل الاختلاف على ترتيب الأولويات عقوبته الإعدام؟

تنهد مرة أخرى، وبان على وجهه ملامح صراع داخلي بين لزوم الكتمان والرغبة في الإفصاح، في النهاية بدا وكأنما انتصرت الرغبة في الإفصاح، فدفع جسده تجاهي حتى بلغ مجلسه طرف مقعده، ومال بخصره نحوي، وقال هامسًا:

ـ صفاء لن تعدم. والحكم الذي أعلنَ عنه مجرد دعاية هدفها أن نقطع

الطريق على أي شخص يريد أن يسير على ذات طريق صفاء لأغراض مشبوهة. فأول مبدأ تعلمته بمجرد أن بدأت ممارسة الحكم، أن الطريق الواحد قد يقود لنهايات مختلفة. صفاء مضت في طريق المعارضة؛ لأنها تريد الوصول لما فيه مصلحة هذا الوطن. ولكن غيرها قد يسير في هذا الطريق بهدف الإضرار بمصلحة الوطن. لذلك نحن لا نستطيع أن نعلن الصفح عن صفاء، فنشجع كل أصحاب النوايا الخبيثة للمضي في ذات الطريق. كان يجب أن نقدم لهم صفاء كنموذج لما يمكن أن يحدث لهم. الإعلان عن إعدام صفاء سيجبر الكثير من الفئران على البقاء مختبئين في الجحور. أما صفاء نفسها فهي ضيفة عزيزة الآن في مكان سري، وتستعد للسفر خارج البلاد لتنعم بتقاعد مريح على نفقة الدولة. وتأكد أنها راضية تمامًا عن هذا.

بدت لي حكايته ككذبة مرتجلة تُروى لطفل غاضب لتهدئته. ربما ارتسم على ملامحي قدر من هذه الشكوك، فقد ابتسم الرجل وقال:

ـ أتحب أن تقابلها؟

***

قادتنا السيارة إلى خارج المدينة. تجاوزنا الزحام والصخب إلى براح الأراضي الخضراء، والسماء الممتدة زرقتها إلى مالا نهاية. بلغنا مزرعة كبيرة فخرجت بنا السيارة عن الطريق الرئيس، إلى طريق ترابي صغير ينتهي ببيت ريفي جميل، توقفت السيارة أمام بابه الأمامي. التفت نحوي دكتور سراج وقال:

ـ هي تعلم بقدومك وتنتظرك.

سألته:

ـ ألن تأتي معي؟

هز رأسه نافيًا..

ـ أنا أريدها أن تتحدث معك على سجيتها. لا أحب أن يحدث وجودي ضغطًا. ولكني سأنتظرك هنا.

تفهمت موقفه، ففتحت باب السيارة وترجلت دون أن أعلق بحرف. قطعت الخطوات حتى باب البيت. وجدت بجواره زِرًّا يطلق صوت الجرس، لكن قبل أن ألمسه انفتح الباب، وظهرت على عتبته سيدة في نهاية الستينات أو بداية السبعينات، لكنها بدت بصحة جيدة. ابتسمت في وجهي ودعتني للدخول. احتجت وقتًا من التأمل قبل أن أدرك أنها هي ذاتها صفاء الراعي. تقدمت إلى داخل البيت وأنا أتبعها مواصلا رحلة التأمل. كان جسدها لم يزل ممتلئًا ملفوفًا كما رأيته منذ قرابة الثلاثين عامًا. وكان ذات العطر الجميل المسكر يفوح منها. قادتني إلى حجرة جلوس صغيرة وأنيقة. دعتني للجلوس على مقعد مريح، واتخذت لنفسها مقعدًا أمام طاولة مرتفعة يعلوها قفص طيور به عدد من الأفراخ الصغيرة.

ـ هل مازلت تطعمين أفراخ الطيور بيديك؟

ابتسمت وقالت:

ـ ومن غيري سيفعل؟

ثم انهمكت في إطعام صغارها بالمِحقن، وهي تبادلني الحديث

والسؤال عن الأحوال ومتغيرات الدنيا. أخبرتني عن مدى سعادتها عندما علمت أني نجوت من تجربة السجن البشعة، وحدثتني عن أسفها لوفاة هالة، وقالت: إنها التقت الكثيرين من قيادات المستيقظين مؤخرًا، وسمعت منهم حكايات عظيمة عن بطولات هالة ودورها الحيوي في جماعتهم. أخبرتها أني أحاول تجاوز ذكريات الماضي والبدء في حياة جديدة. وأخبرتها عن قراري بالزواج. لم أخبرها شيئًا عن شبح هالة، ولا عن تجاربي العقلية المربكة الأخيرة، ولا عن رحلتي الوليدة مع العلاج النفسي. كانت كجلسة ودية بين صديقين قديمين فرقتهما الأعوام، حتى إني لم أتطرق للأمر الذي جئت من أجله حتى أنهت ما تفعله، وحملت القفص ووضعته في مكانه فوق حامل معدني في ركن الحجرة، ثم عادت لتجلس على مقعد وثير، لتبادرني هي بالحديث عن الأمر:

ـ أنا أعرف لماذا أنت هنا. ولا أريدك أن تقلق أبدًا. بالتأكيد هناك خلاف قائم بيني وبين القيادات الجديدة، لكنه لا يتعدى الخلاف الصحي في وجهات النظر، لكني لا أشكك أبدًا في نواياهم، ولا في حبهم لبلادهم.

سألتها:

ـ لماذا سترحلين إذن؟

ـ اعتبره تقاعدًا مستحقًا. أو خدمة أخيرة للوطن. فأنا أعرف أن إعلان إعدامي سيساهم في كشف الكثير من الخونة والمنتفعين.

برغم الثقة التي تتحدث بها إلا أن عقلي لم يكن قادرًا بعد على ابتلاع ذلك المخطط الغريب. وكأنما قرأت أفكاري، تنهدت في حزن وقالت:

ـ أنا لم أكن أريد إخبارك، ولا أعرف لماذا. شيء بداخلي يشعرني وكأننا

أصدقاء عُمْرٍ، برغم أننا لم نلتقِ سوى مرتين تفصل بينهما عشرات الأعوام. ولهذا أنا على يقين أن خبرًا كهذا قد يسبب لك حزنًا. ولكني سأخبرك على كل حال؛ أنا مريضة جدًا، وأحتاج للعلاج خارج البلاد. لذلك فهو تقاعد ورحلة علاج في ذات الوقت.

بالفعل أحزنتني كلماتها..

ـ يؤسفني سماع هذا.

ابتسمت..

ـ لا تأسف. فأنا غير آسفة على شيء. لقد أديت رسالتي، وسأترك بلدي وأنا واثقة أنها نجت، وصارت على الطريق الصحيح.

شردت نظراتها للبعيد، وارتسمت على شفتيها ابتسامة، ومن عينيها أضاء بريق للأمل..

ـ دكتور سراج رجل يحب هذا الوطن، ويعرف جيدًا كيف يحميه ويقوده لبر الأمان، برغم صعوبة التحديات التي تواجهه. ليتك تؤمن به كما أؤمن أنا.

هززت رأسي مؤيدًا..

ـ أنا أؤمن به. فأنا أعرفه عن قرب، وأعرف كم هو حنون وخَدوم.

هزت رأسها في رضا، وقالت:

ـ هذا يطمئنني أكثر على مستقبل البلاد. فأنت في النهاية رمز وطني حتى وإن لم تقصد هذا.

ساد الصمت لثوان؛ صمت محرج لشخصين اكتفيا من الحديث.

توقفت سريعًا عن البحث العنيد عن أي شيء يقال، ونهضت مستسلمًا لمقتضى الموقف، معلنًا أن أوان الرحيل قد حان.

ـ أنا سعيد بلقائك جدًا. وسأفتقدك كثيراً برغم أننا لم نلتقِ سوى مرتين كما قلت من قبل.

ابتسمتْ وبدت في عينيها التماعة لدموع محبوسة..

ـ وأنا كذلك سأفتقدك.. ولكن....

فجأة ارتعشت ابتسامتها، وانسحبت مرتدة شيئًا فشيئًا حتى اكتسى وجهها بتجهم الارتباك. بدأت ترتجف وصوت لهاثها يتعالى. لم تبد لي مريضة بقدر ما بدت لي متوترة، أو متصارعة مع قوى نفسية ما. وعندما سددت نظراتها نحو عمق عيني، لم تكن نظراتها كما تعودتها. وكأن شخصا آخر يطل من عينيها..

ـ هالة على حق. عليك أن تتبعها؛ فهي على حق.

أصابتني كلماتها بالصدمة ولم أفهم مقصدها. فكيف لها أن تعرف بما أخبرتني به هالة؟ وعن أية هالة تحديدًا تتحدث؟ هالة الواقعية التي غادرت العالم؟ أم هالة الحالمة التي تطاردني؟

ـ ماذا تقصدين؟!

طلبت منها التوضيح، فقالت وارتجافاتها تتزايد، والعرق صار باديًا على جبينها، سائلًا على وجنتيها:

ـ عليك أن تشاهد تسجيل الفيديو مرة أخرى. لكن وحدك هذه المرة. بعيدًا عن رجال التحقيق الذين عرضوه عليك لأول مرة، وبعيدًا عن سراج الذي عرضه عليك لثاني مرة. شاهده وحدك دون رقيب.

كيف عرفت بكل هذا؟ ولماذا أشعر أن من يتحدث الآن ليس صفاء الراعي. تراجعت لخطوة مستشعرًا الخوف، وفكرت أن....

كنت في السيارة بجوار دكتور سراج على المقعد الخلفي، وكان هو يثرثر عن شيء ما؛ كلماته تتدفق وكأنما هي ممتدة منذ زمن، والسيارة كانت تقترب بنا من حدود المدينة لنغوص من جديد في زحامها. ورأسي كانت تدور في كل مكان متيقنة من أني حقًّا هنا. ربما كان في نظراتي الكثير من الصدمة والجنون، ولهذا قطع دكتور سراج استرساله، وواجهني بنظرات متسائلة..

ـ ما بك؟

ـ كيف جئت إلى هنا؟!!

بدا عليه عدم الفهم، فتابعت موضحًا:

ـ لقد كنت واقفًا للتو في بيت صفاء أتحدث معها، وكانت تخبرني أن...

تذكرت آخر كلماتها فآثرت الصمت. برغم سؤال بدا لحوحًا من دكتور سراج:

ـ بماذا كانت تخبرك؟

هززت رأسي مفضلا الكذب..

ـ لا أذكر. أنا أذكر فقط أنها كانت تقول شيئًا، وفجأة وجدت نفسي هنا والآن.

عقد حاجبيه، وتراجع برأسه للوراء، وكأنما يريد أن يمنح عينيه مساحة أوسع لتأملي..

ـ هل تقصد أنك فقدت الذاكرة لبضع دقائق؟

كان صوتي عاليًا وطريقتي حادة..

ـ أنا قلت لك ما حدث، ولم أقل لك كيف حدث؛ لأني لا أعرف هذا.

ربَّت على ذراعي..

ـ فقط اهدأ. دعنا نذهب للطبيب ونخبره بهذه المستجدات. فربما الخلل الذي أصاب إدراكك قد انتقل الآن إلى ذاكرتك.

أصابتني كلماته بالحيرة والتوجس..

ـ أرجوك أعدني إلى الفندق فقط. فربما أنا بحاجة لقسط من الراحة.

ـ كما تشاء.

بعد دقائق كنت أترجل من السيارة أمام الفندق، وكان هو يودعني بنصيحة..

ـ خذ دواءك قبل أن تنام.

هززت رأسي لأطمئنه، بينما عقلي ملتهب بغليان الأفكار، أحاول مستميتًا أن أستعيد ما حدث في ذلك الزمن المفقود، فلا أستطيع. صعدت إلى حجرتي، وألقيت نفسي فوق طرف الفراش جالسًا. كان العقل لم يزل يستعيد كلمات صفاء الراعي مرات وراء مرات إلى مالا نهاية. ماذا كانت تقصد بحديثها عن هالة وعن تسجيل الفيديو؟ كيف دَرَتْ أصلا بهذه الأمور؟ وجهت نظراتي نحو الكومود، فكان السكين الصغير لم يزل يسكنه. مددت يدي ألتقطه، وأديره في كف يدي مفكرًا، والرأس يكاد ينسحق تحت ضغط الحيرة والارتباك. هل كان ما قالته صفاء محض وهم؟ هل كلماتها أتت من ذات الجحيم الذي يأتي منه شبح هالة؟ ولكن كيف يتجسد الوهم على شفاه الواقع؟ أم ترى أن صفاء كلها لم تكون سوى

وهم؟! ولكن كيف يقود الواقع للوهم؟ أم ترى أن دكتور سراج كذلك وهم؟ أو ربما حياتي كلها؟ سراج.. صفاء.. سلمى.. وحتى هذا الفندق. ربما أنا لست هنا! ربما أنا لست الآن! ربما أنا.... أنا فقط مجنون منسي في زنزانة حقيرة خانقة. انتبهت لحظتها لجريان الدموع؛ دموع خوف وحزن وقهر. من أنا؟ وماذا أنا؟ وإلى أين أنا؟ حينها تمنيت الموت، فربما كان هو الصورة الوحيدة لليقين. لكني هدأتُ حين شعرت بلمسة يدها على كتفي. التفت محمولا على جناح اللهفة، فرأيت هالة واقفة ورائي تبتسـ...

كانت سلمى تضحك بسعادة منفلتة، حتى إنها ختمت ضحكتها بتصفيق حماس من يديها..

ـ أنا لا أصدق أنك وافقت. ولكن أليس من المفترض أن تأتي معي لتزور شقتي؟ دعنا نخطط سويًّا كيف سنعدها لاستقبال زواجنا. ولا تخف مني، فأنا لن أستغل وجودنا وحدنا لأراودك عن نفسك، فأنا لست بهذه الوحشية. كما أن ابني بالتأكيد سيكون حاضرًا، فأنا لن أستطيع إدخال رجل غريب للشقة دون وجوده، حتى لا أستفذ فضول الجيران...

تركتها تسترسل واندفعت أتأمل حيرتي. ماذا أفعل هنا؟ وكيف جئت إلى هنا؟ لقد كنت منذ لحظة في حجرتي بالفندق. فكيف أكون الآن في هذا المطعم، أجلس أمام سلمى عبر طاولة عامرة بالطعام؟ اللعنة؛ لقد كان دكتور سراج محقًا. لقد أصبت بخلل خطر في الذاكرة.

ـ منذ متى ونحن هنا؟

قاطعتها بسؤالي فصمتت ثم ضحكت، معتقدة أن سؤالي هو مجرد مزحة ألقيها تعليقًا على ثرثرتها الطويلة..

ـ حسنًا أنا آسفة. يبدو إني اندفعت في حماستي كالمعتاد.

ـ أنا لم أقصد هذا. أنا أتحدث حرفيًّا؛ منذ متى ونحن في هذا المكان؟

نظرت في عيني، ثم نظرت في ساعتها، ثم نظرت في عيني مرة أخرى..

ـ منذ ساعة تقريبًا.

ساعة في هذا المكان، ويعلم الله كم من الوقت قضيته في حجرة الفندق، ربما ساعة أخرى. ساعتان إذن ضاعتا من عمري في غمضة عين.

ـ هل أنت بخير؟

هززت رأسي..

ـ أنا فقط لا أتذكر إن كنت تناولت دوائي أم لا.

ـ هل هو معك الآن؟

سؤال جيد ولكني لا أعرف إجابته. أرسلت يدي تفتشان في جيوبي لعلي أجده نائمًا في مكان ما. لكنَّ يديَّ لم تجداه، وبدلا منه وجدت يدي اليمنى سكينًا صغيرًا ذا مقبض أحمر في جيب بنطالي! لماذا أحضرته إلى هنا؟ أعدته إلى جيبي قبل أن تلاحظه سلمى، وأمام نظراتها المتسائلة، قلت:

ـ كلا، ليس معي.

ـ هل تريد أن نرحل؟

وجود السكين ذكرني للفور بكلمات صفاء الراعي عن تسجيل الفيديو. أعتقد أني فهمت ما تقصده. نظرت إلى سلمى مستعيدًا ثرثرتها الطويلة منذ قليل، وسألتها متحققًا:

ـ هل أخبرتك أني موافق على العيش في شقتك بعد الزواج؟

ـ بالطبع.

رسمت على وجهي ابتسامة قبل أن ألقي بطلبي الذي أعرف أنه قد يبدو وقحًا..

ـ أنتِ إذن لم تعودي بحاجة لمفتاح شقتي، فهل يمكنني استعادته؟

برغم أنها لم ترفض أو تُبْدِ أيَّ اعتراض. ولكن ثانيتين من الصمت جعلتاني أرتبك، وأقرر تقديم تبرير..

ـ أنا أحتاج أن أحضر أغراضًا هامة من هناك.

ابتسمت وهي تفتح حقيبتها..

ـ بالطبع.

أخرجت المفتاح وأعطته لي. دسسته في جيبي شاكرًا، وأنا أحاول الاندماج في القادم من جلستنا، متناسيًا الجنون الذي يحدث. وعندما انتهينا خرجنا من المطعم متشابكي الكفين. وضعتها في سيارة أجرة ولوحت لابتعادها مودعًا. ثم انطلقت نحو شقتي.

عندما دخلتها احتوتني موجة من الحنين، برغم أن آخر ذكرياتي هنا لم تكن جميلة. انطلقت إلى حجرة النوم، وفتحت الدولاب، وهناك وجدت جهاز العرض الصغير لم يزل في موضعه. متلهفًا قمت بتشغيل تسجيل الفيديو الوحيد عليه. ومن عين المراقب لما حدث في ذلك اليوم البعيد في حمام السجن، شاهدت صورة واضحة لذلك الرجل المجنون وهو يخرج السكين من مخبئه ويلوح به في وجه الحارس صارخًا، قبل أن يمزق به مؤخرة رقبته! كان تسجيل الفيديو مطابقًا تمامًا لذاكرتي عن الحادث، فكيف رأيته مرتين من قبل بطريقة أخرى؟! انهرت جالسًا على الفراش،

وإعصار يحملني عاليًا ويدور بي في مسار حلزوني لا نهاية له. ما تفسير كل هذا؟ وما الذي...

استيقظتُ صباحًا على صوت المنبه لأجدني نائمًا فوق فراشي الفندقي المريح. متى عدت إلى الفندق؟ وكيف بدلت ملابسي ونمت؟ لقد كنت منذ لحظات في حجرة نومي في شقتي! تذكرت جهاز العرض والسكين الصغير، فقفزت من الفراش أبحث عنهما في الحجرة. لم يطل البحث حتى وجدتهما في أحد أدراج التخزين في الدولاب. تركتهما في مكانهما وانهمكت في أداء طقوس الصباح حتى لا أتأخر عن موعد العمل.

مرت ساعات الصباح الأولى بطيئة ومملة. كنت أحصي كل دقيقة وكل ثانية. أضع كامل تركيزي في كل خطوة وفي كل حركة يد وفي كل كلمة تعبر أذني. كنت متحفزًا لالتقاط أية فجوة زمنية جديدة. لكن خلال تلك الساعات القليلة لم تخني الذاكرة، ولم تقفز بي عبر الأحداث والأزمان. وعندما دوَّت صافرة استراحة الغداء كنت قد صرت منهك البدن والعقل، فلم أفكر سوى في إلقاء جسدي فوق أحد مقاعد المطعم لأتناول أي شيء تطاله يداي.

وسط زحام المطعم تلقيت اتصالا من سلمى، كانت مندهشة؛ لأني لم أصعد اليوم لمكتبها، سألتني مرارًا إن كنت بخير، وأكدت لها في كل مرة أني بخير، وأني فقط جائع ولم أحتمل تفويت موعد الغداء. أنهيت المكالمة واستعدت انهماكي البطيء في تناول الطعام. أمامي كالمعتاد التلفاز يعرض الأخبار، فقط الأخبار. هذه المرة كنت أتابعها بفضول لعلي أظفر بأخبار جديدة عن قضية صفاء الراعي. لكني بدلا من هذا ظفرت بخبر أكثر

أهمية. خبر يستعرض زيارة دكتور سراج فاخر التاريخية لأحد الدول الصديقة بالأمس! أخرجت هاتفي ونظرت له متحققًا من تاريخ اليوم. هل يمكن أن تكون القفزة الزمنية الأخيرة قد عبرت بي أيامًا للأمام؟! لكن التاريخ المدون على شاشة الهاتف يؤكد أن رحلتي الصغيرة مع دكتور سراج لزيارة صفاء الراعي كانت فعلا بالأمس. لكن التلفاز يؤكد أن الرجل لم يكن في البلاد أساسًا بالأمس!! قاومت الدُّوَار، ونهضت أضرب الأرض المتموجة بخطوات سريعة، كدت أسقط مرات، واستندت على أكتاف الزملاء المدهوشين مرات. في النهاية بلغت دورة المياه، فحبست نفسي بداخلها ورتجت الباب. ماذا يحدث؟ الأمر هذه المرة خرج عن نطاق الأوهام والهلاوس. التحول المفاجئ الذي حدث لصفاء الراعي في نهاية حديثنا. وتسجيل الفيديو الذي يصور حدثين مختلفين. ودكتور سراج الموجود واللاموجود. أشعر أن هناك شيئًا أكبر مني بكثير هنا. هناك مَن يتلاعب بي؛ ربما طفل فضولي يسلط على رأسي بؤرة عدسته المكبرة ليحرقه مستمتعًا بتجربته العلمية الأولى! لأول مرة أشعر كم أحتاجها. نظرت في المرآة الكبيرة، وكأنما أمارس طقوس استدعاء سحرية ناديتها:

ـ هالة.. هالة أنا آسف. أنا لم أقصد ما قلته. لقد كنت مخطئًا. أنا بحاجة إلى وجودك.

فجأة سمعتُ أصوات الكثير من الصيحات والهرج خلف باب دورة المياه. قادني الفضول لأفتح الباب فرأيت أجساد الزملاء الخشنة تتدافع في انطلاقة جماعية محمومة نحو اتجاه ما. خرجت أتبع الحشد، فقادنا اندفاعنا نحو فناء المصنع. هناك تسمَّر الرجال مُتيحين مسافة كافية

لمتابعة ما يحدث دون أن يطالهم أي من الأذى. اكتفوا بالشهقات والبسملة وهم يحاولون فهم طبيعة تلك المعجزة. لكني كنت أفهم، وأعرف أني أنا من استدعيت تلك المعجزة. فقد كانت هالة هناك على حصانها المجنح، يحلق بها على ارتفاع منخفض يمكنها من قتال رجال أمن المصنع بسيفها. سقط منهم من سقط، وهرب منهم من هرب، وحين فرغت منهم رفعت رأسها نحو الحشد فرأتني..

ـ هيا أسرع، ماذا تنتظر؟

هرعت نحوها، مددت ذراعي أتلقف يدها الممدومة، وبمساعدة جذبة قوية من يدها قفزت لأعتلي صهوة الحصان وراءها. وَكَزَتْ بكعبيها بطنَ الحصان فارتفع محلقًا نحو المزيد من الأعلى.

ـ تماسك جيدًا حتى لا تسقط...

كنت ممددًا في فراشي في الفندق، وكانت سلمى تروح وتجيء بنشاط تفرغ أحشاء الدولاب في حقيبة سفر أنيقة مفتوحة فوق الفراش بجوار موضع قدمي. وكالعادة كانت تثرثر..

ـ أنا لم أتراجع عن رغبتي في إجراء تعديلات على شقتي، ولكن لا مانع أن نقوم بهذا ونحن نسكنها. المهم أنك لم تعد قادرًا على العيش وحدك وأنت على هذا الحال، وأنا بالتأكيد لن أعيش معك لأخدمك دون زواج.

نزعت انهماكها مما تفعله، ووجهت نحوي نظراتها الحالمة..

ـ ما شعورك ونحن سنتزوج بعد دقائق من الآن؟

عدلت وضع نومي في الفراش، ورفعت ظهري قليلا لأتمكن من رؤية

ساقي اليمنى الملفوفة بجبيرة صلبة..

ـ هل سقطت من فوق الحصان؟

بدت عليها الدهشة..

ـ أي حصان؟! لقد وقع صندوق على ساقك في المصنع.

هززت رأسي رافضًا..

ـ هذا لم يحدث.

تقدمتْ نحوي وجلست بجواري على طرف الفراش. وضعت كفًا مبسوطة فوق جبيني تتحسس حرارتي..

ـ هل أنت محموم؟

نزعت يدها عن رأسي بحركة حادة..

ـ أنا لا أخرف.

نهضت وعلى وجهها قلق..

ـ حسنًا دعني أطلب طبيب الفندق؛ فقط لنطمئن.

صرخت فيها:

ـ أنا لا أريد أطباء. فقط أريد أن أبقى وحدي.

تأملتني مذهولة، وعيناها تترقرقان بشبه دموع..

ـ ماذا دهاك؟ لقد كنت للتو سعيدًا بقرار زواجنا العاجل.

نهضت جالسًا على طرف الفراش..

ـ أنا لا أذكر أي شيء من هذا.

لحظتها استسلم جفناها فانفجرت دموعها..

ـ هل تتخلى عني؟

هززت رأسي:

ـ اسمعي يا سلمى. أنا لا أعرف ماذا أريد. ولا أعرف ما هي الحقيقة. أنا فقط أريد وقتًا خاصًا أنفرد فيه بنفسي.

تعالى صوت البكاء، وصار النشيج يمزق الكلمات..

ـ لقد فهمت. أنت تشعر الآن أنك تعجلت. لا عليك، أنا لن أفرض نفسي...

كانت تتحرك من أمامي فمددت يدي أقبض على كفها، فتوقفت عن الحركة وعن الكلام..

ـ هناك شيء مخيف يحدث لي، وأنا لا أفهمه. فقط امنحيني بعض الوقت حتى أجد الحقيقة.

ركعت أمامي:

ـ أخبرني بما يخيفك، ودعنا نتجاوزه معًا.

لن أخبرها بالطبع أني على حافة الجنون. ولن أخبرها أني لم أعد أثق في أي شخص، ولا حتى هي. ولن أخبرها أني لم أعد أثق حتى في عقلي ذاته. برغم أن عقلي يصرخ بتفسير لتلك القفزات الزمنية لكني لا أثق في حكمه أو كلمته. هو يعتقد أن الأمر مرتبط برؤى هالة. وكأن ظهور شبحها يتم محوه من ذاكرتي. عندما نطقت صفاء بلسان هالة، انقطع حبل الزمن. وعندما رأيتها في هذه الحجرة، انقطع حبل الزمن. واليوم حين اعتليت وراءها صهوة الجواد، كذلك انقطع حبل الزمن. الأمر ليس مصادفة. هناك صراع بين عقلي وبين شبح هالة ليست لي سيطرة عليه. وكل أصابع الاتهام تشير إلى الشريحة.

نهضت واقفًا، وقطعت خطوات عرجاء نحو باب الحمام المغلق..

ـ البركان الثائر في عقلي لا يمكن لمخلوق سواي أن يواجهه. وأنا سأواجهه يا سلمى. لا تقلقي. فقط أعطيني مساحتي.

فتحت باب الحمام ودخلت إلى الظلام. لا أعرف ماذا أريد أن أفعل. أنا فقط أهرب منها ومن الموقف. وقبل أن أغلق الباب كان صوتها يصلني:

ـ أنا لن أغادر يا أكرم. فقط سأتصل بالمأذون وألغي الموعد. ولكن أرجوك لا تجبرني على المغادرة.

أغلقت الباب فغمرني الظلام. رتجت الباب من الداخل ثم تحسست الحائط بحثًا عن زر الإضاءة. ضغطته فسطع الضوء الأبيض قويًّا لدرجة أجبرتني على إغماض عيني لثانيتين. وعندما فتحتهما تأملت المكان حولي. كان ممرًّا طويلًا وضيقًا. تتراصُّ على جانبيه جدران الزنازين الخانقة، وأبوابها المصنوعة من سياج من صلب، يسمح برؤية ما بداخلها. تقدمت في الممر أنظر عبر الأبواب إلى أجساد الرجال المتهالكة ممدودة على الأَسِرَّة في شبه موت. وجوههم تتقلص، وأفواههم تطلق أنات خافتة، تفاعُلا مع الكوابيس المخيفة التي صاروا يعيشون داخلها. منذ وقت قريب كنت واحدا من هؤلاء. أسرعت الخطى أجتاز زنزانة وراء الأخرى باحثًا عن ذاتي بين المسجونين. لكني عند نهاية الممر وجدت هالة واقفة في عتادها الحربي تبتسم لي..

ـ هل صدقتني الآن؟

ـ لا أعرف. فأنت في النهاية مجرد وهم.

قالت مصححة:

ـ حلم.

أيدتها:

ـ حسنًا. أنت حلم. والأحلام لا صدق أو كذب لها. الأحلام هي انعكاس لذواتنا وأفكارنا.

اتسعت ابتسامتها..

ـ أنت إذن حين تصدقني، فأنت تصدق نفسك. دعني أعيد صياغة السؤال؛ هل صدقت نفسك الآن؟

هززت رأسي أسفًا..

ـ أنا لا أصدق أي شيء. كل ما حولي يتأرجح بعنف بين الواقع والحلم. حتى سراج وسلمى؛ هم كذلك أحلام محتملة.

قالت مصححة:

ـ بل كوابيس.

سألتها:

ـ الشريحة يجب أن تنزع؛ أليس كذلك؟

هزت رأسها بالإيجاب ولم تنطق. شردتُ لثانيتين في ذكرى قديمة، ثم عدت لها..

ـ لقد كان الحل أمامي منذ البداية وأنا لم أفهم.

مددت يدي في جيبي موقنًا أني سأجده هناك. وبالفعل خرجت يدي قابضة عليه. لم أحتج النظر لأدرك أن ما في يدي الآن هو سكين صغير حاد له مقبض من بلاستيك أحمر.

ـ سأفعلها يا هالة.

كنت واقفًا في الحمام الصغير الملحق بغرفتي الفندقية. أتأمل انعكاس وجهي في المرآة الكبيرة، وأتحسس نصل السكين في يدي. الآن أعرف الطريق. للحرية طريق واحد أنكرته طويلا. طريق في نهايته سأسعى بين المروج، وأنام على الأغصان. سأمتطي غيمات الصيف، وأتنفس عبق الزهور. يدي تصعد بالسكين نحو مؤخرة عنقي، حيث يقبع ذلك الشيطان المجهري. الآن سأتخلص منه للأبد، وبعدها سآكل الرحيق، وأشرب أنهار الخمر، وأتسلق جبال الورود. فقط حين يتم السكين رحلة بدأها الآن، يخترق فيها جلدي ولحمي. أتماسك حتى لا أصرخ. لكن الانفتاح المفاجئ لباب الحمام يوقفني. أستدير مسرعًا حيث يقف دكتور سراج يتأملني مصدومًا..

ـ ماذا تفعل بالله عليك؟!

أصرخ فيه:

ـ كيف دخلت إلى هنا؟ لقد كان الباب موصدًا من الداخل.

صرخ متجاهلا دهشتي:

ـ ما هذا الجنون الذي كنت تفعله؟! أعطني هذا السكين.

مد يد العنوة ليخطف صديقي الصغير من يدي. أبعدت يدي الممسكة بالسكين ودفعته بيدي الحرة. لكنه قاوم الدفعة وقبض على ذراعي ليشل حركتي. حاول الوصول للسكين، لكني قاومته بدوري.

ـ أنت أحمق. تريد أن تقتل نفسك.

ـ أنا أريد أن أتحرر.

ـ لقد سكنك الجنون.

ـ دعني إذن أخرجه من جسدي. لقد حاولت أن أشرح لك من قبل؛ الشريحة هي السبب. ذلك الشيء لم يزل حيًّا. ولن يتوقف حتى يلتهمني. وربما بعدها يحل الدور عليكم جميعًا.

لم يرد على كلماتي سوى بالصمت. وحتى مقاومته لي خفتت، ثم توقفت تمامًا واسترخى جسده. ظننت في البدء أن منطقي انتصر، وأنه صار مؤيِّدًا. لكني عندما تأملت الموقف بعين الواقع، أدركت أن الأمر ليس كذلك. وإنما ما أسكته وأرخى جسده هو السكين الصغير الذي زُرع في رقبته. مرتجفًا جذبت السكين خارج لحمه، فانفجرت دماء الرجل في وجهي، وسقط على الأرض وهو يسدد لعيني نظرة مذهولة مستنجدة. تراجعت خطوتين للوراء لأبعد مسافة سمح بها ضيق المكان، لأتفادى سقوطه فوق قدمي. ماذا فعلت؟! ماذا فعلت؟! أنا الآن صرت قاتلًا بحق. كنت أفكر في توابع فعلتي حين سمعت صوت شهقتها. رفعت وجهي إليها، فرأيتها تقف خارج باب الحمام المفتوح تتأمل ما يجري.

ـ سلمى أنا...

توقفت عن أية محاولة للتبرير حين صرخت وهرعت تجري نحو باب الحجرة. لم تترك لي مساحة للتعقل أو حتى تداول بعض الأفكار. كان الاضطرار هو ما يحركني، وغريزة النجاة هي دافعي الوحيد. انطلقت خلفها متناسيًا عرج ساقي المصابة. أدركتها قبل أن تفتح باب الحجرة. جذبتها من شعرها بيسراي، وبيميناي غرزت ذات السكين في رقبتها مرات حتى تهاوت عند قدمي، ولوثت جبيرتي البيضاء بدمائها.

كانت خطواتي تسبق أفكاري. لم أعط الأفكار مساحة لتنمو، وبتلقائية

أسرعت نحو نافذة الحجرة. أخرجت رأسي للشمس أفتش أرجاء السماء عن حصان طائر يحمل خلاصي. لكني لم أر شيئًا. بالطبع أيها الأحمق! ما يجري هو واقعك، ولن ينقذك منه حلم جميل. استدرت معيدًا نظراتي إلى داخل الحجرة، حيث جسدان مقتولان يرسمان حقيقة نهايتي. أنا لن أبقى هنا. إن كانت النهاية وشيكة، فلن أقضي ما بقي لي من زمن هنا. تحركت مغادرًا الحجرة. أغلقت بابها ورائي، وقطعت الردهة الطويلة نحو المصعد. تجاهلت نظرات عامل المصعد الخائفة لجسدي المرتجف، والدماء التي تغطيني. خرجت للبهو الشاسع المزدحم. كل الوجود يتحلق حولي. نظرات الناس، أجسادهم، خوفهم. إلى أين سأذهب؟ يجب أن أعترف أن هنا نهاية ملائمة. برغم دوران العالم، لكني شعرت باستقرار ما. برغم تموج الأرض والجدران والوجوه، لكني شعرت بثبات ويقين لم أعهدهما منذ عقود. اتجهت إلى موظف الاستقبال، واستأذنته لاستخدام الهاتف. الرجل لم ينطق، ولكن اتساع عينيه خوفًا كانا بالنسبة لي كموافقة منشودة. أمسكت الهاتف من أمامه وطلبت رقم نوح. هذه المرة أجابني بعد أمد قصير من رنين إلكتروني..

ـ ألو.

ـ نوح. لقد فعلتها. لقد صرت قاتلا بحق هذه المرة؛ ولا أعرف ماذا يجب أن أفعل الآن.

صمت لثوانٍ وكأنما يقيس مسارات ردود الأفعال المحتملة؛ ثم قال:

ـ ابق مكانك. لا تتحرك ولو خطوة واحدة. أنا قادم إليك.

أنهيت المكالمة وبقيت مكاني. لم أتحرك ولو خطوة واحدة. حتى مع

تجاوز سرعة دوران العالم حدود احتمال العقل، فانهار في ظلام ثقيل. ومعه انهار الجسد على الأرض الأنيقة اللامعة.

***

عندما استعدت القدرة على الرؤية كان نوح هناك. كان واقفًا يتأملني وكأنما منذ زمن ينتظر لحظة الصحو. الضوء ناعس، والمكان هادئ، وصوت الصفير الخافت المتقطع يبدو مزعجًا في هذا الهدوء. لم أحتج لأكثر من نظرتين، وبعض قدر من الإدراك لأعرف أني ممدد على فراش في حجرة أنيقة بمستشفى ما. حاولت التحرك لكني كنت مجهدًا واهنًا. وضع الشاب يده على كتفي برفق ليوقف محاولتي الموؤدة في مهدها..

ـ استرخ. فأنت لم تخرج من حجرة العمليات سوى منذ دقائق.

استسلمت للرقاد، وللضعف، وللضباب الساكن العقل. أغمضت عيني منتظرًا لحظة الصحو الحقيقية، أوالقفزة الزمنية التالية. لكن من باب اتباع كامل الاحتمالات، سألته:

ـ هل أنا مريض؟

سمعته يقول:

ـ بل أنت في أحسن حال.

ثم سمعت صوتًا كصليل الجرس ففتحت عيني. كان يمسك في يده عبوة زجاجية مغلقة، يهزها بيديه، فيندفع بداخلها جسم معدني بالغ الصغر ليرتطم بجوانب العبوة محدثًا هذا الصوت المزعج.

ـ ما هذا؟

ابتسم..

ـ شريحتك. لقد نزعناها منك.

وضع العبوة بجوار رأسي فوق كومود صغير..

ـ أنت الآن إنسان طبيعي. لا أحد ولا شيء قادرين على التحكم بعقلك.

ابتسمت بين تكذيب ويأس..

ـ ربما كل هذا مجرد حلم.

بجدية قال:

ـ أنت لا تحلم الآن. لقد انتهت هذه المرحلة من حياتك. من الآن فصاعدًا ستعيش في الواقع ولا شيء غير الواقع.

هززت رأسي في إصرار:

ـ الواقع الوحيد الذي أعرفه هو زنزانتي. أرجوكم أعيدوني إليها سريعًا، فقد نلت من العذاب أكثر مما أستحق.

تنهد ثم قال:

ـ أنا أعرف أنك لن تصدق بسهولة. وهذا أمر طبيعي.

تقدم من الفراش وضغط زِرًّا بجانبه، فارتفع ظهر الفراش ليتخذ جسمي وضعًا يشبه الجلوس.

ـ لكن في النهاية أنا ليس موكل بي إقناعك بأي شيء. فهذه ليست مهمتي.

قطع الخطوات نحو الجانب الآخر من الحجرة وهو يتابع:

ـ وإنما مهمتها هي.

تبعته بنظراتي فرأيت لأول مرة تلك السيدة النائمة فوق مقعد وثير في جانب الحجرة متدثرة بالظلام. برفق وكزها نوح بأطراف أصابعه..

ـ ماما.. لقد أفاق.

فتحت السيدة عينيها وتأملت المكان حولها لثانيتين وكأنما تتساءل عن سبب وجودها هنا. وعندما حطت نظراتها على وجهي أشرقت بابتسامة ونهضت وهي تمسح وجهها بكفيها محاولة استعادة أقصى حالات الصحو. تقدمت نحوي بخطوتين مترنحتين وجلست على طرف فراشي.

ـ كيف حالك يا أكرم؟

ابتسمت ولم أرد لفترة..

ـ كنت أعرف أن هذا وهم جديد.

هزت رأسها..

ـ ليس وهمًا يا أكرم. أنا هالة الحقيقية. انظر إلى وجهي. هل ترى آثار الزمن؟

أعقبت سؤالها بمد يدها نحو زر الإضاءة المجاور للفراش، ليشع الضوء في الحجرة قويًّا. عندها لم يعد أمامي مجالا للشك. هذه ليست هالة الشابة الجميلة. ليست تلك التي تزوجتها منذ ثلاثة عقود، ولا تلك التي تلعب دور البطولة في أحلامي. هذه هالة جديدة تمامًا. هالة لم أقابلها من قبل. بشعر أبيض معظمه، ووجه قتلت التجاعيد تورده. هذه هالة المرسومة بريشة الزمن الشرير.

ـ مستحيل. لقد ماتت هالة.

لم تجبني فورًا. وإنما التفتت إلى نوح وقالت:

ـ اتركنا وحدنا.

هز نوح رأسه في طاعة، ثم غادر الحجرة وأغلق بابها خلفه. نظرات

هالة كانت تقتحم عمق عينيَّ، وابتسامتها تمارس أجمل عملية اغتيال لروح تواقة للموت، وأصابعها ارتفعت لتلامس خدي، فتثير جنون القلب.

ـ هل تشعر بهذا؟ هل تشعر بي؟

سالت دموعي فتجهمت..

ـ لا تبك يا صغيري.

مسحت الدموع بطرف إبهامها..

ـ حَرِيٌّ بك أن تسعد الآن. فقد تحررت كما كنت تشاء.

ـ كيف أتحرر وأنا أشعر بالخداع. هناك كذبة ما. إما أن موتك كان كذبة. أو وجودك هنا هو الكذبة.

أبعدت يدها عن وجهي، وارتسم الجد على وجهها، وبدا أننا ندخل سويًّا إلى عالم بلا أكاذيب أو خداع..

ـ أنا مَن طلبتُ من نوح أن يخبرك بكذبة موتي. فقد كنا بحاجة لبعض الوقت، وبعض التجارب قبل أن نمنحك حريتك كاملة.

لِمَ لا أفهم كثيرًا مما قالت؟ لماذا تتحدث بصيغة الجمع؟ وماذا تقصد بالتجارب؟ هل كنتُ طوال الوقت ضحية لعبة ما؟

ـ وهل كان دكتور سراج كذلك يكذب عندما يتحدث عن موتك؟ لقد بدا لي حزنه حقيقيًّا.

مطت شفتيها فيما يشبه الإحراج. في إشارة لصعوبة ما ستقوله..

ـ لم يكن هناك دكتور سراج من الأساس. لقد كان مجرد حلم يقظة.

ـ تقصدين وهمًا؟

ـ بل حلم يقظة كنا نبثه في عقلك عبر الشريحة.

الآن أدرك أن هذه ليست هالة. نظري يتجه تلقائيًّا نحو النافذة الزجاجية التي تنقل للحجرة ظلام الليل، لعلي أظفر بلمحة من هالة الحقيقية تحلق هناك.

ـ أهذه هي التجربة التي تقصدينها؟

تنهدت في محاولة جديدة لتصدير إحساس الاختناق بالذنب وصعوبة الاعتراف، وهو ما لا أصدقه. ثم قالت:

ـ دعني أخبرك كل شيء بصراحة لأرتاح. أنت تعرف أن الحكومة السابقة كان لديهم مشروع لبث أحلام اليقظة في عقول المواطنين. وأنت بنفسك عُرِض عليك أن تكون فأرَ تجاربَ لهذا المشروع، ولكنك رفضت. على حد علمنا هذا المشروع لم ينفذ. وهذا المشروع تحديدًا هو أكثر ما أثار انتباهنا عندما تولينا زمام الحكم. نحن منذ اللحظة الأولى كنا ندرك أننا بصدد مهمة عسيرة. نحن على وشك حكم شعب تضاعف عدده في يوم وليلة. هناك ضريبة يجب أن تُدفع للقضاء على بروتوكول تنظيم الوقت، والذي كان المطلب الأول للمستيقظين. هذه الضريبة تتمثل في فترة طويلة من الترنح الاقتصادي والاجتماعي. فترة من المعاناة الحقيقية. فماذا إن استطعنا أن نخفف من معاناة الناس خلال هذه الفترة، عن طريق...

قاطعتها بابتسامة متهكمة وقول:

ـ عن طريق بث أحلام يقظة جميلة في عقولهم؟

ـ بالضبط. لعبة بسيطة وغير مؤذية، لكنها قادرة على إنقاذ هذا الوطن من مصير مظلم. ستجعل الناس يعيشون في سعادة. ستجعلهم يحبون بلدهم، ويفتخرون بها...

قاطعتها مرة أخرى:

ـ ستجعلهم مغيبين.

هزت رأسها في عناد..

ـ هذا ما كانت تسعى إليه الحكومة السابقة، ولكن ليس نحن.

ـ أليس ما تفعلونه هو نفسه ما كانت الحكومة السابقة تريد فعله؟

صمتت لثوان وابتسمت في محاولة لتهدئة إيقاع الجدال، ثم قالت:

ـ أول مبدأ تعلمته عند اشتغالي بالحكم، أن الطريق الواحد قد يقود لنهايات مختلفة.

تذكرت هذا القول..

ـ لقد قال لي دكتور سراج نفس هذا الكلام من قبل.

اتسعت ابتساماتها:

ـ إنها كلماتي التي جعلتُ المبرمجين يبثونها في حلمك على لسان نسخة دكتور سراج.

حاولتُ ابتلاع شعور الخداع مرة أخرى حتى لا أنهار قبل أن أصل إلى اليقين التام..

ـ لماذا دكتور سراج؟

ـ لقد كان جزءًا من التجربة. أن نجعلك تحب رمز الحكم في بلدك.

ـ أن تجعلوه صديقي الوحيد؟

ـ بالضبط.

تمهلت كثيرًا قبل أن ألقي السؤال التالي؛ لأني أعرف أني على وشك هدم كل شيء أحببته في حياتي منذ أن عدت للحياة مرة أخرى..

ـ وسلمى؟

هي كذلك تمهلت في الإجابة، ربما لتعطيني الفرصة لتأمل خيالات الندم البادية على وجهها..

ـ سلمى كذلك حلم.

ابتسمت متهكمًا..

ـ هل كنت أحدث نفسي طوال الوقت إذن؟

أجابتني:

ـ مكتب سلمى في المصنع هو مجرد مكتب خالٍ. جلساتك معها أو مع دكتور سراج في الأماكن العامة كانت خاضعة لإجراءٍ نطلق عليه: ضبط العناصر المتفاعلة. بمعنى أن كل شخص في المكان هو تابع لنا، وجزء من التجربة. الناس في الكافيهات والمطاعم، والأطفال في الحدائق، وحتى العمال في المصنع كنا نضطر أحيانا لاستبدال ممثلين صامتين بهم، لم نكن لنسمح بإفساد التجربة عن طريق شخص أحمق يتهكم عليك؛ لأنك جالس تحادث الهواء.

سخرت من كلماتها:

ـ يا له من جهد تبذلونه لجعلي سعيدًا!! وهل تفعلون هذا مع كل الخاضعين لتجربتكم تلك؟

هزت رأسها نفيًا..

ـ نحن لم نُخضع أحدًا بعدُ لبروتوكول السعادة سواك.

أثارت كلماتها فضولي:

ـ ولماذا أنا؟ هل هو جزء من انتقامك؟

ارتسمت حدة مفاجئة في وجهها، سرعان ما تبددت..

ـ دعني أخبرك أمرًا. الرسالة التي قرأتها بخط يدي كانت حقيقية. وكنت قد كتبتها لك في وقت تمكَّن مني المرض فيه، وكنت أشعر باليأس ودنو الأجل، قبل أن يُنعم الله عليَّ بالشفاء لاحقًا. وبحث نوح عنك في السجون كان حقيقيًّا؛ لأني كنت أتحرق لمعرفة ما صار لك. بمعنى أن ما أعلنته في رسالتي من أني لا أحمل لك أية ضغينة هو أمر حقيقي يا أكرم. فلا يوجد أي احتمال لانتقام بيننا.

ـ لماذا اخترتِني إذن فأرًا لتجاربك؟

كان سؤالي غاضبًا، فصمتت هي قليلا مكتفية بنظرات عميقة لعيني تطلب مني ـ صمتًا ـ أن أهدأ. فلما بدا على وجهي قدر من الهدوء، تابعت:

ـ عندما علمت أنك على قيد الحياة ارتبكت وتفاجأت. أنا لم أتوقع هذا أبدًا. فالتاريخ والمنطق يؤكدان أن كلَّ مَن يأخذونه لا يعود. حتى ابنك أنا لم أكن قد أخبرته بحقيقة والده يقينًا مني أنه لن يراه أبدًا. وربيته كابن للثورة وللغضب. وأنا ما كنت أعرف عن ذاتي سوى أني أرملة. حتى إني...

صمتت محاولة استجماع الشجاعة لقول ما تريد. لكن صمتها كان بالنسبة لي ناقلا أفضل للرسالة..

ـ هل تزوجت؟

بعد فترة سكون هزت رأسها بالإيجاب..

ـ تزوجت سراج.

ابتسمت ساخرًا..

ـ أنا إذن الآن في حضرة السيدة الأولى.

لم تلتفت لسخريتي. أو ربما أكسبتها بعض القسوة اللازمة لمتابعة حكايتها..

ـ وجودي الدائم بجوار سراج، ومكانتي المرتفعة وسط جماعة المستيقظين كمخطط أول لها، هما ما قادانا لهذا المصير.

ساخرًا قلت:

ـ تزوجتِه إذن لمصلحة البلاد؟

ـ بالنسبة لي قد يكون هذا صحيحًا. لكن بالنسبة لسراج فقد أحبني حقًا. أحبني قبل أن يراني. منذ أن قرأ تقارير المراقبة التي قدمها له رجاله عني كمرشحة محتملة للانضمام لجماعتهم. جذبته قصتنا، وتأثر بمقدار حبي لك، وربما شعر بغيرة وبرغبته في حب مماثل. ولهذا حرص على تجنيدي بنفسه، برغم أنه لم يكن ليدع أي شخص يعرف حقيقة علاقته بالمستيقظين.

صمتت منتظرة مني أي تعليق. لكني كنت راغبًا في إغلاق هذه الصفحة المؤلمة، فلم أعلق، وتركت لها المساحة للعودة لمسار الحديث الطبيعي..

ـ لذلك لم أشأ أن يحدث بيني وبينك أي تواصل بعد إخراجك من السجن. حتى حدثني سراج عن مخططه بخصوص أحلام اليقظة. وقتها ما كنا نعرف عن محاولة الحكومة السابقة لبث أحلام اليقظة سوى أنها فشلت في كل تجاربها، بسبب أن عقل الإنسان في صحوه لا

يكون بذات القابلية للإيحاء كأثناء نومه. ولهذا لجؤوا لمحاولة اقناع المواطنين بقبول بروتوكول أحلام اليقظة تطوعًا. وقد حاولوا إقناعك أنت شخصيًّا بقبوله، ولكنك رفضت. لكن المستيقظين يمتلكون فريقًا رائعًا من الشباب التِّقَني، وأغلبهم كانوا واثقين أنهم قادرون على ابتكار حلول لهذا العائق..

قاطعتها مرة جديدة:

ـ هذا العائق اسمه العقل والإرادة!

لم تبال بمقاطعتي وواصلت:

ـ سراج والفريق التقني كانت لديهم رغبة في أن تكون أنت حقل تجارب بروتوكول السعادة؛ لأنك أشبه بتحدٍّ. إن نجحوا في تشغيل البروتوكول معك، فسينجحون في تشغيله على أي عقل.

مرة أخرى تمكنت من القبض على فضولي..

ـ لماذا؟

ـ لأن تقاريرك في السجن كانت مذهلة. سبع وعشرون عامًا من الفشل في السيطرة على عقلك. دائمًا كنتَ تقاوم. كنت قادرًا على الخروج من كوابيسهم وصنع أحلام جميلة خاصة بك. هذه القوة لم يفهمها أحد. لا رجال التحقيق، ولا خبراء الحكومة السابقة، ولا حتى شبابنا.

استعدتُ لحظتَها دفقةً من ذكريات عدة. كلها كانت تدور حول فارسة أسطورية جميلة، تمتطي حصانًا مجنحًا..

ـ هذه القوة غير المفهومة هي أنت يا هالة. لقد أنقذني حبي لك.

لاحظت ارتجافة مفاجئة في يديها، ومحاولة سريعة وناجحة من جانبها لاستعادة السيطرة..

ـ أيًّا كانت تلك القوة. لكنها كانت تمثل لنا التحدي المنشود لصنع تجربة محكمة تجعلنا نقف على مدى قوة بروتوكول السعادة. وبعد كل هذا الوقت، وبعد الجهد والمال الذي بذلناه في التجربة. أستطيع أن أقول لك: إن التجربة فشلت معك تمامًا. مرة أخرى كان عقلك عصيًّا على السيطرة التامة. لقد صنعنا لك صداقة متينة مع صديق كريم ومتفهم وذي شأن. وصنعنا لك قصة حب مع سيدة جميلة ومندفعة كطفلة وتهواك بجنون. لكنك دائمًا كنت قادرًا على صنع أحلامك الخاصة، لتمزق بها النسيج الذي نحاول إحكامه حول عقلك. وكلما كنا نظن أننا تمكنا منك، كنت قادرًا على مفاجأتنا بالمزيد من التمرد. حتى اكتشفنا أننا تحولنا إلى رد فعل لأحلامك أنت. بدلا من أن نبث في عقلك ما نشاء، أصبحنا نطارد أحلامك في محاولة لمحو آثارها السلبية عليك. حتى إننا اضطررنا لتجربة تقنية خطرة، وهي أن نقوم بحذف ذكرياتك عن أحلام اليقظة التي تنتجها بنفسك، وهو ما تسبب في تلك الفجوات الزمنية التي انتابتك مؤخرًا.

قادتني كلماتها لمنطقة غموض جديدة..

ـ لقد بدأت تلك الحالة يوم لقائي بصفاء الراعي.

هزت رأسها وقالت:

ـ لقد كان هذا اللقاء نقطة تحول كبيرة. يمكن أن تعتبره اللحظة التي بتنا فيها مدركين بفشلنا. لقد قمتَ بوضع حلم خاص بك داخل حلم صنعناه لك. لقد حولتَ نسخة صفاء الراعي وجعلتَها تتكلم بلسان أحلامك أنت.

ـ إذن صفاء الراعي كذلك كانت حلمًا؟

ـ لقد كانت محاولة منا لترويض غضبك. خاصة أن تعامُل نوح العنيف معك كان كفيلًا بأن نفقدك. فنوبات الغضب تلك تجعل سيطرتنا على عقلك بالغة الصعوبة.

سألتها كتأدية لواجب معلق، في حين كنت ـ بدرجة كبيرة ـ موقنًا بالإجابة:

ـ إذن صفاء الحقيقية ستُعدم؟

ـ بالطبع. وفي أقرب وقت ممكن.

صمتنا سويًّا لفترة. ربما رغبة منها في منحي مساحة لتأمل كل ما قالته طوال الدقائق الماضية. وهي أشياء تحتاج لأعوام لاستيعابها والتعايش مع حقيقتها الفجة. في حين انشغلت أنا بتأمل العبوة الزجاجية التي تحتوي شريحتي المنتزعة. وعندما طال تأملي، قالت:

ـ لقد نزعنا عنك الشريحة. وهذا اعتراف منا بالفشل. واليوم نحن نناقش مستقبل بروتوكول السعادة. وهل سيتم تطبيقه، أو إعادة تجربته، أم سنلغيه من الأساس.

كانت عيني لم تزل معلقة بالعبوة الزجاجية وأنا أسألها:

ـ كيف تحولتِ هكذا؟ هل كان ما فعلتُه معكِ هو السبب؟

وجهت نظراتي إليها منتظرًا منها إجابة شاملة، بالكلمات وبالصوت، وبنظرات العينين. وهي لم تخذلني؛ فقد كان في الصوت رعشة، وفي العينين التماعة دموع، وهي تقول:

ـ حبي لك لم يكن كافيًا لينقذنا من مصير أسود. لقد كان يجب أن

تحترق هالة القديمة يا أكرم، لتنهض من رمادها هالة جديدة. قوية. قادرة على تغيير مصيرها، وتغيير مصير بلد بالكامل. السلطة والحكم أمور لا تعترف بالقلب، فالقبور مليئة برجال سلطة حالمين، وسجلات الفشل مليئة بحكام عاطفيين.

ابتسمت مشفقًا..

ـ السياسة إذن أخذتك مني؟

ـ بل حبي لبلدي.

ـ أو ربما حبك لسراج.

نكست رأسها وهي تقول:

ـ هل تعتقد أن الزواج من رجل ينام معظم الوقت، وفي أي وقت، هو شيء رائع؟

ـ على الأقل هو أفضل من زوج لم تَرِيه مستيقظًا طَوال عامين كاملين.

ـ ربما. فأنت تعرف ما يفعله بنا الزمن.

ـ إنه أنت يا هالة لا الزمن.

صمتتْ قليلا، ثم قررتْ إدارة دفة الحديث لنقطة أكثر راحة:

ـ أكرم، أنت الآن حر حقًّا. كل ما أريده منك هو أن تفكر جيدًا فيما تريد أن تفعله في حياتك، وأنا سأساعدك بكل مقدرتي. إذا أردت نقودًا، أو تسهيلات من أي نوع، أو....

كانت كلماتها تواصل الخروج من فمها دون صوت، أو ربما حواسي أنا هي التي غادرتها. فقد كان كل شيء منصبًّا على تلك النقطة وراءها؛ مشاعري، ومداركي، والزمان، والمكان، ودوران الكرة الأرضية؛ كل شيء كان

يتجه لحظتها لانفتاح باب الحجرة، ودخول هالة منه. تقدمت خطوتان لتقف وراء كتف السيدة العجوز الثرثارة. كانت في كامل عتادها الحربي، وسيفها مُشرع في يدها يقطر دمًا. أعرف أنها خاضت حربًا طويلة وشرسة لتجدني. رفعت هالة سبابتها إلى شفتيها المضمومتين تطلب مني عدم إصدار صوت حتى لا تنتبه العجوز لوجودها معنا في الحجرة. لكن ربما نظراتي كانت فاضحة، جعلت العجوز تتوقف عن الحديث، وتتلفت إلى ما وراء كتفها، متسائلة:

ـ إلى ماذا تنظر؟

حاولت تشتيت انتباهها حتى لا تلاحظ وجود هالة، فقلت مسرعًا:

ـ أنا فقط كنت أفكر فيما سأفعله فيما بقي من عمري.

ابتسمت:

ـ جميل. وهل توصلت لقرار؟

هززت رأسي. تمهلت ونظري يعود إلى العبوة الزجاجية. مددت يدي أمسكها وأتأملها قرب عيني..

ـ أجل.

ضربت العبوة بعنف في جانب الفراش فتهشمت في يدي. وكما تمنيت كانت إحدى القطع المخلفة عن التهشم كبيرة ومدببة بشكل كاف ليجعل منها مفتاحًا للخلاص.

ـ سأسعى بين المروج، وأنام على الأغصان. سأمتطي غيمات الصيف، وأتنفس عبق الزهور. سآكل الرحيق، وأشرب أنهار الخمر، وأتسلق جبال الورود.

كانت العجوز تردد معي صلاتي الأخيرة وكأنما هي عهود خلودنا، أو كانت تنظر لي صامتة والفزع يتراكم على قسماتها. كنت أمسك يدها بحنان، أو كنت أقبض على ذراعها بعنف وأمنعها من النهوض. كانت تضحك مستبشرة بما هو قادم لنا، أو كانت تصرخ طالبة العون. كلها احتمالات متاحة لتشكيل لحظتنا، ولم أكن أعرف حينها كيف أختار منها لأرسم الواقع. لم يكن في هذا العالم من يقين، سوى اليقين بأن قطعة زجاج مدببة عَبَرَت برشاقة فوق رقبتها، لتشقها بسلاسة حالمة، وكأنما تشق الماء، واليقين بلزوجة الدماء المندفعة كموجة عاتية تضرب وجهي، واليقين باقتراب المطاف الأخير. كان هناك حشد من الرجال يندفعون إلى الحجرة يتقدمهم نوح، كانوا يهللون لنا فرحًا وتشجيعًا، أو كانوا يرفعون في وجهي أسلحتهم المتعطشة للثأر. مرة أخرى أضيع في الاحتمالات، ولا أعرف كيف أختار. تتمسك نظراتي بيد هالة الممدودة نحوي، تدعوني للنهوض من مرقدي، فقد حان أوان السفر إلى عالمنا. لن أقاوم هذه المرة يا هالة، ولن يمنعني عنك فوهات البنادق المنتصبة نحوي، ولا صوت دوي طلقات الرصاص، ولا...

كنت أمتطي الحصان وراء هالة، كنا نضحك. وكانت المروج الخضراء المزينة بالورود البيضاء الدقيقة، تقترب من بعيد.

النهاية